٨١/٦٠
٢٠٠٠
٢٦

الجامعة الأردنية
كلية الدراسات العليا

زكريا تامر والقصة القصيرة

إعداد الطالبة
امتنان عثمان محمد الصمادي

عميد كلية الدراسات العليا

إشراف
الدكتور سمير قطامي

٥
١٢

قدّمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها
بكلية الدراسات العليا في الجامعة الأردنية
(آب ١٩٩٤)

١٥/٥/٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نوقشت هذه الرسالة بتاريخ ٨ / ٨ /١٩٩٤، وأجيزت .

أعضاء اللجنة	التوقيع
١- الدكتور سمير قطامي	(مشرفاً)
٢- الأستاذ الدكتور إبراهيم السعافين	(عضواً)
٣- الدكتور خالد الكركي	(عضواً)

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الإهـــداء

إلى والديّ الحنونين . ثمرة جهدهما . وصبرهما

إلى اولئك الذين اضاؤوا لي الطريق :
زوجي واصل
واخي عامر ... الملهمين الروحيين

إلى ابني العزيز شوقي لقاء صبره على قسوة قلبي . ونزقي

إلى ام واصل التي لازمتني سهري . وكفاحي طيلة إعداد الرسالة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شكر و تقدير

لايسعني في هذا المقام الاّ أن أتقدم بالشكر الجزيل لأستاذي الفاضل « الدكتور سمير قطامي » لقاء ما أحاطني به من رعاية ، وتوجيه ، واهتمام طوال فترة إعداد هذه الرسالة .

أما الأستاذ الدكتور إبراهيم السعافين ، فله خالص الشكر وأطيب الثناء ، لما حفّني به من رعاية ، منذ أن بدأت بجمع الجزازات إلى أن خرج البحث على هذا النحو .

كما أتقدم بالشكر الجزيل لأستاذي الدكتور خالد الكركي الذي تفضل بقبول مناقشة هذه الرسالة ، رغم كثرة مشاغله ، واهتماماته .

إليهم جميعاً ، وإلى كل من وقف يداً وسنداً لي :

- الدكتور فتحي جروان ، والسيد أحمد عبد الوالي .
- وداد ، وحبايب ، وفريال ، ومنال .
- جميع أعضاء مدرسة اليوبيل : إدارة و طلبة ، ومعلمين .

أقدّم خالص شكري وتقديري .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المحتويات

الصفحة

★ قرار لجنة المناقشة ..... ب
★ الإهداء ..... جـ
★ الشكر والتقدير ..... د
★ المحتويات ..... هـ
★ الملحق ..... ح
★ الملخص باللغة العربية ..... ط

★ **الفصل الأول:** .....

- **المقدمة** ١

- **التمهيد:** .....

- لمحة موجزة عن واقع القصة السورية ٣

- حياته ورؤيته الفكرية ٥
أ - مفهومه السياسي ١٦
ب - المواطنة ١٧
جـ - الحرية ١٩
د - النقد والنقاد ٢١
هـ - التراث ٢٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الصفحة

★ **الفصل الثاني:** .....

المضامين: .....

أ - الموقف من المجتمع من خلال قصصه: ٢٧

١- الفروق الطبقية ٢٨

٢- صراع القيم ٣٢

٣- الصراع مع السلطة الأبوية ٣٥

٤- الاغتراب الذاتي والاجتماعي ٣٦

ب - الموقف من المرأة: ٤٧

١- صورة الأم ٤٩

٢- صورة الزوجة ٥٢

٣- صورة الحبيبة ٥٣

٤- صورة المومس ٥٥

جـ - الموقف من المدينة ٥٧

١- صورة المدنية الكبيرة (المعقدة) ٦٠

٢- صورة المدنية - الرمز ٦٥

٣- صورة المدنية الماضي ٦٦

٤- صورة المدنية الرؤيا ٦٨

د - الموقف من التراث: ٧٢

١- الموروث التاريخي ٧٣

٢- الموروث الأدبي ٧٧

٣- التراث الشعبي ٧٨

٤- التراث الشعبي الشفهي ٨٠

هـ - الموقف من السياسة ورموزها ٨٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الصفحة

★ **الفصل الثالث:** .....

- البناء الفني ٩١

أ - الشخصية القصصية .....

الشخصية المحورية ٩٤

الشخصيات الثانوية ٩٩

الشخصية التاريخية ١٠٢

الشخصية الشعبية ١٠٣

ب - اللغة والسرد والحوار ١٠٤

جـ - الزمان ١٢٤

د - المكان ١٣٠

★ **الخاتمـــة** ١٣٦

★ **المصادر والمراجع** ١٣٩

★ **الملحـــق** ١٤٩

★ **الملخص باللغة الإنجليزية** ١٨٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الملحـــق :

★ مجلة التضامن :

★ زاوية :

- المضحك المبكي (١) - اقتصادنا سليم ولن نستورد فتلة .
- المضحك المبكي (٢) - مدرسة عربية لجنرالات بريطانيا .
- المضحك المبكي (٣) - غاب شهدين ثم جاء بكلبين .
- المضحك المبكي (٤) - مسرحية تأكل و تؤكل .
- المضحك المبكي (٥) - عائدون إلى فلسطين سياحاً أو قتلى .
- المضحك المبكي (٦) - السائح يهجر السياحة .
- والله أعلم - جدنا يروي .
- والله أعلم - حكاية غريبة عن كلب شرقي .
- أهل الجنة و أهل النار (١) - نبؤة كافور الإخشيدي .
- أهل الجنة و أهل النار (٢) - الأقنعة .
- المضحك المبكي (٧) - مواطن متشائم يحكي عما تخيله .
- المضحك المبكي (٨) - ليس بوزير ولا بشاعر .
- المضحك المبكي (٩) - جديد للتأويل .

★ مجلة الدوحة :

★ زاوية :

- حكايات ملفقة - يوم غضب جنكيزخان .
- خواطر تسر الخاطر - من حابى خصمه غلب .
- خواطر تسر الخاطر - آخر المرافىء .
- خواطر تسر الخاطر - نهاية أبي حيّان التوحيدي .
- خواطر تسر الخاطر - الليل ليل والنهار ليل .
- خواطر تسر الخاطر - ماجرى للمتنبي في رحلاته .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

★ مجلة المعرفة :

★ زاوية :

- عطشان ياصبايا / عرض وتحليل .
- كلمة رئيس التحرير ، دور النقد في التغيير .
- كلمة رئيس التحرير ، الأطفال والمستقبل .
- كلمة رئيس التحرير ، قراءات .

★ مجلة الناقد :

★ زاوية :

- قال الملك لوزيره (١) - العائلة .
- قال الملك لوزيره (٢) - بلاد بلا أدباء .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الملخص
زكريا تامر والقصة القصيرة

إعداد : امتنان عثمان الصمادي .
إشراف : الدكتور سمير قطامي .

يقدم هذا البحث لمحة موجزة عن واقع القصة العربية السورية منذ ظهور هذا الفن الحديث ، وحتى الثمانينات ، وذلك في محاولة لبيان موقع القاص زكريا تامر من هذه المسيرة ، وبيان دوره ، بما يقدم من مفهوم جديد عن القصة القصيرة ، متجاوزاً بذلك كل المفاهيم السائدة في الستينات .

وهدف هذا البحث إلى إبراز جوانب من حياة القاص ، ورؤيته الفكرية بالاستعانة بمجموع ماكُتب من مقالات وآراء في الصحف والمجلات ، كما تعرضت الدراسة للمضامين الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي تناولها زكريا في مجموعاته الخمسة ، واتضح أنها تسير وفق خط واحد يقول بانسحاق الفرد ، وتضاؤله ، وانهزاميته ، وسلبيته ، أمام السلطة القائمة بكافة أشكالها .

كما تناول البحث البناء الفني الجديد القائم على التجريب ، إذ تعدّ قصصه مجالاً خصباً لألوان من الدراسة ، إذ أفاد من الاتجاهات المختلفة فاتخذ أسلوباً جديداً - مشوباً بلمسة تأثرية أجنبية - في بناء القصة مستخدماً اللغة الإيحائية المليئة بالحدة والتوتر ، وحركة الشخصية المحورية ، المتمثل بالحوار الداخلي (المنولوج) ، في جو من الأحلام والكوابيس التي تعكس صراع الفرد الداخلي (البحث عن معنى الوجود) ، والخارجي المتمثل بنماذج السلطة القمعية .

وخلص البحث إلى أن أزمة الإنسان في قصص زكريا تامر هي أزمة متأصلة أزلية ، لايمكن للفرد الانفلات منها بسبب حالة الاغتراب التي تغلّف حياته على صعيد الأسرة ، والعمل ، والشارع ، والبستان . ولذا نراه ينزع إلى فكرة التدمير ، والتمرد في كثير من الأحيان . وبذلك يعد زكريا من أهم روّاد القصة الذين مهّدوا الطريق ، أمام جيل السبعينات، لخوض العالم الداخلي ، ورصد انفعالاته .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المقدمة

بدأت صلتي بالقصة القصيرة منذ كنت طالبة في المرحلة الإعدادية ، إذ كانت لي محاولات لكتابة هذا الفن ، فقرأت من القصص الشيء الكثير ، وكانت نفسي تلح عليَّ أن أقرأ المزيد، ويسّر الله لي الطريق ... فاستقرت بي الرغبة على اختيار موضوع لدراسة القصة القصيرة دراسة مفصلة في مرحلة الماجستير .

ومن مقولة الكاتب صبري حافظ عن زكريا تامر بأنه « شاعر الرعب والجمال » كانت الانطلاقة بالتحديد ، وكان الموضوع « زكريا تامر والقصة القصيرة » لأحاول من خلاله استقصاء البحث في حياة القاص ، ورؤيته الفكرية التي أضاءت أعماله القصصية .

ولم يتطرق الباحثون للقصة عند زكريا تامر - في حدود ما أعلم - بشمولية واستقصاء دقيقين ، بل اقتصر على منشورات ، وآراء نقدية موزعة بين في الكتب ، والدراسات التي تتناول القصة السورية .

وتوزعت الدراسة على تمهيد، وثلاثة فصول : تناولت في التمهيد واقع القصة السورية بلمحة موجزة ، لتضيء جو الدراسة ، ولتمكن من رصد موقع زكريا من خلال ذلك الواقع .

وخصصت الفصل الأول لإلقاء الضوء على حياة القاص ، ورؤيته الفكرية ، باتباع المنهج التاريخي الاجتماعي ، من خلال مقالاته التي نشرها في عدد غير قليل من الدوريات الثقافية ، والأدبية داخل الوطن العربي ، وخارجه .

أما الفصل الثاني ، فقد تناولت فيه مضامين المجموعات القصصية الخمس ، التي دارت حول موقف أبطاله من المجتمع ، والمرأة ، والمدينة ، والتراث في ضوء الحياة السياسية، آخذة بعين الاعتبار أثر التيارات الأجنبية في رؤية القاص، وأعماله ، ممثلة بفرانز كافكا على وجه التحديد ، وذلك لأنه من أكثر الكتاب الأجانب الذين لمست تأثيرهم في أعمال زكريا تامر .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كما تناولت في الفصل الثالث البناء الفني ، منطلقة من التحليل الجمالي لبنية القصة ، في محاولة لتسليط الضوء على صورة الشخصية القصصية ، وكيف عني زكريا برسمها رسماً دقيقاً ، عاكساً حالتها النفسية ، ووضعها الاجتماعي ، بلغة إيحائية ، شعرية مكثفة ، وفي حركة ضمن الزمان والمكان .

وتعتمد الدراسة على مصادر متعددة منها: مجموعات القاص الخمس (صهيل الجواد الأبيض ، وربيع في الرماد ، والرعد ودمشق الحرائق ، والنمور في اليوم العاشر) . إضافة إلى عدد كبير من مقالاته التي نشرت في الصحف والمجلات .

وقد واجهت صعوبة غريبة من نوعها في أثناء دراستي هذه ، يتمثل في عدم تعاون القاص - القاطن في لندن - معي رداً على رسائلي المتكررة ، والملحّة ، أو على المهاتفة التي قمت بها لمكان عمله ، لذا، راسلت عدداً من أعضاء رابطة الكتاب السوريين غير مرّة ، إضافة إلى مقابلة عدد من النقاد والشعراء ، أمثال د . حسام الخطيب ، وشوقي بغدادي ، من أجل الحصول على معلومات أسدُّ بها رمق رسالتي ، إلا أنني استعضت بقلّة المعلومات الشفوية العكوف على الدوريات المختلفة أتتبع من خلالها مسيرة حياة القاص .

وبعـــد :

فإن الكمال لله وحده ، وهذا مبلغ جهدي ، وحسبي أنني بذلت فيها ما استطعت من جهد . وبه أستعين .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تمهيـــد

لمحة موجزة عن واقع القصة السورية

لقد وفدت القصة القصيرة إلينا بمفهومها الحديث في نهاية القرن التاسع عشر من الغرب ، فلم تصدف مكاناً خالياً في روح الأمة . وذلك لأننا عرفنا النفس القصصي ممثلاً بفن الخبر ، والحكايات والمقامات ، ابتداءً بناصيف اليازجي (١٨٠٠ - ١٨٧١)، وأحمد فارس الشدياق (١٨٠٥ - ١٨٨٧)، ورفاعة الطهطاوي مروراً بسليم البستاني وجرجي زيدان وميخائيل نعيمة . وقد ظهرت البذور الأولى للقصة القصيرة الحديثة في لبنان ، ثم ترعرعت ونضجت في مصر على يد محمد حسين هيكل ، ومحمد ومحمود تيمور وإبراهيم المازني وتوفيق الحكيم ، وطه حسين ، وغيرهم [١] .

تأثرت القصة السورية بنتاج كل من مصر ولبنان ، وظهرت محاولات قصصية مبكرة عند نعمان قساطلي (١٨٨٣) ، ورزق الله حسّون وغيرهما . واستمرت القصة بالظهور الاّ أنها كانت تُعدّ بدايات تمهيدية ، رافقت التأثر بالموروث (شكل المقامة) من جهة ، وحركة الترجمة التي أخذت تنشط من جهة أخرى خلافاً لبساطة الموضوعات المطروقة وسذاجة الشكل الفني لها [٢] .

وقد نمت القصة السورية فنياً في فترة الثلاثينات ، وعلى وجه التحديد عام١٩٣٧ بظهور قصة "نهم" لشكيب الجابري ، فأخذت القصة تعيش حياة النضج الفني محاولة التوفيق بين متطلبات البيئة المحلية ، والتطورات العالمية ، كما تخلصت من أسلوب الوعظ والإرشاد والمباشرة في الطرح .

---

(١) د. سهيل إدريس، محاضرات عن القصة في لبنان ، معهد البحوث الدراسات العربية ، القاهرة ،١٩٥٧، ص ٩٢.
وانظر : د. شكري عياد ، القصة القصيرة في مصر « دراسة في تأصيل فن أدبي » ، معهد البحوث والدراسات العربية ، ١٩٦٧، ص د.

(٢) د. حسام الخطيب ، سبل المؤثرات الأجنبية وأشكالها في القصة السورية الحديثة ، معهد البحوث والدراسات العربية ، ١٩٧٣، ص١١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واستمر الشكل الفني بالتطور بموازاة التطور الاجتماعي وزيادة الانفتاح على الغرب، فتأثر الأدباء العرب بعامة والسوريون بخاصة بالآداب العالمية التي تعبر عن النزعات الإنسانية ممثلة بـ موباسان وبلزاك ، وإلبيركامو، وفرانزكافكا ، وكولن ولسون ، وغيرهم . فاختصروا بذلك مراحل زمنية طويلة كان قد استغرقها الغرب في تطوير فنه القصصي وبخاصة الإنتاج الذي ظهر بعد الحرب العالمية الثانية [١] .

وبدخول عهد الاستقلال عام ١٩٤٦م تفتّحت آفاق الانتعاش الوطنية، وشاع التعليم، ودخلت البلاد عصر الآلة والطباعة ، وتحررت المرأة ، وظهرت طبقة جديدة من الوسط المثقف (البرجوازية الصغيرة) ، كما ظهرت رابطة الكتاب السوريين عام ١٩٥١م التي تعدّ أبرز معلم لقيام النهضة الأدبية ، وما لبثت أن توسعت عام ١٩٥٤م لتشمل أدباء الوطن العربي عامة[٢] ، رافعة شعار « الفن للشعب » . وقد كان معظم أعضاء الرابطة من كتاب القصة القصيرة الواسعة الانتشار آنذاك بسبب طاقتها التعبيرية ، وقدرتها على التحرك بحرية في الحياة الإنسانية عبر الزمان والمكان[٣] .

كما ظهرت في هذه الفترة الاتجاهات والتيارات المختلفة التي انضم إليها الأدباء لتعبّر عن آرائهم وأفكارهم ، وكان من أبرزها الواقعية الفنية التي عنيت بتصوير الحياة بأمانة وموضوعية مع الاهتمام بالتفاصيل ودقائق الأمور ، ممثلة بعبد السلام العجيلي . ثم تطور الفن القصصي ولم يقف عند حدود التصوير الفوتوغرافي للواقع، بل عمد إلى التحليل مركزاً على الجوانب السلبية في العلاقات الاجتماعية فتحدّث الأدباء عن الفلاحين والعمال والطبقة الكادحة وهذا ما أسماه الباحثون بالتيار الواقعي الاشتراكي ممثلا بـ شوقي بغدادي، وحنا مينة وغيرهم ، فقويت بنيته وكثر حاملوه حتى أعلنت رابطة الكتاب العرب - رسمياً -

---

(١) د. حسام الخطيب ، مرجع سابق، ص ٣٩ . وانظر: د. حسام الخطيب، القصة القصيرة في سورية ، وزارة الثقافة، دمشق ، ١٩٨٢، ص ٨٨.

(٢) شاكر مصطفى ، محاضرات عن القصة السورية ، معهد الدراسات العربية ، ١٩٥٨، ص ٨٧.

(٣) عمر الدقاق، تاريخ الأدب في سورية ، ط٢ ، جامعة حلب ، ١٩٧٩، ص ١٠٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تبنيها لهذا الاتجاه [١] .ولم يتفلّت بعض كتاب هذا الاتجاه من معالجة القضايا القومية المصيرية من مثل الوحدة الوطنية، والقضية الفلسطينية حتى سمُّوا بأصحاب الاتجاه الواقعي الاشتراكي القومي .

كما ظهر عدد من الأدباء ممن لم يروا في الاشتراكية مثالاً ينطلقون منه لتدعيم مبادئهم ، وشعروا بافتقارهم إلى عقيدة ذات بعد فكري وفلسفي يواجهون بها التيارات التقليدية ، والماركسية ، لذا تأثروا بدعاة التيار الوجودي أمثال سارتر ، وكامو وغيرهم ، ممن تركوا بصماتهم على الآداب المعاصرة في أوروبا ، وذلك بعدما أضحى الاهتمام بالحياة الفردية ذاتها ، وبالعالم الباطني الخاص بكل فرد كبيرا [٢] . وقد لوحظ في نهاية الخمسينات انتشار مفهوم جديد للقصة شمل التجديد في الشكل والمضمون بسبب الحساسية القوية تجاه معطيات الواقع المضطرب وتناقضاته ، واستطاع الكتاب تفجير اللاشعور الإنساني متحدّين بذلك القيم السائدة ، فعكس نتاجهم الكثير من الظواهر النفسية التي يعاني منها جيلهم في صور مليئة بشعور الضياع والتمزق والشك والحيرة والاشمئزاز من الواقع ، والاغتراب الذاتي والاجتماعي .

وتضخمت النزعة الفردية في العقدين السادس والسابع من هذا القرن عندما وجد الأدباء أنفسهم بين عالمين متضادين ، عالم التمسك بالقيم والموروثات القديمة ، والوعظ الديني ، وعالم القيم الوافدة المسلحة بالتقنية الحديثة فأخذوا يعانون ويلات الاغتراب ، وتشكلت قاعدة لمخاض العصر النفسي التي سميت بحساسية العصر الحاضر . ونستطيع القول إنها تيار عام مشترك بين جميع الأدباء شجعت النزعة الفردية لديهم . ويقول نعيم اليافي بهذا الصدد : « ولعل أهم ظاهرة من ظواهر هذا القلق هي الفردية أو الانتصاف إلى الكيان الفردي في القضايا . وقد انتهى منها الكتاب نهايتين مختلفتين : قسم منهم انتهى إلى الالتزام بالدلالة القومية مرّة و بالوجودية أخرى ، وانتهى القسم الآخر إلى الضياع والعبث » [٣] .

---

(١) نعيم اليافي، التطور الفني لشكل القصة القصيرة في الأدب الشامي (سورية، لبنان، الأردن ، فلسطين)، اتحاد الكتاب، ١٩٨٢، ص٢٩٧.

(٢) سحر السيوفي ، حركة التأليف الأدبي واللغوي في القطر السوري منذ مرحلة الاستقلال حتى منتصف السبعينات . ر. ج جامعة دمشق ، ١٩٨١، ص ١٨٢ .

(٣) التطور الفني لشكل القصة القصيرة ، ص ٣٠٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعلى الرغم من ذلك فإن قصة الستينات تعتبر مرحلة النضج الفني والإتقان ، فوجد جيل السبعينات في ذلك طريقاً ممهداً أمامه[١] ، كما اعتبر جيل الستينات صاحب الفضل في ترسيخ دعائم فن القصة . ويرى الدكتور حسام الخطيب بأن كتّاب أدب الضياع ممثلا في زكريا تامر ، ووليد إخلاصي وجورج سالم وغيرهم ، جيل فقد العلاقة مع الحياة ، وهم ثوار على كل شيء ، ولكن في سبيل لاشيء تقريباً ، فلا يؤمنون بالأسرة ولا بالمجتمع ولا بالمؤسسة . ونتيجة لذلك يصبح الحل الوحيد أمام البطل ، الضياع ، والشرب ، والجنس ، والأحلام . كما يعرف هذا بأدب اللامعقول [٢] ، وسنورد تفصيلاً عن ذلك في الفصل الأول.

واستمر – حتى يومنا هذا – تناول الذات الإنسانية الحسيّة والروحية بجرأة وصراحة ، وقويت النزعة التجريبية في تكنيك القصة ولغتها والمزاوجة بين لغة القص التقريرية ولغة الشعر المجازية ، حتى أصبح ذلك أمراً مألوفاً وتياراً عاماً لا يخبو عند أدباء الثمانينات[٣] .

---

(١) محمود الأطرش ، اتجاهات القصة في سورية بعد الحرب العالمية الثانية ، ر.ج ، جامعة القديس يوسف ، بيروت ، ١٩٨٠، ص٢٣٤.

(٢) سبل المؤثرات الأجنبية ، ص ٩٤ . وانظر – للمزيد – يوسف اليوسف ، القصة الجديدة في سورية ، مجلة الموقف الأدبي ، ع٧٣، ٧٤، ٧٥، ١٩٧٧ ، ص ٩.

(٣) اعتدال عثمان ، تحولات القص في أدب الثمانينات ، مجلة الأقلام ، ع٦، ١٩٨٩، ص ٨٩ – ٩١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الأول

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الأول
حياته ورؤيته الفكرية

ولد زكريا تامر عام ١٩٣١م في دمشق ، لأسرة بسيطة ، وتلقى تعليمه الابتدائي فيها ، ولم تطل فترة انتظامه في سلك التعليم بسبب قسوة محاولته للتخلص من الواقع الصعب ، والإحساس بالفاقة .

عمل زكريا في مهن يدوية بسيطة في صغره، واستمر يعمل حداداً في معمل للأقفال في حي البحصة الدمشقي مدة تزيد على اثنتي عشرة سنة . ثم تحول إلى الحقل الصحفي عام ١٩٦٠ بعد أن نشر أولى قصصه عام ١٩٥٦ [(١)]. أما عن توجهاته الفكرية فيقول د. عبد الرزاق عيد بأن زكريا قد « قاده وضعه الطبقي إلى الانتماء للحزب الشيوعي السوري إذ أتيحت له فرصة الاحتكاك بالمثقفين والأدباء الذين جرفتهم موجة النضال الوطني الحاد ، والتي كان نواتها الرئيسية الحزب الشيوعي، الذي كان له دور أساسي في قيام رابطة الكتاب السوريين ... ، وفي عام ١٩٥٦م طرد زكريا من الحزب الشيوعي السوري... » [(٢)].

ونحن بدورنا لا ننكر تحرك الحزب الشيوعي السوري في هذه الفترة، لكننا لانستطيع الجزم بأن القاص زكريا تامر - وقد كان شاباً في هذه الآونة - قد انتسب إلى هذا الحزب أم لا ، وذلك لندرة توافر المعلومات الشخصية من الكاتب نفسه أو ممن يحيطون به ، كما أن د. عيد أغفل أسباب طرد زكريا من الحزب .

ومن الجدير بالذكر أن القومية العربية كانت متأججة في منتصف الخمسينات وبخاصة في مصر بزعامة جمال عبد الناصر الذي قاد الأمة لمحاربة الغرب المستعمر . والتاريخ لايغفل الكثير من الحوادث التي قلبت موازين القوى في الشرق الأوسط بين الكتلة الغربية والشرقية، ففي خضم هذه الظروف التي تدفع الشباب إلى التشكيك في المبادىء السائدة

---

(١) أديب عزت ، إسماعيل عامود ، أعضاء اتحاد الكتاب العرب في القطر السوري والوطن العربي ، ط٢، دمشق ، ١٩٨٤، ص ١٢٦.

(٢) عبد الرزاق عيد ، العالم القصصي لزكريا تامر (وحدة البنية الذهنية والفنية في تمزقها المطلق) ، جـ١ ، دار الفارابي ، ١٩٨٩، ص ٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حاولوا نبذ كل الاتجاهات التي تنادي - وهمياً - بتحرر الإنسان والوطن. كما صدم الأدباء بواقع مبادىء الاشتراكية النظرية ، وواقع الوعي القومي الناصري اللذين لم يثبتا فاعليتهما أمام الأزمات القومية وبخاصة بعد حرب حزيران ، مما دفعهم إلى التخلي عن الالتزام بأي حزب .

وزكريا تامر - بخاصة - من الأدباء الذين لايمكن قولبتهم في أي اتجاه أو تحت راية أي حزب ، ولا يمكن لأمثاله - بحكم طبيعتهم المتحررة من كل القيود - أن يلتزموا بتعاليم أي حزب ، وإنما يرون أن قضيتهم هي في صراع الإنسان مع الحياة ، وفي أزمة الوجود الإنساني ، وذلك بدليل مايراه زكريا في إحدى مقالاته التي صرح من خلالها أنه انضم إلى جمعية الأدباء العرب ١٩٥٨م وقد كانت هذه الجمعية محاولة لجمع الأدباء المؤمنين بالعروبة وتوحيد صفوفهم ، كما كانت رداً عملياً على نشاط رابطة الكتاب السوريين ، ويقول : « وكنا آنذاك مجموعة من الأدباء الشباب الضالين الكارهين لكل قيد سواء أكان أدبياً أم اجتماعياً ، والحالمين بتغيير العالم والأدب تغييراً يجعل من كل إنسان سيداً ، كما يجعل الأدب يبدع حراً ، ويهدم سجوناً شيدت قديماً باسم الأدب الرفيع الراقي »[١] ، وقد ضمت هذه الجمعية أدباء من مختلف الأعمار والطبقات ، لكنها لم تدم طويلاً بسبب الظروف السياسية والانقلابات العسكرية المتكررة . ومن هذا النص يظهر لنا موقف زكريا وزملائه من القيود ، والحد من الحريات حتى وإن كانت تلك القيود حزبية .

وعلى الرغم من توقف تحصيل تامر العلمي عند المرحلة الابتدائية، الا أنه لم يستسلم للواقع الصعب ، فكان قارئاً نهماً [٢] عكف على تثقيف نفسه تثقيفاً جيداً ، فلم يستثن التراث الأدبي الإنساني، كما لم يستثن تمثل الأعمال الأدبية العالمية المعاصرة فقرأ لسارتر، وكافك، وكامو وغيرهم، ممن أثروا مسيرة الأدب العالمي، كما قرأ في المذهب الوجودي والأدب التعبيري ، والعبثي والانطباعي والسريالي ، وقد أثرت هذه القراءات في نهجه وأسلوبه ومستوى أعماله مقارنة مع أعمال غيره من الأدباء في فترة ازدهاره نفسها ، مما دفع كثيراً من النقاد إلى عدم الاعتراف بأدب زكريا القصصي في البدايات .

وكما أسلفنا سابقاً بأن زكريا ذو طبيعة خاصة فلا نعلم عن أسرته شيئاً لامن قريب ولا من بعيد ، وذلك لأن القاص منغلق على نفسه تماماً ، حتى إن أقرب أصدقائه لايملكون

---

(١) زكريا تامر، ليس بوزير ولا بشاعر ، مجلة التضامن ، ع ٢٣٢، ١٩٨٧، ص ٦٦.

(٢) من مقابلة للباحثة مع د.حسام الخطيب ، عمان ١٩٩٢/٧/٢١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المعرفة الدنيا عن حياته الشخصية ، ويبدو أن ذلك يعود إلى إحساس القاص بالاستلاب والشعور بالاغتراب والانفصال عن العالم المحيط الاّ أن ومضة يتيمة ظهرت في إحدى مقالاته نستنتج من خلالها أنه متزوج وله أطفال [١] .

تقلّب زكريا في أعمال مختلفة ، فمن عامل في معمل الحدادة إلى موظف في وزارة الثقافة (مديرية التأليف والترجمة ، دمشق) وكان ذلك بين ١٩٦٠ - ١٩٦٣ [٢] ، وشغل منصب رئيس تحرير عدد من المجلات السورية ، أمثال المعرفة [٣] ، كما عُيّن مديراً للنشر ثم سكرتيراً لتحرير مجلة الاتحاد (الموقف الأدبي) [٤] ثم عُيّن نائبا لرئيس اتحاد الكتّاب في الفترة ١٩٧٣ - ١٩٧٥ ، وترأس كذلك تحرير مجلة أسامة للأطفال ، وتجدر الإشارة إلى أن زكريا كان قد توجه للكتابة للأطفال منذ عام ١٩٦٨ فتميز إسلوبه ، وأثار الانتباه للغته ومفاهيمه الخاصة بالطفولة وقد قال عنه أحمد محمد عطية « ... بالإضافة إلى عدد كبير من القصص القصيرة جداً للأطفال ، تجاوز صداها الوطن العربي إلى أوروبا بل وإسرائيل أيضا ، فقد ترجمت إلى اللغات العالمية وشكلت قصصه بداية الطريق الصحيح لأدب أطفال عربي جديد يبث القيم الإنسانية والقومية والنضالية ... ومن خلال قالب فني عصري، ولغة عربية بديعة، ليسهم في تكوين الإنسان العربي الجديد » [٥] . وترأس كذلك مجلة رافع منذ عام ٦٩ - ١٩٧٠ [٦] ، هذا وقد ابتعد عن الإسلوب التقليدي السائد ، القائم على الموعظة والإرشاد

---

(١) زكريا تامر، كما تكونوا تكون صحافتكم ، مجلة التضامن ، ع١٣، ١٩٨٣، ص ٨٢ « قالت لي إحدى زوجاتي الأربع (ثلاث وهميات) ... » . ولقد أجرت الباحثة اتصالات كثيرة مع الأدباء المقرّبين لزكريا أمثال شوقي بغدادي ، ومحمد الماغوط و د. حسام الخطيب ، الا أنها لم تتوصل إلى شيء ذي أهمية . فضلا عن عدد من المراسلات مع القاص نفسه الاّ أنه لم يستجب لأي منها .

(٢) أعضاء اتحاد الكتاب ، ص ١٢٧ .

(٣) وكان آخر عدد الافتتاحية فيه ع ٢١٩، بعد أن نشر فيه مقتبسات من طبائع الاستبداد والتي على ضوئها أقيل من رئاسة تحرير المجلة ، علما بأنه شغل هذا المنصب من آب ١٩٧٨ - ١٩٨٠.

(٤) تسلم رئاسة تحرير المجلة منذ ع ٣ / ١٩٧٣ - ع١٢ / ١٩٧٥ .

(٥) أحمد محمد عطية، فن الرجل الصغير ، في القصة العربية القصيرة ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ١٩٧٧، ص ١٠١ .

(٦) هالة معترق ، ثقافة الطفل - تغريب في دائرة الطاعة - مجلة أوراق ، ع٨/١٩٨٤ ، ص ٣١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(إفعل ولا تفعل) والتلقين الذي لاينمي عند الطفل الاّ مزيداً من الإذعان والرضوخ يقول : « ولا بد من التنويه بأن جيل الأطفال لايمكن أن ينمو النمو السليم في مجتمع يعاني الآباء والأمهات فيه الظلم والقهر والهوان ، والعوز ؛ لذا فإن الاهتمام الحقيقي بالأطفال يتطلب في الوقت نفسه الاهتمام بالكبار أيضاً، فتحرير الكبار مما يشوهّ إنسانيتهم ، ويحول دون تطورهم هو الخطوة الأولى التي لابد منها ... »[١] .

لقد كتب زكريا مايزيد على مائة وخمسين قصة للأطفال ، ويرى أن تقديم كتاب رديء للأطفال لهو جريمة تتضح آثارها السلبية في شخصية الطفل حينما يكبر ، كما أنه على المؤسسات الثقافية أن تساهم في تنمية ثقافة الطفل ووعيه .أما مؤلفاته التي قدمها للأطفال فهي المجموعات " لماذا سكت النهر" ١٩٧٣ و " البيت" ١٩٧٥ ، و" قالت الوردة للسنونو" ١٩٧٧ ، و "بلاد الأرانب" ١٩٧٩ ، وعدد من القصص التي نشرها في دار الفتى العربي (يوم بلا مدرسة ، الطفل ، المطر ، بيت للورقة البيضاء وغيرها ...)[٢] .

لن نخوض في عالم الأطفال عند زكريا . ولن نتوسع في تناوله هنا ، وذلك نظراً لما له من خصوصية ومميزات أسلوبية لايمكن إيجازها أو المرور عنها مروراً سريعاً إضافة إلى أنها تستحق دراسة مستقلة مفصّلة .

انتقل زكريا للعيش في لندن عام ١٩٨١ - ولا يزال حتى يومنا هذا - عمل في مجلة الدستور الاسبوعية[٣] ثم نشر مقالاته السياسية والأدبية في معظم المجلات العربية وكان من أبرزها مجلة التضامن[٤] ، ومجلة الناقد اللندنية التي نشر خلالها مجموعة من الأقاصيص والحكايات تحت زاوية « قال الملك لوزيره » يحاكي التاريخ من خلالها فينقل القارىء - بالحلة التراثية - إلى الواقع بهمومه وسلبياته وكان ذلك منذ آب/٨٨ -

---

(١) زكريا ، الأطفال والمستقبل ، مجلة المعرفة ، ع٢١٤ - ٢١٥/ ٧٩ - ١٩٨٠، ص٥.

(٢) أعضاء الاتحاد ، ص ١٢٨ .

(٣) العالم القصصي ، ص ٦ .

(٤) نشر فيها منذ أن تأسست ١٩٨٣/٤/١٦ تحت زاوية المضحك المبكي ولغاية ١٩٨٨/٢/٢١، راوح خلالها بين زاوية المضحك المبكي ، وزاوية والله أعلم ، وبين حكايات الراوي العربي ، وفي الصميم .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حزيران/١٩٨٩. كما نشر في مجلة الدوحة عدداً لابأس به من المقالات في زاوية « خواطر تسرّ الخاطر » كرر خلالها الأسلوب الحكائي السالف [١] .

تراوحت مقالات تامر الأدبية بين المقالة القصصية والشخصية ، وجاءت عفوية سريعة خالية من التكلف ، وعبّرت تعبيراً صادقاً عن شخصيته وتجاربه الخاصة والرواسب التي تتركها إنعكاسات الحياة نفسها ، فتمتاز بروعة المفاجأة ، وتوقد الذكاء وتألق الفكاهة والسخرية اللاذعة في انتقاد العادات الاجتماعية البالية والتقاليد السقيمة ، والسياسات العقيمة التي تمارس مايشوه إنسانية الانسان، فسخر من الحكومات، وسخّف عقول المسؤولين وسخر من تقاعس الناس الانهزامي ...

والجدير بالذكر أن تامر مازال يكتب في صحيفة القدس العربي اللندنية ، فلا يتوانى عن شتم السلطات العربية ، وتقريع الممارسات الثقافية والأدبية والنقدية التي لاتسير وفق مناهج واضحة ، ورؤى صادقة ، كما أنه دائم التساؤل عن ماهية الوجود الإنساني ، كل ذلك مصبوغ بطابع قصصي جميل ، ولا نستغرب ذلك لأنه يقول : « أنا باختصار أعشق القصة القصيرة عشقاً لن يزول بسهولة ، فجذوره متغلغلة في شرايبني » [٢] .

ويقول عن سبب امتهانه الكتابة « في المرحلة الأولى التي ألفيت نفسي مندفعاً إلى الكتابة ، كنت أحس أني أسقط في هوة لاقاع لها ، وكانت الكلمات تنقذني آنذاك ... في تلك المرحلة كانت الكلمة الواحدة تبدو لي عالماً كاملاً غنياً له أرضه وسماؤه ... وبشره وسجونه ... وصيحاته الغاضبة التي تقول لا ... الكتابة بالنسبة لي هي الآن أهم شيء في الحياة ، والمبرر الوحيد لوجودي ... وتزداد أهميتها عندي يوماً بعد يوم ... » [٣]

وعن اختياري لفن القصة القصيرة تحديداً يقول : « أما اختياري للقصة القصيرة فيرجع لكونها أداة فنية غنية التعبير ، تتحدى كاتبها ، وتتيح له المجال لتقديم الدليل على أصالته ، وموهبته ، ومدى إخلاصه لبيئته وإنسانها » [٤] .

---

(١) كان ذلك منذ ع ١٩٧٩/٤٠ - ع ١٢٧/ ١٩٨٦.

(٢) استفتاء حول واقع القصة وقضاياها ، مجلة الموقف الأدبي ، ع ١٠/١٩٧٤، ص ١٠٧.

(٣) نفسه ، ص ١٠٧ .

(٤) نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد بدأت مسيرته القصصية من مجلة الآداب ، فنشر عدداً من القصص ، ووجهت له انتقادات كثيرة على أسلوبه الذي لم يكن مقبولاً في أواخر الخمسينات وبداية الستينات ، وذلك لأنه كسر حواجز فن القصة التقليدية السائدة ، وتجاوزها إلى التجريب ، كانوا يرون في قصصه « شيء» لايمكن وصفه بالقصص .

ولم يتوقف زكريا عن نشر قصصه ، كما لم يكترث للآراء المناهضة لأدبه الجديد [١] ونشر في عدد من المجلات الأدبية والثقافية أمثال : المعرفة ، والموقف الأدبي ، وشعر ، والهلال [٢] ، وحوار ، والنقاد ، والثقافة السورية ، وأقلام ، والأقلام البغدادية ، والدوحة ، والتضامن ، وغيرها .

وبسبب مايمتاز به أدب زكريا من سمات تدعو لنبذ الظلم الواقع على الإنسان أينما كان ، فقد ترجمت أعماله إلى الفرنسية والإيطالية والإسبانية والإلمانية والروسية [٣] وعن التي ترجمت إلى الروسية فقد جاءت ضمن مختارات قصصية لأدباء من سورية بعنوان : الصمت والموت، إصدار دار المؤلفات الأدبية، موسكو، ١٩٧٧ إذ طبعت بخمسين ألف نسخة

---

(١) تجدر الإشارة إلى بعض أقوال النقاد والباحثين الذين وجّهوا انتقاداتهم لأعمال زكريا في حين نذكرها ولا نعوّل عليها لأنها - عموما - صدرت عن أشخاص غير متخصصين في النقد أمثال الشاعرة نازك الملائكة التي قالت عن قصة " قرنفلة للإسفلت المتعب " بأنها شيء وليست قصة وذلك لأنها لم تلتزم بالهيكل القصصي المعروف . انظر : نازك الملائكة ، قرأت في العدد الماضي من الآداب ، مجلة الآداب ، ع١٢ السنة السابعة ، ١٩٥٩، ص٧٢. وينتقد سمير فريد قصة " الطفل نائم " قائلا : « فيعذرني كاتبها إذا قلت أنها لاتنتمي أساساً إلى الفن القصصي ، وأنها تمثل صورة لأبحاث فرويد في الحياة الجنسية » . انظر : سمير فريد ، قرأت في العدد الماضي ، مجلة الآداب ، ع٥ السنة الرابعة عشرة ، ١٩٦٦، ص ٦٩. وقد وجه صدقي اسماعيل انتقاده لقصة "النهر ميت" فوصفها بأنها أشبه بقائمة من المواضيع والخواطر التي لارابط بينها ، ويدعوه إلى التريث في الكتابة وعدم نشر غسيله أمام الناس . انظر : صدقي إسماعيل ، قرأت في العدد الماضي ، مجلة الآداب ، ع٩ السنة السابعة ، ١٩٥٩ ، ص٧٢. بالإضافة إلى أن فاضل السباعي قد وقف في شبه حيرة من قصة " وجه القمر " واعتذر عن التعليق عليها . انظر : فاضل السباعي ، قرأت في العدد الماضي ، مجلة الآداب ، ع٩ السنة العاشرة ، ١٩٦٢، ص ٦٣.

(٢) لم ينشر بها سوى قصة واحدة كانت في ع٨ ، ١٩٦٩، ص ١١٥.

(٣) أعضاء الاتحاد ، ص ١٢٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فترجمت قصة " الشمس للصغار " على اعتبار أنها دعوة للمساواة الاجتماعية ، كما ترجمت قصة " العرس الشرقي " التي تنتقد العادات الاجتماعية والقيم البالية [١] .

وعن تجربته في كتابة القصة يقول زكريا : « عندما كتبت لم اعتمد على آراء النقاد ، ولو عملت بآرائهم في بدايتي لهجرت الكتابة ، أو كنت نسخة مشوهة لأدباء آخرين ، لكني قبل أن أكتب القصة يخيل إليّ أني عشت جيداً واطلعت على معظم القصص العربية وعلى ما أتيح لي من القصص العالمي ، ثم ابتدأت أكتب محاولاً إيجاد صوت مالم أعثر عليه في قراءاتي » [٢] . وبذلك ينكشف سرّ تميّز أدب زكريا وطليعيته .

عرفنا سابقاً أن زكريا لم يتلق تعليما منظماً ، بل تعلّم من الحياة والكتب أكثر مما يمكن أن يتعلمه من المدارس . فقد صهرته نار الحدادة في بوتقة الحياة العمالية ، فكوّن نفسه بنفسه ، وتطلّع إلى التكامل الذاتي بعدما ذاق مرارة العوز ، فشحذته الحدادة وشحذت إرادته وزادت من رغبته في التوغل والثبات فقرأ وقرأ كل مايمكن أن يزوده بشعور الشبع المعرفي . الاّ أنه مع ذلك لم يستطع أن يبلور نفسه في قالب واضح محدد . ومما ساهم في عدم بلورة موقفه هو عدم معرفة المراد من الإنسان العربي في فترة مليئة بالاضطرابات السياسية ، والشعور بمرارة الهزيمة التي خلفها فشل الصراع العربي الإسرائيلي ، كل ذلك أدى إلى تولّد الشعور بضرورة الانطواء والتجريد والانبعاث لصالح الفرد عند الأدباء بعامة، وبسبب هذا التأزم ، تفاقم الظلم الاجتماعي الذي اتخذ شكل القمع المباشر والاعتداء على الحريات ، فعمد الأدباء إلى إيجاد وسائل أكثر فنية وقوة تعبيرية ترسم الوضع العام بشكل جيد [٣] .

٤٤٠٣٣٢

لذا فقد فشل جيل الستينات في خلق الانسجام بين القيم والأفكار التي يؤمن بها ، ويطمح إلى تحقيقها ، وازداد الشعور بالضياع والقلق والتمرد والغربة ، وغدا هذا الجيل يتساءل لم العيش بلا هدف سام تحت رحمة سلطة خيبت الآمال؟ بذلك ظهر مايسمى بأدب الضياع .

---

(١) سليمان زيدية ، مختارات قصصية سورية ، نقلت للروسية ، مجلة الموقف الأدبي ، ع٩٢ ، ١٩٧٨ ، ص ١٤٤ - ١٤٥.

(٢) محيي الدين صبحي ، مقابلة مع زكريا تامر، مجلة المعرفة ع ١٢٦/١٩٧٢، ص١١٥.

(٣) رياض عصمت، الصوت والصدى (دراسة في القصة السورية الحديثة) ، دار الطليعة، بيروت ،١٩٧٩، ص٢٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا نجد ضيراً من القول بأن هذا النمط كان قد ظهر في الغرب بعد الحرب العالمية الثانية ، بسبب سيطرة الآلة على الإنسان وتغلب المشاعر الصناعية على المشاعر الإنسانية ، والوجود الانساني مما أدى إلى شيوع روح العبث والضياع أمام دمار العالم وصراع البقاء . وعلى الصعيد العربي.فقد أثّرت نكبة فلسطين والشعور بالعجز أمام السلطة والتغيرات السياسية المتسارعة وانفتاح المجتمع العربي على الحياة الغربية منذ رحيل رفاعة الطهطاوي وأحمد فارس الشدياق إلى الغرب ، وظهور المترجمات ذات النزعة الذاتية . كل ذلك ترك أثراً بالغاً في أنفس الشباب العربي . فتأثر الأدباء العرب بالأعمال الأدبية العالمية . تلك التي قادتهم بدورها للتأثر بالفلسفة الوجودية والشعور بالضياع، وقد ظهر ذلك جلياً عند أديبنا زكريا الذي أفاد من مختلف المؤثرات الفكرية والفنية ، وسخرها في سبيل معالجة القضايا العربية المحلية، فأضحت هذه المؤثرات وسائل فعالة بيده وعلامة على انتمائه لعالمه، وقدرته على استيعاب عناصر الثقافة الحديثة . على أننا لانجزم بالتزامه في أي اتجاه أو مذهب الاّ أن رؤيته الفكرية كانت قد تكونت من مجمل ماقرأ وهضم واستوعب ، لذا حاول أن يكتب مالم يكتبه غيره متلمسا المراوحة بين التيارات المختلفة، ابتداءً من الاهتمام باللاشعور وبالإنسان الداخلي الذي فصّل القول فيه سيجموند فرويد من قبل في أبحاثه ودراساته للتحليل النفسي من حيث الكشف عن رواسب الطفولة والعقد النفسية والأحلام[١] ومروراً بالسريالية التي ظهرت تجسيدا لمنهج فرويد والتي تبنت فكرة التلاحم العضوي بين الحلم والواقع وكل ماهو فوق الواقع ، وتدمير الذات والهروب ، كما أنها حلقة اتصال بين عالم الشعور واللاشعور وبين حلم النوم وحلم اليقظة ، وتعمل على تشابك الرؤى ودمج المتناقضات حتى توقظ الانسان على رؤية جديدة للأشياء[٢].

كل ذلك جاء في خضم البحث عن ماهية الوجود ومحاولة الكشف عن معنى الوجود وبخاصة بعد أن أثبتت الحروب وأنماط القمع المختلفة أن الانسان لاشيء ، وأنه كالسلعة التي

---

(١) للمزيد انظر : سيجموند فرويد ، حياتي والتحليل النفسي ، . تر. مصطفى زيور ، ط٣، دار المعارف بمصر، ص ٦٦ - ٦٨ .

(٢) للمزيد انظر : والاس فاولي ، عصر السريالية ، تر. خالدة سعيد ، منشورات نزار قباني ، بيروت، ١٩٦٧، ص٢٤ - ٢٧. وانظر أيضا : إدوارد الخراط ، السريالية في الأدب ، مجلة البيان ع ١٠٦ ، ١٩٧٥ ، ص٤٤-٤٧، وانظر: فيليب فان تيغيم، المذاهب الأدبية الكبرى في فرنسا، تر. فريد انطونيوس ، ط٣،منشورات عويدات ، بيروت، ١٩٨٣، ص ١١٥ - ٣١٩ . وانظر : ر. م. ألبيريس ، الاتجاهات الأدبية في القرن العشرين، تر. جورج طرابيشي ، ط١، منشورات عويدات ، بيروت ، ١٩٦٥، ص ١٦١ - ١٦٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يمكن الاستغناء عنها في أي وقت ، فولدت بذلك روح الهزيمة والغربة والتمزق فازداد الإحساس بالعبث والضياع ، فما معنى سلوك الانسان وتصرفه حيال أمر ما إذا فقد الإحساس بالثقة والانسجام والتوافق ؟ وتجدر الإشارة هنا إلى أن أدباء هذا العصر ممن هم على شاكلة فرانز كافكا ، وصموئيل بيكيت ، أمثال زكريا تامر ، وإدوار الخراط ، و محمد الماغوط لم يطرحوا حلاً في أدبهم ، بل تناولوا الداء كما هو ، وعرضوه على سبيل الإشارة للقارىء كنوع من الخلاص آخذين بعين الاعتبار أن الرفض والتغيير أمران لا يمكن تلقينهما [١] . حتى انتهى الأدباء إلى الوجودية فاعتبر القلق، والاغتراب ، وعرضية الوجود الانساني ، وقيود الوجود ، و وشوك الموت ، والعزلة من أهم العناصر التي ترتكز عليها الفلسفة الوجودية . وكل ماورد ذكره كان قد ظهر في خضم العالم العصري المتجدد بسرعة هائلة حتى أحسّ الفرد بالضياع وهدر كرامته ، إلى أن سمي هذا الجو العام المشترك بين حضور كافة الاتجاهات والمذاهب في آن واحد بالاتجاه التعبيري ، الذي يتكىء على تيار الوعي في التغلغل إلى أعماق الإنسان الدفينة [٢] ، كما أن التيار العام في الأدب الحداثي يتضمن الخروج على الواقع ، والتخلص من سيرة العالم الواقعي ، وتجاوز حدوده ، ومحاولة خلق عالم ذاتي خيالي خاضع لقوانين خاصة لايعرف من خلالها وجه الإنسان أو اسمه أو مكانه ؛ لأنه بات يعالج قضية إنسانية بحتة .

ومن الجدير بالذكر أننا لانستطيع أن نحسب زكريا على أي مذهب من المذاهب كالوجودية مثلاً وبخاصة إذا اختار من الوجودية - كما اختار من غيرها- دون الالتزام بحرفية مبادئها؛ لأنه لايستطيع أن يراهن على هذا العالم المشوب بالعبث والقمع . حتى إنه

---

(١) د. نبيل راغب ، المذاهب الأدبية من الكلاسيكية إلى العبثية ، مكتبة مصر ، (د.ت)، ص ١٩٤. وانظر أيضاً : د. حسام الخطيب ، محاضرات في (تطور الأدب الاوروبي) ونشأة مذاهبه واتجاهاته النقدية ، جامعة دمشق، ١٩٧٥، ص٣١٢ - ٣١٥، ٣٢٦.

(٢) عبد الغفار مكاوي ، التعبيرية في الشعر والقصة والمسرح ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧١، ص ٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لايرى في الهروب والسلبية والرغبة الجامحة - أحيانا - بتدمير العالم سوداوية ويقول في ذلك : «وإذا كان أبطال القصص خاضعين لظل أسود ، فليس هذا مبعثه سوداوية مريضة انما هو تعبير صادق عن واقع غير إنساني يعيشه بشر معذبون يحاولون الظفر بالسعادة [١].

ولزكريا أفكار وآراء متميّزة بثها في مقالاته كما قد بثها في قصصه من قبل [٢] فأعاد استنطاق الشخصيات التراثية ، وكررها في أعماله من مثل شخصية جنكيزخان ، وعباس بن فرناس مقيماً حوارات معها ومع غيرها من الشخصيات .ولم تكن **السياسة** بالأمر الصعب الذي لا يخترق ، فقد جذبته السياسة وأضحى ناقداً ومحللاً سياسياً يكتب وفق فهم جديد للسياسة ، وعني بأزمة الإنسان وقضاياه المصيرية أمام القوى السياسية السلطوية ، لذا نراه أحياناً ينقسم على هذا الإنسان (على ضعفه وعجزه) وأحياناً أخرى ينصفه ، مؤكداً أن الإنسان واحد لايتغير ، وان تغيّر اسمه أو مكانه ، وأن مشكلته التي تعذبه هي قسوة التقاليد المترسبة في المجتمعات ورؤوس الآباء . والإنسان الذي يراه زكريا دائم البحث عن شيء ليس له ظل حقيقي على أرضه ، كما يعتبر الإنسان أوّل اهتمامات زكريا وكل شيء ماعداه يأتي لاحقاً ، ولا يرى حلاً للوضع الراهن بتسلطه وقسوته . كما أنه لايقترح حلا لذلك بل يكتفي بعرض الحال ويترك أمر التغيير للزمن . وقد انطلق في التعبير عن آرائه الفكرية والفلسفية والسياسية والاقتصادية بعدما عكف على تثقيف نفسه ، وتعهد بأن يسلخ نفسه من الطبقة الدنيا بمجهوده وعصاميته ، فانفصل عن الطبقة العمالية التي نشأ فيها ، وآلت حاله إلى مستوى الطبقة البرجوازية الصغيرة (التي نشأت في أواخر الخمسينات على أنقاض الإقطاع)، الاّ أنه وجد نفسه غريباً عنها ، وظل عيناً عليها يهتك أسرارها ويكشف ضعفها .

يرى زكريا تامر أن الناس باتوا يستمرئون الظلم « فالظلم أمر عادي ، والاحتلال عادي ، والهوان عادي ، والجوع عادي ، والقتل اليومي عادي ، ودخان البيوت المحترقة عادي ... » [٣] . ولا ينسى أن لسياسة التجويع دوراً هاماً في خلق رعية مطيعة مشيراً بأصابع الاتهام إلى طبيعة السياسة التي ينتهجها حكام العالم وبخاصة العالم العربي ،

---

(١) زكريا تامر ، عطشان ياصبايا - عرض وتحليل ، مجلة المعرفة، ع٦، ١٩٦٢، ص٢٠٣.

(٢) توجه زكريا لكتابة المقال بشكل رسمي ودائم بعد استقراره في لندن(١٩٨١) في حين كانت مجموعاته القصصية الخمسة مطبوعة قبل ذلك .

(٣) زكريا تامر، إذا نحنا قتلنا (الانقلاب المسموح به) مجلة التضامن ع٤٢، ١٩٨٤، ص ٣٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فيقول : « ان الانقلابات العسكرية ماهي الا إطاحة بحاكم شبع وإحلال محله حاكماً آخر لن يشبع ... »[١] . ويعمق رؤيته السياسية لأنماط القمع والتسلط الذي تمارسه السلطة ضد الشعب ، فلا يترك فرصة تخلو من توجيه اللوم والقذع للسلطة ، والسخرية من رجالها ، وهو يعلم تماماً أن العالم العربي الآن هو عالم يملؤه الضباب ، وتسوده السوداوية التي ظهرت كنتيجة حتمية لتلك النظارات السوداء التي يضعها الحكام على عيونهم حتى لايرو الشمس (لاحظ الاسلوب الرمزي) فإن العالم كله قد رضخ للملوك الا الشمس ، بقيت تشرق وتغرب ولا تستسلم لأوامر الملك ، لذا يجب أن يرتدي العالم نظارات سوداء حتى يقنع الملك بأن الشمس قد أصاخت لأوامره ... ، فزعماء الأمة يتخبطون ، « فهم يمارسون الاستبداد أحياناً عن علم ودراية ووعي بنتائجه ، وذلك تحقيقاً لجبروت يقبع داخل أنفسهم المريضة وأحياناً أخرى يصورهم زكريا أنهم أغبياء ينقادون لحاشية ملوثة خبيثة تسعى لتحقيق مصالحها الشخصية فقط على حساب الشعوب . ويرى كذلك أن الحكومات لم تنزل من السماء وأن الناس هم الذين أوجدوها لتخدمهم لا ليخدموها »[٢] .

والقارىء لأعمال زكريا يستطيع أن يتلمس الدرب نحو الكثير من مبادىء الكواكبي[٣] المنددة بالاستبداد والداعية لرفع الظلم والقمع والتسلط ، وزكريا بدوره يندد بالاستبداد باسلوب ساخر لاذع ناقد لحال الأمة المستسلمة لعدد من الأفراد .

مفهوم المواطنة :

أما مفهوم المواطنة عند زكريا فقد جاء بعدة صور ، إذ لم ينسلخ يوماً عن قضايا مجتمعه وهموم المواطن العربي، بل لايملّ تعداد مظاهر البؤس في الحياة العربية ، مصراً على أن سبب مشكلات العالم ناجمة عن السلطة، حتى أن السلطة العالمية صيغة أخرى للاستبداد ويقول : « قالت الوردة البيضاء بهزء: أنت تتكلم كمجلس الأمن الدولي الذي لاعمل له

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٣٣.

(٢) هذا ما أشار اليه الكواكبي من قبل . انظر : عبد الرحمن الكواكبي ، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد ، ط١، دار النفائس ، بيروت، ١٩٨٤، ص ٣٢.

(٣) تجدر الاشارة إلى أن زكريا كان قد نشر في افتتاحية العدد ٢١٩ من مجلة المعرفة مقتطفات من كتاب الكواكبي والتي كلفته حينها منصبه كرئيس تحرير المجلة . انظر : زكريا، قرامات ، مجلة المعرفة ، ع ٢١٩ ، ١٩٨٠ ، ص ٥ - ٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سوى أن يقدم الاحتجاج تلو الاحتجاج بينما الشعوب تخرّ صرعى في معتقلات الدول الكبرى »[١] . فمواطن زكريا لايحب الرضوخ لقوانين وأنظمة أو حتى لروتين ما ، ويتمرد على كل النظم التي تقيد حرية الانسان وانطلاقه، يقول :« والضاحك الباكي مواطن عربي عادي يتصف بأنه لايستطيع أن يكون مختلفاً عن غيره من عباد الله المواطنين الذين يشكلون أغلبية مبعثرة من المحيط إلى الخليج، وهذه الصفة أدت إلى اهتمامه فقط بما يسمى بقضاياه المصيرية »[٢] . ولا يترك فرصة تمكنه من الاعتداد بعروبته و موروثه العظيم الا ويتحدث فيها فيقول : « أوشكت جارتي العجوز الانجليزية أن تبيع بيتها في مزاد علني بأبخس الأسعار هرباً مني ومن اعتدادي بعرويتي و مآثرها »[٣] .

كما أن وطنيته وشعوره بالانتماء لايقفان عند حد ، فيرى في فلسطين قضية قومية عربية ينبغي الدفاع عنها ، كما أن إسرائيل هي العدو اللدود للأمة العربية ، ويسخر من الموقف العربي اللاهث وراء السلام مع إسرائيل قائلاً : « إن العدد[٣] لم يحدد العطور الصالحة للناس الذين يستخدمون من المقابر بيوتاً لهم ... وتحدث عن عطر يتيح للمرء أن يعرف من هو صديقه ومن هو عدوه ، ولو ذكر اسم العطر لاشتريت كميات كبيرة وأهديت إلى الوفود العربية التي تفاوض اسرائيل » .

إضافة إلى أنه يرى أن المواطن العربي يفضل الدضوخ والانسحاق - نتيجة الخوف من السلطة - فيقول ساخرا من هذا الجبن « والمواطنون العرب في معظم أقطارهم حريصون على أن يكونوا صالحين ، فالعنق الأعزل لايلام اذا تهرب من مواجهة سكين عطشى إلى الدم »[٤] . لذا فنجد زكريا مهموما دائما ، وهمه نابع من خوفه على مصير الانسان المسحوق بسبب جهله وتبعيته وتخلفه ورضوخه للذل ، والجوع المزمن ، يقول : « ... ولكن هؤلاء الأطباء لو تابعوا بحثهم في بقية جسم ذلك المريض العربي فسيجدون الآتي : سيجدون في

---

(١) زكريا ، خواطر تسر الخاطر (الورق الأبيض يدافع عن حياته) م. الدوحة، ع٩٣، ١٩٨٣، ص٢٠.

(٢) زكريا، اقتصادنا سليم ولن نستورد قتلة ، مجلة التضامن ع١، ١٩٨٣، ص٨٨ ، ٨٩ .

(٣) ينتقد مجلة « كل الناس » المصرية ، انظر : زكريا ، الصحافة المتعطرة ، جريدة القدس العربي ، ع١٠٩٨، ٢٢/٢١ تشرين ثاني ١٩٩٢، ص الاخيرة .

(٤) اقتصادنا سليم ولن نستورد قتلة ، ص ٨٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهي أن يتاح له خدمة وطنه ، لا خدمة حاكمه فقط ... ، ولكن فاقدي الحرية هم المسؤولون عما حلّ بهم » [١] .

والحرية ليست ترفاً يطالب به الإنسان العربي ، بل هي حق ينبغي أن يناله كي يصبح ارتباطه بوطنه ارتباطاً عضوياً ، الا أنه لايدافع عنها حاضا عليها ، بل يكتفي بإعلان تشاؤمه . ويعود عام ١٩٨٧ ليقف هازئاً ساخراً مما يمارس من قمع وكبت لكنه لايصرح بالتغيير حتى بات البحث عن الحرية أخيراً غير مجد لأن مفهوم الحرية يقتصر وجوده على القاموس [٢] . لذا لايجد بداً من التمرد ، والتمرد نوع من الالتزام الا أنه التزام بمرارة ، والالتزام والاخلاص صفتان لاتفارقان أديبنا ، كما أنه لايترك فرصة الا ويحض عليهما ، ويدعو للتواصل معهما ، فيرى « أنه عندما يقدم على الكتابة إنسان يتميز بإخلاصه لوجوده وفنه وأرضه ، فلا بد أن ثمة صوتاً ملحاً عميقاً يحفزه لقول شيء ما عن حياة البشر ، وسيكتسب هذا القول - بشكل عفوي - طابعاً مميزاً نابعاً من رؤية الكاتب الخاصة للعالم والناس ، وهذه الرؤية هي التعبير الخفي عن الأصالة والموهبة » [٣] .

ولا يقف عند هذا الحد بل يرى أن ثمة امتحاناً لإخلاص المثقف لشعبه ، ويتجلى ذلك في تقويمه للحاكم من خلال مايقدمه لشعبه ، لا من خلال مايظفر به من مغانم شخصية ، بذلك يلقي زكريا على عاتق الأديب هماً كبيراً يتمثل بالالتزام تجاه قضايا الشعب ، فلا يرى في الانسلاخ مهرباً « فالتزام الأديب بمشكلات وطنه أمر مطلوب ومهم ، وضروري ، كما أن ثقة الأديب بنفسه صفة حسنة لابد من توافرها ليستمر العطاء والتطور ... » [٤] . بذلك تقع مسؤولية تمهيد سبل الوعي لدى الأمة على عاتق المثقف لأن المخلوق الجائع المتعب اليائس لا يستطيع رؤية الورد الجميل والسماء الزرقاء [٥] .

---

(١) الأرجوحة ، مجلة التضامن ، ع٢٤٨ ، ١٩٨٨ ، ص ٢٩.

(٢) منامات غريبة الأطوار ، مجلة التضامن ، ع٢١٢، ١٩٨٧، ص ٢٤.

(٣) زكريا ، عرض وتحليل قصص عادل أبو شنب ، مجلة المعرفة ، ع١٠، ١٩٦٢، ص ١٥٨.

(٤) الطبل محلي وهديل الحمامة مستورد ، مجلة التضامن ، ع٢، ١٩٨٣، ص ٨٣.

(٥) عطشان ياصبايا (عرض وتحليل) ، ص ٢٠١ - ٢٠٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما موقفه من النقد والنقاد ، والأدب والأدباء ، فقد توصلنا من خلال مقالاته إلى أنه ناقم على مستوى الأدب في الوطن العربي وحاقد كذلك على الأدباء الذين باعوا الكلمة لمن يدفع أكثر ، فجردوها من الصدق الموضوعي والفني ، حتى فقدت هويتها . الا أننا نجد في نقده وعرض آرائه شيئاً من الاندفاع والقسوة ، فيرى أن النقاد لايعرفون من أصول النقد شيئاً ، ويصفهم بأنهم يتأرجحون و يميلون حيث مالت الريح ، لكن رأيه هذا ليس على إطلاقه بل يرى - احياناً - ومضات حقيقية مضيئة وصادقة لبعض النماذج على صعيد الأدباء والنقاد. ويصنّف ، الأدباء عدة أصناف منها « أدباء طاعنون في السن ، يؤمنون أن الأدب المبدع الأصيل لا ينتجه الاّ من كان يحمل لقب دكتور، وينتمي كذلك إلى أسرة ثرية . وأدباء يعتبرون النتاج الأدبي وسيلة للشهرة الاجتماعية . وأدباء يملكون دكاكين يبيعون فيها بأسعار لاتزاحم شتى الأفكار والقيم والمباديء والشعارات [١] .

ويرى كذلك أن الأدباء مراوغون ، إذ يتكلمون خمسة آلاف كلمة كي يقولوا إن الذبابة هي ذبابة ، مشيراً إلى عيوب تلك الفئة المكتسبة وهذا مادفعه فيما بعد إلى هجر المنتديات الأدبية والصالونات النقدية وكذلك المؤتمرات . وعلى الرغم من موقفه السابق الا أنه يرى وفي موضع آخر أن هناك من الأدباء من يكتب كي يحصل على لقمة العيش فيضطر إلى ابتذال نفسه للوصول إلى ذلك الا أنه نهاية يتعجب كيف يمكن لأديب عربي أن يعيش مرفوع الرأس منذ لحظة خروجه من بطن أمه وحتى لحظة غيابه في باطن الأرض وذلك لأن من عليه أن يختار حرفة الكتابة الصادقة التي لاتجامل لايحتاج الاّ إلى ذكاء واحد الا وهو ان يتعلم كيف يحفر قبره بقلمه [٢] .

وينتقد زكريا حديث الشعر والشعراء بأسلوب ساخر ، فيقول : « إنه لحدث تاريخي جلل أن يترجم الشعر العربي إلى لغات أجنبية ، ولكن الخطوة الأولى الذكية المتصفة بالواقعية تقضي بأن يترجم ذلك الشعر إلى اللغة العربية أولاً » [٣] . ولا يهزأ بغموض الشعر وإبهامه بسبب من التكلف والإغراق في الغموض فقط بل يسخر من كتّابه أيضاً ، فيوقظ الشاعر أحمد شوقي الذي يصدم بمستوى مايقدم من أشعار ، ويعدها مهاترات جهلة ،

---

(١) ابن فضلان ، مجلة الدوحة ، ع١١٨، ١٩٨٥، ص١٣.

(٢) من حابى خصمه غلب ، ص ١٢.

(٣) من لم يركب الأهوال لم ينل الآمال، مجلة الدوحة ، ع١٠٩، ١٩٨٥، ص١٠١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لذا يرى زكريا بأنه يتوجب تنصيب شوقي ملكاً للشعراء لا أميرا فقط [١]. بهذه الجرأة وقوة الصراحة الممزوجة بحس السخرية المتضمن نقداً لاذعاً متزمتاً في بعض الأحيان يرى زكريا أن الأديب يقف أمام تحديات حضارية عظيمة ، وعليه أن يحدد انتماءه بصدق ، فإما أن ينتمي إلى عالم مدعوم بالجلادين والخونة والسجون ، وإما أن ينتمي إلى عالم آخر لم يظهر بعد ، وما زال في الأحلام ، الا أنه قادر على منح الانسان العربي كل مايفقده من حرية ، وفرح ، وعدالة ، وكرامة ... وفي اختيار الأديب لأحد هذين الخيارين برهان على مدى أصالته وإخلاصه لوطنه وإنسانها [٢] .

ويعد النقد ضرباً من ألوان الحرية ، وغيابه يعني ضرباً للتطور والتقدم حتى الموت . ومعركة زكريا مع النقد والنقاد أشد وطأ ، لذا يقسّم النقاد إلى زمر ، زمرة تنتقد الكتب نقداً مراً من غير أن تقرأها ، وزمرة تمتدح الكتب قبل أن يكتبها مؤلفوها ، وزمرة متقيدة بالحكمة القائلة إن السكوت من ذهب . وهذه الزمر جميعها تحب الذهب والفضة [٣] ، من ذلك يرى زكريا بأن النقاد تجار كبار ، يعتبرون الأعمال الأدبية صفقات مالية مربحة كما لايغفل أولئك النقاد الذين ينحازون للأدباء بناء على معرفة شخصية مسبقة . وعن تجربته مع النقاد يقول « تجربتي الخاصة في الكتابة علمتني ألا أحترم - كثيرا - آراء النقاد في قصصي ، ففي سنوات بدايتي كنت ما إن أنشر قصة حتى يشتمها النقاد ، ثم أنشر قصة ثانية فيسارعون إلى مدح الأولى وشتم الثانية ، لذا فقد اقتنعت بالسير في عالم يخلو من النقاد [٤]. فالمجتمع العربي بحاجة ماسّة إلى النقد الصارم الذي لايشفق ولا يهادن ولا يساوم ، ولا يبقي نفعاً مادياً [٥]. وحتى يتحقق ذلك فقد قاطع زكريا المؤتمرات الأدبية التي تقام بين الحين والآخر في أرجاء الوطن وذلك لأنه يرى فيها تكايا تتبح الفرصة لأكبر عدد من الأدباء كي يأكلوا الطعام مجاناً وينامو في فنادق فخمة ، في حين يخرجون بتوصيات تنشر في الصحف وملعون من ينفذها [٦]. فالفجوة كبيرة بين الواقع الحياتي ، والمثاليات ، والنظريات والشعارات التي ترفع بين الحين والآخر .

---

(١) الشرقيات ، مجلة الدوحة ، ع١٢٣، ١٩٨٦، ص ٧٩.

(٢) الكلمة السلاح ، الكلمة الجارية ، مجلة الموقف الأدبي ، ع٣، ١٩٧٣، ص٤.

(٣) ابن فضلان ، ص ١٣.

(٤) مقابلة مع زكريا تامر ، ص ١١٥.

(٥) دور النقد في التغيير ، مجلة المعرفة ، ع ٢١٠، ١٩٧٩، ص ٥.

(٦) الليل ليل والنهار ليل ، الفوائد الخفية للمؤتمرات الأدبية ، مجلة الدوحة ، ع١٢٤، ١٩٨٦، ص ٧٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكثيرا مايجلس زكريا للكتابة وهو في حالة هياج ، وثورة عارمة ، عندها لايجد أملاً ولا حرية ولا مستقبلاً ، فتطل النظرة السوداوية على قلمه لتشحنه فلا يعود يرى في الحياة بصيصاً من نور ، فكلما تقدم الزمان تعقدت الحياة وتحول الناس إلى آلات مبرمجة لاتملك حريتها ، ولا وطنها ، ولا يجد الفرد صديقاً يأنس به الا اللحد وحده[١] . كيف لا وقد وصف أبو نواس - منذ مئات السنين - زمانه بأنه زمان القرود ، فيتساءل زكريا لو أنه عاش في زماننا ، فماذا كان سيطلق عليه من أوصاف ؟ لاشك أنه سيعجز عن ذلك .

لذا يظن العالم أسود ممسوخاً ، ويعتبر العالم العربي من أشد العوالم بشاعة ، فيعمد إلى قلب الموازين وتجميل البشاعة ، وذلك حتى يكون انعكاس هذه الصورة على الناس غير مقلوب ، كما المرآة . فالغربان من - وجهة نظره - تغرّد ، والحمائم تنعب ، والإنسان الذي يسأل عن أمنيته سيتمنّى لو يصبح حصاناً ؛ لأن الحصان لايركبه الا واحد بينما المواطن العربي فمركوب من الكثيرين دفعة واحدة ، لذا نجد زكريا يرتاح لفكرة الشنفرى الذي استبدل عالم الإنس بعالم الحيوان كي يكونوا أهلاً له في وقت عزّ فيه الأهل، ويكررها كثيرا .

ويدخل زكريا في عوالمه الخاصة مغلّفاً برؤية ساخرة ، مركزاً على المفارقات بروح الدعابة التي لاتخلو من الحدة، واللذع، والإيلام أحيانا كثيرة. وبما أن الفن الساخر (الهجاء) قائم على فكرة التشويه فإن الأديب المصاب بعاهة خلقية مثلا يعكس نفسيته تلك على أدبه ويتحدد بذلك سير أبطاله كما الجاحظ والمعرّي مثلاً . وعادة مايكون المهجو نموذجاً مأساوياً يمثل مأساة الإنسانية بأسرها ، ويمثل جور الزمان كلّه ، وكأن الكاتب يريد أن يلذع الآخرين قبل أن يلذعوه ، وزكريا حين يقذف حممه على من حوله إنما يقذفها قاصداً الإنسانية كلها .

وغالباً ماتجد المأساة طريقها من خلال المهزلة والسخرية فهو ساخر لاذع لكل من يبيع نفسه للشهوات ، ولكل انتهازي مريض ، ولمعنى الحياة ومفهوم الوجود . كما استخدم زكريا عنواناً لافتاً للنظر لزاويته في مجلة التضامن وهو «الضاحك الباكي» وكثيراً ما استخدم هذه الزاوية كي يستتر خلفها أثناء كتابة مقالاته الساخرة اللاذعة لأنظمة الحكم العربية وجهل الناس وقسوة الحياة عليه وعلى أمثاله ، يقول :« والضاحك الباكي مجهول مغمور ، لاتنشر الجرائد والمجلات صوره، فصوره تصلح للنشر فقط في صفحات الوفيات والجرائم »[٢].

---

(١) من حابى خصمه غلب ، ص ١٢ .

(٢) اقتصادنا سليم ولن نسترد قتلة ، ص ٨٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويعلل زكريا أسلوبه اللاذع هذا بقوله : « والضاحك الباكي مهذب جداً ... غير أنه لايجسر على تجاهل الحقائق العلمية القائلة إن الشتيمة - أحيانا - هي من أرقى أنواع التهذيب حيث تكون موجهة إلى من يجعلون حياة الإنسان شقاء يستمر من المهد إلى اللحد » [١].

ومن خلال هذه النظرة التشاؤمية - كثيراً - يطل علينا زكريا في حلته السوداوية الساخطة على العالم ، والتي تتمنى الإطاحة بالكون كي ينمو كون جديد خالٍ من الشوائب .

ويعتبر زكريا **التراث الإنساني** منبعاً لتعميق مفهوم الأصالة عند كل أديب « وأن الأديب لايستطيع أن يبلور مفاهيم جديدة للعمل الأدبي دون الاطلاع على التراث الأدبي الإنساني ، وهضم ذلك التراث والتفاعل معه التفاعل الحي الايجابي » [٢].

لذا فقد استنطق التاريخ القديم ، وأحيا الشخصيات التراثية العربية ، وأتاح لها الفرصة كي تتلمس معالم هذا الواقع الجديد مقيماً معها حوارات مختلفة نستنتج من خلالها أن الكاتب لم يلجأ لهذا الأسلوب الا بعد تشبع إحساسه بالهزيمة أمام الواقع ، فما كان منه الا أن أعاد صياغة التاريخ من جديد وعكس البطولات إلى مواقف إنهزامية ويرع في توظيف شخصياته ، فابن بطوطة في عصرنا مثلاً ، يؤثر السلامة ويعزف عن الترحال ، لأن البلاد العربية أضحت حدودها فنادق [٣].

والمتنبي - في أكثر من مقالة أدبية - يقرر الإضراب عن نظم الشعر [٤] . والشنفرى غير راضٍ عن وضعه المعيشي فيتسكع ويسعى لتأمين عيشه من خلال طرق الأبواب ، فيسرق وينافق [٥] .

---

(١) اقتصادنا سليم ولن نستورد قتلة ، ص ٨٨ .
(٢) مقابلة مع زكريا ، ص ١١٤.
(٣) الليل ليل والنهار ليل ، ص ٧٤ .
(٤) ماذا جرى للمتنبي في رحلاته ، مجلة الدوحة ، ع١٢٧، ١٩٨٦، ٢١.
(٥) الليل ليل والنهار ليل ، ص ٧٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما أبو حيان التوحيدي ، فنتيجة لعجزه وانهزامه أمام الواقع يقرر الهروب ناسباً نفسه إلى شعب أوغنده ، ناسفاً كل صلة له بالعروبة[١] . كما أن عباس بن فرناس يبرر سبب طيرانه في كل مرّة تختلف عن سابقتها ، الاّ أنها تشترك جميعاً في أن فكرة الطيران قد ولدت كنوع من خلاص الفرد من مجتمعه وحكامه . وتجدر الاشارة إلى أن شخصية عباس بن فرناس تكررت كثيراً جداً في مقالات زكريا الأدبية ، وفي قصصه [٢] .

أما عبد الرحمن الكواكبي فنجده بين يدي زكريا قد اتخذ من بيع السجائر مهنة له ، وتنكّر لمؤلفاته ومبادئه التي تعمد زكريا أن يسرد بعضا منها [٣] . فعلى كل إنسان - يعيش في هذا العصر- أن يتنكر لنفسه ، وعقله ، ووجوده ، وعليه أن يسبح مع التيار الخانع ، أو أن يتيه في الضباب .

لقد كرر زكريا تامر العديد من مقالاته وقصصه في مجلات مختلفة داخل الوطن وخارجه ، دون أن تجد الباحثة أية إضافة أو تعديل على تلك المقالات ، ولا ندري ماسبب التكرار هذا ، ونذكر على سبيل المثال : المتنبي يغزو لندن [٤] ، وشجرة البؤس [٥] ، والنار والعقرب [٦] ، نبوءة كافور الإخشيدي [٧] ، وقصة النهر ميت [٨] .

---

(١) أبو حيان التوحيدي يحرق كتبه ، مجلة الدوحة ، ع١١٦، ١٩٨٥، ص ٨٥.

(٢) ماذا قال عباس بن فرناس ، مجلة التضامن ع ١٠، ١٩٨٥، ص ١٠.

(٣) الكواكبي الجديد ، مجلة الدوحة ، ع١٢٦، ١٩٨٦، ص ٤٣. وانظر أيضا : يوم صرنا سباعا في بلادنا ، مجلة التضامن ، ع٦٥، ١٩٨٤، ص ٩٤.

(٤) مجلة التضامن ، ع ٦٩، ١٩٨٤، ص ٩٤. وانظر : مجلة الدوحة، ع١٢٧ السابق ، ص ٢٠.

(٥) مجلة التضامن ، ع٦٦، ١٩٨٤، ع٩٤. ووردت تحت عنوان آخر في مجلة الدوحة ، ع١٢٣، ١٩٨٦، ص ٧٨ . (لماذا ضحك طه حسين قبل موته) .

(٦) مجلة التضامن ، ع٦٦، السابق . وانظر : مجلة الدوحة ، ع١٢٤ السابق .

(٧) مجلة التضامن ، ع١٣٢، ١٩٨٥. وانظر : مجلة الدوحة ، ع ١٢٧ ، السابق .

(٨) مجلة الآداب ، ع٨، السنة السابعة ، ١٩٥٩، ومجلة الأقلام ، ع٤ ، ١٩٦٤، ص٢١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد اتسم أسلوب زكريا بالخفة والبساطة والسخرية المغلّفة بالطابع التراثي في مجلة الدوحة القطرية ، بينما ركز على أسلوب المواجهة والصراحة في الطرح ونقد واقع الطبقة البرجوازية في مجلة التضامن اللندنية ، فعبّر من خلال هذه المجلة عما يجول في نفسه ، وعن وجهة نظره بصراحة مطلقة ينتقد من خلالها الوضع الاجتماعي القائم على النفاق ، والرياء ، والسمعة . ويعود سبب الاختلاف في النهج بين المجلتين اللتين رأسلهما في الوقت نفسه إلى اختلاف المكان وطبيعة الجو العربي الذي لايحتمل الصراحة والجو الغربي القائم على الصراحة والحرية المطلقة . كل ذلك ظهر بأسلوب جميل جداً يشدُّ القارىء إلى قوة اللغة وحسن السبك، وتكرار الألفاظ ، والمترادفات ، والعناية بالاطالة غير المخلّة كي تترسخ أفكاره ومبادؤه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثاني

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثاني

موقفه من المجتمع
(من خلال قصصه)

تدور أسئلة كثيرة حول رؤية زكريا تامر وتصوره للمجتمع الذي يرسمه فأي مجتمع يقصد ؟ وأي عالم يرسم ؟ هل هو مجتمعنا ببساطته وتخلفه ؟ أم أن الكاتب يعيش في عالمه الخاص جداً ؟ أم أن ملامح الوسط الذي يضع الكاتب أبطاله فيه ينطبق على مجتمعات غير مجتمعاتنا العربية ؟

وفي هذا الصدد طرح الأديب حنا مينة موقفه من مجتمع زكريا فقال : « عندما نقرأ قصص زكريا تامر ... فإننا لا نعرف هوية هذا الإنسان ولا قمعية هذا الشرطي ولا الزمان أو المكان ، لذلك يقوم التجريد مقام التعميم ... ثم إن الإنسان في الوطن العربي كله ، ورغم السجون والمعتقلات ، ليس مذلاً ولا رعديداً ، ولا يحمل أكفانه ليدور ميتاً في قلب الحياة ، لذا نفتقد الموضوعية .. والصدق .. وكأنه لا عالم ... وكأننا نبرئ ذمتنا أمام جميع الحكام لأننا لا نقصد أياً منهم بالذات »[١] .

لكننا ، ومن جراء البحث والتقصي الدقيق نستطيع القول بأن قصص زكريا تامر تشكل تعبيراً حياً عن المجتمع الشرقي ، فترسم واقعه رسماً دقيقاً كما تكشف النقاب عن حقيقته بشخوصه وعاداته الشعبية ، ويتضح ذلك من خلال النصوص المليئة بالإشارات الصريحة الواضحة التي تدلل على مجتمعنا الشرق . وقبل أن نثبت ذلك نعرض طرحاً لزكريا تامر فيه رد على أصحاب الفكرة التي يتبناها حنا مينة وغيره فيقول : « ثمة مخلوق مضطهد مسحوق هالك بائس ، لا يضحك ومحروم من الفرح والحرية ، وهذا المخلوق له وجود حقيقي في بلدنا ، ولكنه كان مهملاً منبوذاً ، فمن يسمون أنفسهم كتاباً ملتزمين ، كانوا منهمكين في تصوير المتسولين وبائعي اليانصيب ، وتقديمهم على أنهم الطبقة المسحوقة في بلدنا روحياً ومادياً[٢] ». فزكريا تامر يعبر عن هموم مجتمع الطبقة البرجوازية الصغيرة، وقضاياها ويرى أنه بات لزاماً على الأدباء مراعاة قضية هامة تخص قراء الأدب : لأن

---

(١) حنا مينة ، كيف حملت القلم ، ط١ . دار الآداب ، بيروت ، ١٩٨٦ ، ص١٠٦-١٠٧ .

(٢) مقابلة مع زكريا تامر ، مجلة المعرفة ، ع ١٢٦ السابق ، ص ١١٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الكتابة التي لاتوجه إلى أصحابها ليست ذات قيمة أو فائدة على اعتبار أن تفشي الأمية يحول دون كتابة هموم المتسول وبائع اليانصيب فقط فضلاً عن اعتبارها هي الأصل في هموم الإنسان العربي ؛ لهذا السبب عُني زكريا بالإنسان العربي المثقف لأنه بدوره هو الذي يعنى بقراءة الأداب ، وهو الذي يعاني صراع إثبات الوجود في مجتمع لا يعترف إلا بالمادة، لذا جاء أدبه ليعبر عن هؤلاء الذين يملأون الوطن ويعانون من التشرد الروحي قبل الجسدي ، بصورة الفرد النموذج الذي يكاد يتكرر في معظم أعماله والذي يتصدر بطولة قصصه دون منازع .

لذا علينا ألاّ نغالي أو نشتط في مثل تلك التساؤلات . فندع النصوص هي التي تنطق وتعبر عن مجتمع زكريا تامر . هذا المجتمع الذي يمارس جانباً من القمع – إن لم يكن كله – على الإنسان (الفرد) فيحطمه ويجعله تائهاً غريباً حتى وهو بين أهله ووطنه . وليس هناك من عيب أو خطأ في تناول كاتبنا لمثل هذا النمط من الأفراد ، حتى وإن كان هذا النموذج يملأ الغرب الرأسمالي ، فنحن في عصر فرض نظمه القمعية على كل إنسان أينما حلّ ، وهموم الإنسان كإنسان غالباً ما تكون متشابهة وعامة وبخاصة إذا لامست هذه الهموم الكرامة الإنسانية والجوع والحرية والحب .

لقد أبرز لنا زكريا تامر مظاهر القمع التي يمارسها المجتمع الشرقي على أبنائه النخبة ممثلة بتوضيح موقفه من الفروق الطبقية ، وهيمنة سلطة الأخلاق والقيم والعادات، والاغتراب الذاتي والاجتماعي ، والسلطة الأبوية ،وسنتناول هذه الأنماط بشيء من التفصيل : ـ

أولاً - الفروق الطبقية :

لم يتساءل زكريا تامر في قصصه عن سبب وجود الفقراء والأغنياء ، وكذلك لم يتساءل عن الفارق بينهم ، ولم يدعُ إلى حلٍّ ما بل اكتفى بالرصد فقط ، إذ رصد ظاهرة الفقر والجوع رصداً دقيقاً ، أبرز من خلاله معاناة الفرد الذي لا عمل له فيقتله الجوع . وتفنن برسم المجتمع الغني بمنازله الحجرية الفخمة ، وبهرجة سكانه ، أصحاب السيارات الفارهة .

وتتجسد أزمة البطل في وحدته ، وشعوره بتخلف طبقته الفقيرة الشعبية ، فينسلخ عنها لكنه في الوقت نفسه لا يستطيع الانخراط في عالم الأغنياء ، فيرفض طبقته ويرفض فقره وبؤسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويستغل زكريا همّ الجوع عند أبطاله ليعبر به عن هموم إنسانية كبيرة بل تتحول هذه الهموم - أحياناً - إلى ملحمة سريالية مفجعة كما يرى الكاتب رياض عصمت فالجوع في قصصه نوعان : نوع مادي وآخر معنوي ، وهذان النوعان يتشابكان معاً من أجل إضاءة حياة الفرد التعسة [١] ، حتى يصل بهم إلى إنكار القيم الخيّرة كلّها ، ويدفعهم إلى هوّة اليأس والقهر والإحباط فيلجأون إلى ارتكاب أعمال قد تكون عنيفة أو يلجأون إلى عالم الأحلام والكوابيس ، فالجوع مثلاً كان قد استشرى في الحارة ودفع بأميمة كي تسلك مسالك الرذيلة [٢] ، وبليلى كي ترضخ لابن عمها عباس [٣] ، والجوع هو الذي دفع أحد المساجين كي يشتم أمه وأباه وجده وجدته [٤] .

وتكثر النماذج التي تظهر لنا الجوع على أنه عدوّ شرس وُظف من قبل قوة ما (لا يحددها) كي يقتل في الإنسان إنسانيته ويقربه من عالم الحيوان ، ويشوه أحلامه ، فلا يستطيع الجائع أن يحب ولا يملك تفكيراً متزناً ، بل يتشرد في الطرقات متمنياً أن تستأصل معدته التي طالما ذكّرته بالطعام ، ويتمنى أيضاً أن يريح قلبه المعتوه لأنه يعشق مدنية بخيلة لم تعطه سوى البؤس والجوع والكآبة [٥] .

وأبطال زكريا الجائعون هم غالباً لا يملكون عملاً ما ، وذلك يعود إلى أحد سببين ندرة الوظائف الشاغرة، والثاني أن الأعمال الشاغرة لا ترضي طموح بطل زكريا ، ولا تتناسب مع طبيعته الممزقة المنهزمة. فهذا شاب يعلن في الصحف عن « شاب للبيع عمره خمس وعشرون سنة يقوم بأي عمل ، والثمن تأمين طعام يومي له » [٦] . وهناك آخرون يبحثون عن عمل لا يُخدش كبرياؤهم فيه ، فلا يجدون . ويخاطب أحدهم قطته قائلاً : « يا قطتي العزيزة حياتي بائسة، والفقر يشنق أية ومضة فرح قد تعبر قلبي .. غير أني لن أيأس ... » [٧] .

---

(١) رياض عصمت ، هموم زكريا تامر ، مجلة المعرفة ، ع ١٨٩ ، ١٩٧٧ ، ص ٨٦ .

(٢) الأغنية الزرقاء الخشنة ، مجموعة صهيل الجواد الأبيض ، ط١ ، دار مجلة شعر ، بيروت ، ١٩٦٠ ، ص١٢ .

(٣) الرغيف اليابس ، مجموعة دمشق الحرائق ، ط١ ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ١٩٧٣ ، ص ٧٧ .

(٤) رحيل إلى البحر (دمشق) ص٢٩٧ .

(٥) جوع (صهيل) ص ٦٦ .

(٦) رجل من دمشق - الليل في المدينة ، ص ٦١ .

(٧) نفسه ص ٦٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن اللافت للنظر أن البحث عن عمل في حياة الأبطال لا يأتي حباً به ولكن لأنه الطريق الوحيد الذي يؤمن أدنى سبل العيش ، فهذا عامل متعب يتثاءب وهو يمضغ لقمة كبيرة ، ويقول : « كل يوم تتحطم جبهتي لأجلك يا رغيف .. يا عاري الكبير »[١] . وكذلك رندا فقد ضربتها أمها لأنها طلبت أن تشتري ثوباً أحمر قائلة لها : « إن شراء الخبز أكثر أهمية من شراء ثوب أحمر »[٢] . ويسير أحمد في قصة «سيرحل الدخان» بلا نقود أو سجائر فيمنعه كبرياؤه من الانحناء والتقاط عقب سيجارة رماه إلى الأرض رجل أنيق بحركة لا مبالية من يده ، مما أشعر أحمد بذل عنيف واكتسحته رغبة حمقاء في البكاء كامرأة هرمة »[٣] .

هذا هو مجتمع الفقراء الذي يصوره زكريا فلا يجد أبطاله مناصاً من الأحلام والكوابيس لإشباع جوعهم ، فيحلم بطل « الأغنية الزرقاء الخشنة» بأن يصبح ملكاً كي يحطم الجوع وينقذ الناس من براثنه[٤] . مما سبق نستطيع القول بأن قضية الجوع هي من أهم القضايا وأكثرها شيوعاً في أعمال زكريا تامر ، وأن التخلص منه ، يعد - بحد ذاته - تحقيقاً للحرية وكما قال أحد أبطاله : « إله مدينتي خبز ، حبيبتي جميلة كالخبز »[٥] .

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو كيف صور زكريا عالم الأغنياء ؟ مقابل ذلك العالم المشوّه ، وهل ثار على وجوده أم أن هناك تمازجاً بين هاتين الطبقتين (طبقة الفقراء ، وطبقة الأغنياء) ؟

لقد دعا زكريا في قصصه إلى نبذ الفروق الطبقية التي تقتل الكرامة الإنسانية إلا أننا نجده - أحياناً - قد سلّم بوجود هذا الفارق الطبقي في المجتمع على اعتبار أنها قضية موجودة أصلاً منذ القدم فدعا إلى ضرورة فتح قنوات التفاعل والتعايش بين الفقراء والأغنياء . يقول أحد أبطاله : « يجب عليكم يا إخواني أن تهدموا الجدار الذي يفصل

---

(١) ترنفلة للإسفلت المتعب (صهيل) ، ص ١٠٩ .

(٢) الشجرة الخضراء (دمشق) ص ٤٨ .

(٣) سيرحل الدخان (مجموعة ربيع في الرماد ، ط٢ ، مكتبة النوري ، دمشق ، ١٩٧٨) ص٦١ .

(٤) الأغنية الزرقاء الخشنة ، ص ١٢-١٣ ،

وانظر أيضاً قصة "جوع" ، و" شمس صغيرة" (ربيع) ، و" الشجرة الخضراء" .

(٥) صهيل الجواد الأبيض ، ص ٤٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الإنسان عن الإنسان »[١] . كما تحدث الراوي في قصة «ربيع في الرماد » عن مدينة قديمة هادئة وادعة ، ناسها مزيج من الأغنياء والفقراء ، يعيشون بسعادة وأمان ومحبة ، ويؤمنون بالله إيماناً قوياً »[٢] . وعلى الرغم من هذه الدعوة الصريحة لنبذ الفروق الطبقية وتجاوزها إلا أن ذلك لم يكن ليتحقق ، فيوسف مثلاً يعلم علم اليقين أن أهل سميرة الأغنياء لن يزوجوها من فقير ، لذا تمخضت نهاية علاقتهما عن تفجير مكامن الحقد والرغبة في الانتقام من عجرفة الطبقة الغنية فتركها تواجه الفضيحة وحدها بعد أن أخذ منها ما يريد[٣] .

بذلك يكون بطل زكريا - المعدم اقتصادياً - ضحية مجتمعه الشرس ، فيتمنى العيش في ظل ظروف جيدة مع الأغنياء إلا أن عالم الأغنياء جزء من شراسة الواقع ، لذا تبلور إحساس الفرد بالدونية ، يقول بطل قصة « رجل من دمشق » بعد أن قادته قدماه إلى شارع فخم عالي المباني: « أحسست بأني لست سوى بقعة سوداء تلطخ سطحاً أبيض »[٤] ، كان ذلك عندما أبصر كلباً في إحدى البنايات ، يداعبه طفل أنيق ، وقد تبين له أن الكلب يأكل كيلو من اللحم يومياً فتمنى لو يضع أصحاب هذه البناية الطوق الحديدي في عنقه بدل الكلب كي يحصل على كيلو لحماً يومياً. عندها سيعوي لهم أحسن من كلاب العالم جميعاً.

هذه مأساة الفقر في مواجهة الغنى ، فيحدث فواز حبيبته إلهام عن مرض غريب سيأتي ولن يصيب سوى الأغنياء فيموتون جميعاً في يوم واحد ، عندها يقبل الفقراء ويسكنون في منازل الأغنياء الحجرية الجميلة[٥] . وبذلك نستشف شخصية بطل زكريا المسالم السلبي المتقوقع على نفسه والذي لا يرغب بعمل تغيير جذري في إذابة الطبقية بل على العكس من ذلك فهو ينتظر أن تأتي قوى خارقة كي تخلص الفقراء من الأغنياء الذين لا يدرون عن هموم الفقراء شيئاً ويتجسد ذلك في القرصان للأميرة بأن « الناس خارج القصر يجوعون وأحياناً ينتزعون قلوبهم من صدورهم ويبيعونها ويشترون بثمنها خبزاً »[٦] .

---

(١) آخر الرايات (مجموعة الرعد ، ط٢ ، مكتبة النوري ، دمشق ، ١٩٧٨) ص ٩١ .

(٢) ربيع في الرماد ، ص ٧٥ .

(٣) البدوي (دمشق) ص ٢٠٥ .

(٤) رجل من دمشق ص ٦٠ .

(٥) النار والماء (دمشق) ص ٢٦١ .

(٦) القرصان (ربيع) ص ٩٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لم يكتف زكريا برسم صورة البطل الحانق الحاقد على الطبقة الغنية بل صور هؤلاء الأغنياء بأبشع الصور إذ جعلهم يأكلون لحوم البشر وغيرها فبطل قصة « ابتسم يا وجهها المتعب » يتناول طعاماً من مطعم خاص بالأغنياء فيتبين له فيما بعد أن الطعام عبارة عن لحم إنسان بدين (لاحظ الرمز الذي يرسم من خلاله شراسة الأغنياء) ، وأنه يعتبر من أفخر الأطعمة الرائجة بين طبقة الأغنياء[١] . وفي قصة « جوع » ، يُغمى على أحمد من شدة الجوع ، وبينما هو في إغمائه يرى نفسه وقد صار ملكاً ، تقدم له أفخر الأطعمة المكونة من لحم طفل صغير ، فيأكل بنهم وسعادة ، دون أن يشعر بتقزز أو غثيان كما حصل مع بطل القصة السابقة ؛ وسبب ذلك يعود إلى أن أحمد معجب بعالم الأغنياء ، وهو راغب في العيش كما يعيشون ؛ لذا فقد تلذذ بطعم اللحم البشري ، بينما بطل القصة السابقة دخل المطعم الخاص بالأغنياء لأنه يملك نقوداً لوقت محدد فقط ولا يرغب في أن يكون ضمن عالم الأغنياء لذا ؛ وجدناه قد شعر بغثيان وتقزز من أكل لحوم البشر ، وإن دلّ هذا الرمز على شيء فإنما يدلُّ على بشاعة العالم الذي يملك المال على حساب الكثيرين الجياع ، وأن ما يأكله هؤلاء الأغنياء لهو من دم البشر وراحتهم ، ومالهم ، وأجسادهم ، وشقائهم وما نشأت حياتهم إلا على حساب حياة أمثال بطل زكريا البائس .

من ذلك ندرك سبب انسلاخ بطل زكريا عن طبقته الفقيرة ، وفي الوقت نفسه عدم رغبته بمهادنة الطبقة الأخرى ، وأنه لو ترك الخيار له لمزّق كل الحواجز التي صنعها المجتمع الزائف ولعاش البشر معاً دونما فروق .

ثانياً - صراع القيم :

إن مجتمعاً غارقاً في المفاهيم المتحجرة والعادات البالية لن يزيد إنسان زكريا إلا الضياع والرغبة في الانتحار من أجل التخلص من الحياة البائسة . يقول بطل إحدى القصص بأن أهله - وكثيراً من الناس يوافقونهم الرأي - ينصحونه بأن يحني رأسه إذا أراد العيش بسعادة ؛ لأن الرأس المرفوع يشقي صاحبه[٢] . هذا هو المجتمع الذي يصوره زكريا ، والذي يساهم في تمزيق الفرد ، حتى أقرب الناس له يساهمون في ذلك . لذا تحاك الشباك حول الفرد ، ويحبس خلف قضبان القيم التي ما عادت تتناسب مع آماله وطموحه . فيغدو مطالباً بالانتهاء في الجماعة ، أو أن ينعزل عن مجتمعه ويعيش متقوقعاً على نفسه .

---

(١) ابتسم يا وجهها المتعب (صهيل) ، ص ٤٧ .

(٢) رجل من دمشق ، ص ٦٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن هذه القيم البالية ممارسة الزوجة دور المخلصة لزوجها رغم أنها لا ترغب باستمرار الحياة معه ؛ وذلك لأنها زوّجت له قصراً ودون مشورتها . فعندما يموت البنّاء في قصة «السجن» تولول زوجته وتصبح وتندب حظها على فراق زوجها أمام الناس ، وعندما يأتي الليل تستسلم لهدوء غريب ، وتنام قريرة العين ، وعلى ثغرها ابتسامة وسكينة[١] . بذلك يتعلم الفرد النفاق الاجتماعي كما يتعلم الغش والمداهنة ، وتتمزق مبادئه كما تمزقت مبادئ والدة رندا التي كانت ترفض تقبيل الأيدي وهي صغيرة لكنها عندما كبرت أضحت تقبل الأيدي وتحني الرأس للآخرين [٢] .

ومن القضايا الاجتماعية التي عرضها زكريا في أعماله قضية **العار** وهذه من أهم القضايا الأخلاقية المطروحة والتي غالباً ماتنتهي بالقتل ثأراً للشرف، وقد تكون هذه القضية مقنعة نوعاً ما إلا أن زكريا طبقها على حالات تتصف بالبراءة والصدق ، ولكن المجتمع الساذج يرى بعين عوراء فتذبح فطمة أخت منذر السالم في حارة السعدي على يديه لأن كبرياءها قد أغاظ زوجها على الرغم من احترامها له وإطاعتها إياه إطاعة مطلقة ، إلا أنه لم يستطع أن يمتلك قلبها ومشاعرها ، فما كان منه إلا أن توجه إلى أخيها الجالس في المقهى قائلاً له : « بدل أن تجلس كعنتر بين الرجال اذهب وخذ أُختك من بيتي » [٣] . وكلمة عنتر هذه تكفي قيمياً - لأنها تحمل معنى الإهانة للرجل - أن يتوجه منذر إلى أخته ويذبحها دون أن يستفسر عن السبب .

وعندما أبصر رجال حارة السعدي عائشة - ابنة عبدالله الحلبي - تمشي مرفوعة الرأس دون ملاءة سوداء ، اعتبروا ذلك خروجاً على عادات الحارة وتقاليدها كما عدّوه تشجيعاً منها لغيرها من النساء على التمرد على سلطة الرجل ، وتكون النهاية أن ترتدي عائلة عبدالله الحلبي ثياب الحداد على ابنها الذي راح ضحية الدفاع عن أخته ومبادئها ، ورغم ذلك لم يكن ليرى عبدالله الحلبي نفسه مذنباً أو متمرداً على تقاليد مجتمعه بل طرح التساؤل التالي : «هل إذا ارتدت عاهرة ملاءة فهل تصير شريفة ؟ »[٤] ، وفي هذا التساؤل

---

(١) السجن (الرعد) ص ٨ .

(٢) رندا مجموعة النمور في اليوم العاشر ، ط٢ ، دار الآداب ، بيروت ، ١٩٨١ ، ص ١١٥ .

(٣) موت الشعر الأسود (دمشق) ، ص ١٣٩ .

(٤) الخراف ، (دمشق) ، ص ١٠٩-١١٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يدق زكريا تامر أجراس الإنذار التي تنبه إلى تقوقع الإنسان في ظل قيم وتقاليد قاتلة لا تنتهي إلا بموت الفرد أو تمزقه . كما يتضح من هذا التساؤل مدى تناقض المجتمع المتزمت مع نفسه وتشتته بين القبول والرفض ، الاستسلام والتمرد .

ونوال البنت الصغيرة التي ألفاها أخوها تتحدث مع رجل عجوز ، تموت على يد أخيها القائل : «العار يجب أن يحمى »[١] ، وماذا في مثل سلوك هذه الفتاة الصغيرة من عار ؟ إلا أن زكريا يبالغ في رصد هذه السلوكات متعمداً تهويلها حتى تنجلي الصورة القمعية تماماً أمام القارئ ، فروح الفرد المبدع والمتميز مطاردة ومهزومة دائماً أمام أول صدام لها مع الجماعة . لذا ينخرط فرد زكريا وينصاع لتزمتها على غير قناعة منه ، مما يولد لديه شعوراً بالازدواجية والتناقض لعجزه عن مسايسة هذه المبادئ فيجلس مع نفسه وخلف الأضواء وفي السراديب . وعندما أمسكت ليلى بيد أحمد في قصة «النابالم» وهما يسيران في الشارع ، فيخشى أحمد على ليلى من الناس ويقول : « اتركي يدي لئلا يراك أحد ويخبر أهلك »[٢] مرتداً إلى خلفيته القيميّة السائدة ، إلا أن ليلى لم تتخل عن يده متحدية بذلك كل المفاهيم والقيم ، وفي الوقت نفسه يتمنى أحمد أن يرى ليلى عارية أمامه، وذلك عندما اختلى بها في غرفته، ولولا دخول صاحب البناية عليهما لتمكن أحمد من تحقيق ما يتمنى.

وعندما يسكن كل من أحمد وعصام في بيت صاحبته امرأة أرملة تصبح الأرملة فريسة ينتظر الشابان فرصة وقوعها كي يتقاسماها ، وفي الوقت نفسه الذي فيه يهمان بالخروج من غرفتهما إلى ساحة البيت ، يطرقان الباب عدة طرقات تنذر بخروجهما ، عندها على النساء أن يختبئن لأن قوانين المجتمع عنيت بصيانة الأعراض من الدنس ولكنها لم تعن بتطهير النفوس أولاً[٣] . هذا هو الطرح الذي حاول زكريا تامر أن يتلمسه ويضع تحته عدة خطوط للرائي كل ذلك مبتعداً عن المباشرة في الطرح أو عرض الحلول . ويكفي أن نقول بأنه غالباً ما تمارس القيم والمفاهيم السائدة دوراً قمعياً على الفرد مما يؤدي إلى خنقه وكبته وقتل حريته ، وبخاصة إذا عرفنا بأن الحرية المطلوبة لدى أبطال زكريا هي حرية مطلقة لا تنقاد تحت أية ظروف - لأية ضغوطات أو قيود .

---

(١) الحفرة - (دمشق) ، ص١٥٤ .

(٢) النابالم - (الرعد) ، ص ٥٠ .

(٣) أرض صلبة صغيرة ، (دمشق) ص١٢٩-١٣٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثالثاً - الصراع مع السلطة الأبوية :

يساهم الأب في أعمال زكريا مساهمة فعالة في قمع الفرد ، وتمزقه. فهو رجل متسلط، متحجر ، متزمت ، والبطل لا يرضى بهذا النموذج فيتمنى عمراً بلا أب « وتجسدت في مخيلة يوسف بقايا مدن .. أبنية متهدمة ، فهتف بلا صوت : عمري يتبدد ، أريد عمراً آخر بلا أب »[١] . وبما أنه لا يريد أباً ، يرفض كذلك أن يصير بدوره أباً ، وليس هذا فحسب بل لا يريد أن يتزوج ، كل ذلك بسبب ما خلّفته صورة والده من قمع وتسلط فلا يريد أن يكرر تلك المأساة مع جيل جديد .

ولا يخفى على أحد أن هذه القضية تلامس الواقع الذي نعيش لما اتسعت من خلاله الفجوة بين الأب وابنه ، فما عاد الأب يستوعب توهج ابنه ، كما أنه بقي محافظاً على صورته التقليدية ، الآمرة الناهية التي تقول - دائماً - لا ، ولا تؤمن بمبدأ فتح قنوات الاتصال مع الأبناء ومثال ذلك عندما يذهب بطل قصة " الصقر" إلى المقبرة لزيارة ضريح والده عندها يتصنع الحزن ، والخوف ، والانكسار ، إلا أن صوت أبيه يأتيه صارخاً مؤنباً : « يا ولد ، اخجل ، كف عن التدخين »[٢] فيطيعه البطل خائفاً ، وعندما يسأله والده عن سبب تأخره في الزواج ، يجيب رافضاً الفكرة من أساسها فيوبخه والده توبيخاً لاذعاً مما دفعه إلى مغادرة المقبرة حانقاً حاقداً ، فيهرع إلى البيت ويذبح حبيبته - التي لم تغسل جواربه - دون أن ترتجف يداه ، وبهذا السلوك يفرغ شحنات حنقه - على تسلط والده حتى وهو في قبره - على من هم حوله ولا ذنب لهم بما يجري . وبذلك يطرد الشمس من السماء ليدلل على الوحشة التي غلّفت حياته وقيدت حريته .

أما يوسف في « ثلج آخر الليل » فيتعرض لقمع والده القاسي ولا يجرؤ على التدخين أمامه ، كما أن أباه باع المذياع الذي يعتبر الصديق الوحيد ليوسف ، مع أنه يعلم علم اليقين بهذه الحقيقة ، ولا يكتفي بهذه المحاصرة بل يكلف يوسف البحث عن اخته الفارّة من تسلط أبيها وكبته لحريتها ، ويطلب منه أن يذبحها (كالكلبة) ، رغم أن يوسف لا يريد في قرارة نفسه أن يذبح أخته التي طالما أحبها ، ولعب معها إلا أنه يجد نفسه منساقاً لرغبة والده متحاملاً على نفسه[٣] .

---

(١) ثلج آخر الليل . (ربيع) ، ص١٤ ، وانظر أيضاً - النهر مبت ، (صهيل) ص ٩٨ .

(٢) الصقر - (الرعد) ، ص ١٣ .

(٣) ثلج آخر الليل ، ص ١٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كل ذلك ينشأ نتيجة خلفية قيميّة ، توارثها الآباء عن أجدادهم فيها حض على إطاعة الآباء ، والانقياد ، لأوامرهم وأهوائهم دون مساءلة، وربما تضخم هذا الأمر ، لشعور الآباء بأنهم الوحيدون المنتجون بينما الأبناء والأمهات فهم المستهلكون، فيطالب والد يوسف -مثلاً- ابنه بكامل الأجرة التي يتقاضاها من عمله وربما نستشف من ذلك سبب عزوف الشباب عن العمل لإحساسهم بأن ناتج عملهم لا يعود عليهم بالنفع الشخصي . ليس هذا فحسب بل يحاول والد يوسف منعه من قراءة الكتب، زاعماً أنها تفسد عليه عقله ، وتضيع وقته وماله، يقول يوسف واصفاً أباه «أبي لا يحب سوى الأولاد الذين يشتغلون في النهار، وينامون في الليل، ولا ينفقون نقودهم ويقبلون يده باحترام ، لن أقبّل يدك يا أبي» [(١)] . إننا نلمس تطوراً في شخصية الفرد إذ لاحظنا سابقاً أن الفرد ينساق لأوامر أبيه تماماً رغم أنه لا يقرُّها بينما يظهر في قصة «البدوي» أنه بدأ يرفع صوته رافضاً تقبيل يد والده ، حتى ينتهي المطاف بأبطال زكريا إلى صنع تابوت يلقون والدهم به ، وذلك في مجموعته الأخيرة « النمور في اليوم العاشر » عندما يرفضون نموذج الأب الذي لم يعلّمهم سوى تقبيل اليد التي صفعتهم ، وإحناء الرؤوس كما أخافهم من ثوب المرأة ، فلا ماضي لهم ، ولا حاضر ولا مستقبل ، إضافة إلى أنه علّمهم عدم النظر إلى السماء [(٢)] .

بذلك تحققت ثورة الأبناء على آبائهم ، محاولة منهم للخلاص من القمع الذي يكمن في الأسرة ، لعلهم فيما بعد يقدرون على التخلص من القمع الناشئ في الشارع ، والمقهى ، والمعمل .

رابعاً - الاغتراب الذاتي والاجتماعي :

مما سبق نستشف عدة إرهاصات ممهدة لغربة الفرد عن نفسه وانسلاخه عن مجتمعه كما نستشف بأن الفرد بريء من ذلك والمجتمع هو المدان الحقيقي وهوالذي قاد الفرد إلى الانسلاخ عن نفسه ، يرى د. إحسان عباس « أن الفرد منهزم قبل أن تبدو إمارات هزيمته ، فمن ذا الذي يستطيع أن يقول بأن الفرد هو الذي سينتصر في النهاية ؟ » [(٣)] ويظهر هذا القول جلياً عند زكريا تامر إذ إن الفرد في قصصه يرنو إلى الهزيمة والاستسلام ، واليأس ، أكثر من ميله نحو الثورة أو التمرد أو طرح البدائل لحل المشكلات، وليس زكريا تامر وحده

---

(١) البدوي ، ص ٢١٩ .

(٢) ما حدث في المدينة التي كانت نائمة (لا) ، (النمور) ، ص٦٤ .

(٣) د. إحسان عباس ، اتجاهات الشعر العربي المعاصر ، ط٢ ، دار الشروق ، عمان ، ١٩٩٢ ، ص١٥٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من يهتم بمأساة الإنسان أمام الوجود فقد اصطدم فرانز كافكا * من قبل بعالمه المحيط به والذي لم يعترف بالفرد إنساناً له كيانه وهمومه ومشكلاته أمام المجتمع ، لذا فقد اشترك كل منهما بتسليط الضوء على الفرد الممزق المغترب حتى عن نفسه ، كما اعترف كل منهما بضعفه وعجزه عن مقاومة هذا المجتمع والتمرد عليه . ففي قصة كافكا « تحريات كلب » مثلاً ، ينقم الكلب الصغير على أجداده الكلاب الذين ساهموا في توريط حياته الكلبية في الإثم يقول : « فبرغم أنني قد أشعر بأنني مضطر إلى معارضتهم إلا أنني في الواقع سوف لا أتخطى قوانينهم أبداً [١] ، من ذلك يظهر لنا أن الفرد مسلوب الإرادة ، وأن إرادته خاضعة لإرادة الآخرين ، وأنه لا مفرّ - حتى الموت - من سلطة الآخرين على الفرد المستسلم لقوى التيارات الخارجية . ونرى كذلك أنه بغير قرار بائع الفحم بإعطاء بطل قصة « راكب الجردل »[٢] وقوداً فلن يبقى على قيد الحياة ، فحياته أضحت مرهونة بيد بائع الفحم . وفي ظل البحث الدائم عن معنى الوجود يغترب الإنسان عن نفسه اغتراباً يظل يتعمق حتى تنعدم شخصيته . ويزداد إحساسه بالقلق ، والعجز ، واليأس ، العزلة ، والكآبة ، والدونية ، ... إلخ وتعد هذه النتيجة حجر الزاوية في بناء كل من كافكا وتامر الفني ، وكما تجدر الإشارة إلى أن هذا الإحساس لم ينمُ إلا بعد تجربة قاسية عاشها الفرد في مجتمعه ، فدفعته حساسيته إلى نبذ المفاهيم والقيم السائدة ، فعمل بطل زكريا في معامل صناعية مختلفة رسمها على أنها عبارة عن مكان جاف يحوي عدداً من الآلات الحديدية ، وعدداً من البشر الذين لا يعرفون سوى العمل ، لذا فلا تجمعهم أية مشاعر إنسانية ، ويقدر للبطل أن يطرد من عمله في أحد المصانع وذلك لأنه أتلف - بالخطأ - إحدى الآلات ، فصار يتسكع في الشوارع باحثاً عن عمل آخر كي يؤمن رزقه[٣] وفي قصة لاحقة يقرر البطل العودة إلى المعمل إلا أن الرجل الزنجي - القابع داخل فرد زكريا - يحس باختناق ، فتسول له نفسه ترك العمل مرّة ثانية، وفي خضم تفكيره يأتيه صوت الآمر قائلاً « ما بالك متوقفاً

---

* انظر : ص ٣٨ .

(١) تحريات كلب ، نقلاً عن (بديعة أمين ، هل ينبغي إحراق كافكا ، ط١ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٨٣) ص٣١٧-٣١٨ .

(٢) كافكا - راكب الجردل ، أحمد عصام الدين (نقلاً عن مقالة القصة الوجودية عند كافكا) مجلة القصة ع . ٢ ، ١٩٦٥ ، ص ٨٥ .

(٣) الأغنية الزرقاء الخشنة ، ص ١٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عن العمل ؟ اشتغل ، اشتغل »[١] فيدرك صعوبة الاستمرار في مسرحية تقوم على مبدأ قتل الإنسان وتعذيبه ، فيبصق البطل في وجه الآمر ويكون الطرد بانتظاره ، عندها فقط يستعيد إنسانيته المفقودة .

ويصف شخص آخر من أبطال زكريا حياته اليومية التي لا نرى فيها شيئاً من التعقيد بل على العكس هي بسيطة وساذجة ، إلا أنه يراها بمنظار آخر فيقول « وحيد ككلب الأسواق الأجرب ، وتعيش أيضاً ككلب الأسواق الأجرب ، ستنهض في الصباح في لحظة معينة ... ستتمطى بتكاسل ... ثم سيدفنك المعمل في أحشائه الشرسة .. تعب .. أتنسى رائحة لحم العامل المحترق ، الذي تساقط عليه الحديد الناري المصهور، تلك الرائحة هي العالم .. »[٢].

فلا يرى البطل في السعي سوى روتين قاتل ، وهو عدوّ الروتين الأول فلا يحب تقييداً لحريته على الرغم من أن هذا التقييد يكون ضرورياً للعيش الكريم في كثير من الأحيان إلا أننا نجده لا يتذكر من المعمل سوى الوجه البشع الذي يرميه - كالكلب - وحيداً في الأسواق، ويصف المعمل بأنه عبارة عن « حديد ولحم وحجر »[٣] امتزجت معاً لتكوّن شيئاً ما كريهاً ، حتى إن وجه صاحب المعمل « قاسٍ خبيث ، أعطنا خبزاً ولحم نساء أيها الرب الفولاذي »[٤]، فقد صوره كالآله الذي يعنى بتقسيم الأرزاق ، فيعطي متى يشاء ، ويحرم متى يشاء ومن يشاء، إلا أنه مجبول من الفولاذ (الحديد كناية عن القسوة) ، ولطالما حلم يوسف أنه يذبح صاحب المعمل ، ويهدم المعامل باسم الإنسانية « سأهدم المعامل ، وسأجمع الآلات في مكان واحد، ثم أقول بصوت كله مهابة وجلال : أنت أيتها الآلات، مخلوقات مجرمة، جئت من بلاد غريبة، حاملة لنا الشقاء، إنني آمر بتحطيمك باسم الإنسان الذي يريد أن يحيا وديعاً نقياً، طيباً ..ثم سأصيح في وجوه الناس المجتمعين حولي: هيا يا بلهاء ارجعوا إلى الأرض، إنها الأم الوحيدة التي تعطيكم خبزاً ، وفرحاً دون أن تلوث قلوبكم بالكراهية »[٥].

---

(١) الرجل الزنجي (صهيل) ، ص ٢٤ .

(٢) صهيل الجواد ، ص ٣٨-٣٩ .

(٣) البدوي ، ص ٢٣٥ .

(٤) نفسها ، ص ٢٠٨ .

(٥) الأغنية الزرقاء الخشنة ، ص ١٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا لماذا هذه الرؤية السوداوية للعمل في المصانع وصاحب العمل ؟ ألمجرد أنها مستوردة فقط فعملت - كما يرى زكريا - على انتزاع الإنسان العربي البسيط من أرضه (مكمن الانتماء) ليصبح جزءاً من مكونات المعمل كالحديد والحجر مثلاً ؟ إن كان ذلك كذلك فهذه مبالغة ودليل على انتقال هذه المسألة لمجرد التأثر بالأدباء الغربيين الذين طرحوا هذه القضية في عصرهم الذي سادته الآلة (الثورة الصناعية) فجردتهم من إنسانيتهم . لكننا نرى أن زكريا قد أحس بانتقال جسم الآلة من الحضارة الغربية دون تمهيد لذلك ودون أن ينتقل الفهم الشامل لأسباب وجودها ، مما أدى إلى خلق هوّة سحيقة بين الإنسان وهذا المخلوق الحديدي فكان الصدام حاداً ، وتطور الشعور بالحنق على الآلة إلى رفض العالم الذي تحكمه، وانبثق التساؤل عن معنى الوجود . مع العلم بأن الصورة البشعة لهذه المعامل لم تكن قد وصلتنا حتى ذلك الحين . لذا نجد لزاماً علينا أن نبحث عن أبرز أثر غربي كان قد تأثر به زكريا في خضم البحث عن معنى الوجود .

لقد قادنا ما لمسناه من أثر أجنبي في بعض أعمال زكريا تامر إلى طرح التساؤل التالي : أي الأدباء الأجانب كان له أكبر الأثر في أعمال زكريا ؟ لقد تبين بعد دراسة لبعض أعمال فرانز كافكا [1] المتمثلة في القضية ، وتحريات كلب ، وراكب الجردل ، والمسخ والجحر، أنها من أكثر الآثار بروزاً وانعكاساً في أعمال زكريا تامر .

لقد لاقت أعمال فرانز كافكا المترجمة صدى قوياً في نفس زكريا وبخاصة كل ما يتعلق بالبحث عن معنى الوجود والهدف من الحياة ، فقد تساءل الكلب الصغير في « تحريات كلب » عند كافكا عن الهدف من وجوده أمام تسارع الزمن وغلبة عصر الآلة

---

(١) فرانز كافكا (١٨٨٣-١٩٢٤) أديب تشيكي من أصل يهودي ، عاش في ظل ظروف اجتماعية وسياسية معينة انعكست في أعماله . فقد استفحلت الخلافات بينه وبين والده المتسلط ، احتجاجاً على هذه السيطرة إلا أنه لم يستطع أن ستفلت من هذه السلطة فعمل - في منشأة أبيه - ما لم يكن يرغب أن يقوم به من أعمال . انظر : مصطفى ماهر ، القضية لكافكا ، مجلة تراث الإنسانية مجلد ٥ ، عدد ١١ ، ص ٨١٤ . لذا فقد كره حياة الأسرة وكره مدينة (براغ) التي طالما أطلق عليها لقب « المدينة اللعينة » . وقد تحدث عن غربته في يومياته فقال : « أعيش غريباً أكثر من الغرباء أنفسهم » انظر يوميات كافكا ، نقلاً عن حول الاغتراب الكافكاوي ، ابراهيم محمود ، مجلة عالم الفكر مجلد ١٥ ، عدد ٢، ١٩٨٤، ص٩٥-٩٧ . كما بدت الحياة له زنزانة لا تتيح أكثر من خطوة واحدة في الاتجاهات الأربع ، فضلاً عن عمق شعوره بالاغتراب والعزلة لذا جاءت أعماله لتترجم هذا القلق المتأصل بداخله .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قائلاً « أيمكنني أن أتأمل أسس وجودنا ... أيمكنني أن أتكهن بعمقها ... ؟ »[١] ويتعمق التساؤل فيضيف « ما هو أشدُّ غرابة لحدٍّ بعيد بالنسبة لعقلي هو اللامعقولية ، لا معقولية هذا الوجود »[٢] .

لقد لمسنا من خلال دراسة بعض الأعمال بأن كلاً من كافكا وزكريا قد سعى إلى خلق عالم خاص به ، وإلى محاولة لإيجاد معنى لوجوده بطريقته الخاصة ، ونحن بدورنا لا ننكر الاختلاف البيئي بين هذين الأديبين كما لا ننكر اختلاف موازين القيم والموروثات لكل منهما ، إلا أننا حاولنا عقد المقارنة في القضايا التي يشتركان بها على المستوى الإنساني البحت من مثل تبنّي فكرة الدفاع عن حرية الفرد ، وتسليط الضوء على أسباب اغترابه وعزلته أمام أشكال السلطة المختلفة .

لقد حلم بطل زكريا بوجود مدينة ذات شروط خاصة تتناسب مع طبيعته لا أن يتناسب هو معها كالتي فرضها الواقع عليه ، وكافكا كذلك ففي قصته " الجحر" مثلاً يختار البطل العيش في جحر مظلم لا ينافسه فيه أحد ولا ينغص أحد عليه حياته ، وهو في نظره قمة الجحور وأفخمها[٣] وهو السيد الوحيد لحجراته وغرفه ، ومنه يستمد القوة والأمن . لكنه – مع كل هذه السيطرة على عالمه الذي صنعه بنفسه – لم يتخلص من القلق الذي يثيره الوجود خارج الجحر وذلك لأنه جزء لا يتجزأ من العالم الخارجي ، الذي لا يمكن له – نهاية – أن ينسلخ عنه .

يطرح بطل زكريا تساؤله عن الوجود فيقول: « .. فأنا شاب أحمق ، عديم الفائدة ... اشتغلت في أعمال كثيرة كرهتها كلها ... ولقد طالما تساءلت : لماذا أعيش ما دام ليس هناك ما أعيش لأجله ، ولا فائدة من وجودي ... لماذا لا أنتحر ؟ »[٤] ، وبذلك يتوصل الأديبان إلى أن الحياة عبث ولا شيء غير العبث .

---

(١) انظر كافكا ، تحريات كلب ، نقلاً عن بديعة أمين ، ص ٢٩٥ .

(٢) نفسها ، ص ٢٩٩ .

(٣) الجحر ، ص ٣٢٨ .

(٤) رجل من دمشق ، ص ٥٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولسبب من الإحساس بتفاهة الحياة وتعقدها ، بشكل يشوه الصورة المثالية لها جاءت رواية " المسخ " لكافكا ليعبر من خلالها عن واقع المعاناة التي خلفتها الرأسمالية ، والتي بدورها قضت على العلاقات الإنسانية من خلال اهتمامها بالعمل على حساب إنسانية العامل وبالآلة على حساب راحة العامل ، فتبدأ علاقات سامسا المتحول إلى حشرة كبيرة بينه وبين الناس بالتغير، إنها صدمة الواقع المشوّه إذ يعمل سامسا موظفاً بسيطاً في مكتب، ولا حول ولا قوة له . سوى أنه يرفض أن يكون إنساناً آلياً سخيفاً، ويطالب بكل أبعاد الإنسانية للحياة حتى أصبح كل ما فيه يعبش حالة اغتراب ، فطريقته في تناول الطعام أضحت تشبه الحيوان ، وصوته صار غريباً وما عاد المجتمع يرضى به حتى أن اخته تطلب من أبيها التخلص منه [١] . ويمكننا الإشارة إلى صورة الاخت في قصة " الجريمة " عند زكريا تامر إذ تشهد على أخيها أمام المحكمة بأنه فعلاً قاتل الجنرال كليبر ، وقارس مع أهلها دور الجلاد للتخلص منه[٢] وفي قصة أخرى لزكريا تتشوه الحياة في نظر خليل السامر، فيمسخ كل ما فيها من مظاهر إنسانية عندما يدخل إلى المطعم لتناول الطعام ، فيفاجأ بأن الزبائن ما هم إلا عبارة عن جرذان كبيرة أنيقة وكذلك « الجرسون » ، وأثناء جلوسه في المطعم يدلف جرذ كبير أنيق يقود ببده طفلاً يمشي على أربع مطوقاً بسلسلة حديدية ، عندها يفشل خليل السامر في محاولة تخيل طفل أشقر الشعر يضحك بعذوبة ، كما فشل عندما حاول أن يتخيل شجرة خضراء وعصفوراً صغيراً ... [٣] لذا فقد أضحى وحيداً في عالم كله جرذان فلم يستطع المحافظة على إنسانيته أكثر ، وشيئاً فشيئاً بدأ صوته يتحول إلى نباح ، وأخذ يستسيغ قطعة اللحم النيئة التي قدمها له الجرسون فأضحت لذيذة مغرية بالنسبة له . فعلى الرغم من انعكاس صورة التشويه والمسخ في كلا العملين إلا أن مؤداهما واحد ففي (المسخ) مثلاً تحول الفرد إلى حشرة ضخمة ، أي أنه صار في نظر المجتمع شاذاً عنهم فنبذوه لذا قرر أن يريحهم من نفسه فانتحر . أما في قصة (الهزيمة) ، ينهزم الفرد أمام المجتمع الذي كان عبارة عن جرذان كبيرة ، والفرد منبوذ لأنه شاذ عنهم ، والفارق الذي نلمسه بين العملين هو أن أبطال زكريا فشلوا في مقاومة المجتمع ، فما كان منهم إلا الانخراط فيه رغم تشوهه وعلاته مع استمرارية التفكير بالانتحار . أما بطل كافكا فقد قرر الانتحار ، لأنه وجد من الصعوبة بمكان الانخراط في مجتمع ينبذه ويكنُّ له العداء .

---

(١) كافكا ، المسخ ، ترجمة - منير البعلبكي ، ط١ ، مكتبة النهضة ، بيروت ، ١٩٥٧ ، ص٥ .

(٢) الجريمة (ربيع) ، ص ٢٧ .

(٣) الهزيمة (الرعد) ، ص ٩٨-١٠١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بذلك لا يستطيع الفرد أن يتصالح مع المجتمع لأن المجتمع لا يمدُّ له يد المصالحة ، بل على العكس من ذلك فقد تزداد إمكانية انسلاخه عن مجتمعه ، ففي قصة «القبو» يرجع البطل إلى قبوه حيث تتعاقب أيامه بلا أفراح ، فيسأل أمه إن كان أحد قد سأل عنه في غيابه، وعندما تخبره بأن لا أحد قد سأل عنه يقول:«فامتلكتني خيبة مريرة، وأحسست بأني من أشدّ الناس بؤساً، ولم أستطع البكاء لأن عينيّ أمي كانتا تراقباني بفضول، فقصدت المرحاض ، وهناك اسندت خدي بجداره الخشن الوسخ وانتحبت طويلاً دون خجل ... »[١] أما الكلب الصغير بطل قصة «تحريات كلب»، فقد بدا له وكأنه قد فصل عن جميع زملائه ليعبر مسافة قصيرة ... كما لو أنه سيموت بسبب الإهمال أكثر منه بسبب الجوع ، إذ كان واضحاً أن أحداً لم يشعر بقلق عليه ، ويضيف قائلاً « لا أحد تحت الأرض أو عليها أو فوقها يشعر بقلق علي، إنني كلب أموت بسبب لا أباليتهم »[٢]. لقد قام كل من كافكا وزكريا بالكشف عن جذور الاغتراب لكنهما بقيا أسيري الاغتراب فلم ينته بهما إلى ثورة رافضة بل قادهما إلى العجز المأساوي ، واليأس المبرر من وجهة نظرهما. وفي النص التالي يلخص زكريا مأساة بطله المزق فيقول : « إني أعيش في هذا القبو ... العالم يجثم فوقي إني سأظل حتى النهاية في قعر المدينة »[٣] وفي قصة أخرى يصف لنا حال بطله الذي يعيش حالة اغتراب من شتى الجوانب (اللامقدرة ، وفقدان الماهية واللاإنتماء ، والوحدة ، والقلق ، والرفض ، والتمرد) قائلاً «غرفة الرجل المتعب بلا ضوء ، صامتة، علبة صغيرة من الحجر الرطب، أعود إليها بدون حنين بعد أن تشردت طوال ساعات ... » ويضيف « وكنت وطواطاً هرماً أعمى ، جناحاه محطمان ، لا أجد خبزي وفرحي ... يصدمني الصخب أينما سرت فلكم يرعبني ضجيج المخلوقات الزاحفة حولي على الأرصفة ، إنه يبعدني عن نفسي ، عن نقطة سوداء قابعة في داخلي ، باردة حزينة ... أنا لست سوى مخلوق ما ضائع في زحام مدينة كبيرة قديمة ... لست دون جوان، لا أملك سيارة، ولا بناية شامخة ... جبهتي لم تلمس مرّة سجادة مسجد ... صورتي لايعرفها قراء الصحف اشتغل في اليوم ثماني ساعات ... أتعب، أبتلع الطعام بسرعة عجيبة . أدخن ..أجلس في مقهى ... أشترك بحماس في مناقشات عقيمة .. أضحك ببلاهة ... أغازل فتيات . اشتم الله ، أصادق مومسات .. أقرأ كتاباً ... »[٤] .

---

(١) القبو ، (صهيل) ص ٢٨ .

(٢) تحريات كلب ، ص ٣٢٠ .

(٣) القبو ص ٣١ .

(٤) صهيل الجواد ، ص ٣٥-٣٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في هذا النص تجسيد لمأساة المثقف العربي ، وحيرته ، والفراغ النفسي والعاطفي الذي يكابده ، وكآبته من كثرة القيود التي يرسف تحتها ، والتي تقوده إلى الشعور بالحرمان تارة ، وإلى التمرد البسيط تارة أخرى ، وفيه تجسيد للغيظ المكبوت الذي ينطوي على الكفر، إنها قصة إنسان كافكا كذلك ، الذي نزوي في جحره هرباً من الأعداء (العالم). ولا يختلف بطل قصة «الفريسة» عن صاحب الحجر هذا ، إذ يفرُّ من العالم المشوه المرعب ويستقر في نهر عدة سنوات ، وحيداً مستسلماً لطمأنينة غريبة حتى جاءه صياد في أحد الأيام فانتشله ظناً منه أن هذا الإنسان سمكة غريبة ، وأقنع أولاده الجياع بأكلها [١] فلا مناص من قسوة العالم على الفرد ، ومهما طال عليه الزمن فسوف تنال منه اليد البشعة ، لذا فما الفائدة من هذا الوجود ؟ ولماذا لا ينتحر بطل زكريا ؟؟

إن من أبرز المظاهر التي التفت إليها كل من كافكا وزكريا في أعمالهما تحول الأبطال من العالم البشري إلى الحيواني ، إذ يتخلون ، بل يتجردون من الإنسانية المشوّهة متجهين نحو عالم الحيوان ، لعل إحساسهم بالوجود يتحقق من خلاله . ففي «تحريات كلب» مثلاً يتحول البطل إلى واحد من مجتمع الكلاب لكنه على الرغم من ذلك يشعر بانعزاله عن المجتمع الكلبي عندها يطرح السؤال الصعب ما الهدف من الوجود ؟ وما الغاية منه ؟ إنها مأساة الشعور بالاغتراب إذ تتحول الحياة الإنسانية إلى الحياة الحيوانية المجردة كما لمسنا ذلك في كل من المسخ ، والجحر .

ويؤكد زكريا على أن وجود الفرد لا معنى له طالما أنه فقد القدرة على التعامل بإنسانيته في مجتمعٍ خالٍ من الإنسانية ، فالشنفرى - مثلاً - لم يجد بُدّاً من التوحد مع قطته عندما عاد إلى مسكنه وحيداً يشتهي الكلمات والورد والنجوم ، لكن القطة لم تمنحه نعمة التوحد ، فخدشته في وجهه ، وهربت ، عندها تحول صوته شيئاً فشيئاً إلى صراخ ممطوط : « نياو ، نياو .. » [٢] . ويتحول محمد إلى قط هزيل ، يموء مواءً حاداً ، ويمشي عبر الطرقات دون هدف ، وذلك عندما لم تبتسم له المرأة التي أحبها [٣] .

---

(١) الفريسة (النمور) ، ص ١٢٠ .

(٢) الشنفرى ، (دمشق) ، ص ١٧٤-١٧٧ .

(٣) حقل البنفسج (دمشق) ص ٢٧٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويتفاقم الشعور بالدونية والحيوانية عند أبطاله كلما أحسُّوا بقسوة الواقع عليهم ، وكلما اشتهوا شيئاً ولم يتحقق ، فتتحول النقطة السوداء المختبئة في صميم أحدهم إلى عنكبوت لا يستطيع مقاومته ، بل يسقط بسهولة بين أذرعه اللزجة [١] ويخاطب أحد أبطاله امرأة يحبها قائلاً :

« أحبك ، فتسأله إن كان يشعر وهو يردد هذه الكلمة بأن إنساناً رائعاً سيولد في نفسه ، فيجيبها : لا شيء في داخلي سوى بعض العناكب والقبور المهجورة [٢] » ويتعالى صوت عمر السعدي - الذي قبض عليه ولم يعلم ما هي تهمته [٣] - مقلداً مواء القط في هيئة صراخ شرس ، وينتظر بلهفة ركلة الحارس عندما يفتح باب الزنزانة عليه [٤] .

من ذلك ندرك أن إحساس كل من الأديبين قائم على عدم مهادنة هذا العالم، مادامت أسباب الاغتراب قائمة ، وطالما أنه لم يتم التغلب عليها، فستبقى الجثة ، أو الحشرة ، أو العنكبوت ، أو الكلب ، أو الغراب ، أو القط هي النهاية الحقيقية لإنسان يعيش في عالم مشوه، وسيبقى إنسان زكريا عبارة عن "شيء" أو مخلوق ما، أو كتلة لحم مسترخية على وجه سرير أو غراب هرم ، أو جورب عتيق مهمل ، لا يحس بالحياة لأنها لا تحس به . ومن أمثلة ذلك يقول بطل زكريا: «أنا شيء فظ جاف خشن، غير إنساني» [٥]. ويقول في موضع آخر : « ليتني كنت غراباً ، أنا تمثال من صخر صلد ، أملس مغروس وسط ضوضاء مخبولة » [٦].

إنه العبث فما عادت الحياة ذات معنى يثير اهتمام الفرد ، فلا معنىً في الحب ولا في المال كما لا يوجد معنى للعيش بحد ذاته إنه مرّة أخرى السؤال الصعب : «لماذا تعيش يا سكران ... لماذا لا أموت ؟ ماذا سأفعل لو كنت أملك مدناً من ذهب ... لو أحبتني أجمل امرأة .. ماذا سأفعل؟ أظنني سأحدق في لمعة حذائي الجديد وأقول بضجر : أوه كل الأشياء تافهة وغبية» [٧] بسبب هذه العبثية يندفع أبطال كل من زكريا تامر وكافكا إلى التفكير

---

(١) صهيل الجواد ، ص ٣٩ .

(٢) صهيل الجواد ، ص ٤٠ .

(٣) انظر التشابه بين جوزيف . ك في القضية ، وعمر السعدي ، ص ٩٤ .

(٤) النهر (ربيع) ، ص ٧٤ .

(٥) رجل من دمشق ، ص ٧٠ .

(٦) القبر ، ص ٢٨ .

(٧) صهيل الجواد ، ص ٣٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بالانتحار ، وكما أنه لا معنى في الحاضر ، فلا بد أن المستقبل يخلو من المعنى أيضاً ؛ فهو كيومهم الذي يعيشون فيه عقيم تعس ، لذا يختاران الموت لأبطالهما كما اختارا لهم الحرية من قبل ، فالموت من وجهة نظرهما ليس تلك التجربة السيئة ، وإنما هو تجربة يمرُّ عبرها الإنسان نحو الصفاء الكلي ، هذه هي حقيقة الموت لديهما ، قالت المرأة متحدثة عن الموت « الموت لا يخيفني ... إنه بدء طريق إلى عالم كبير جداً ومجهول »[١] . كما يستسلم جوزيف . ك للإعدام دون مقاومة فعلى الرغم من عدم الخوف من الموت على اعتبار أنه حقيقة مطلقة إلا أن هذه الفكرة تؤرق الفرد ، وتسيطر على تفكيره لأنها الخطوة الأولى في السؤال عن الخلود والبحث عنه ، يقول أحد أبطال زكريا « آذار ، نيسان ، مارس، الثلاثاء ، الأربعاء ... متى يتوقف هذا الركض المجنون ؟ سأدفن يوماً في حفرة ، ويظل النهر حياً »[٢] إنه الصراع والقلق الذي يعمق الإحساس بتفاهة الحياة وعبث الوجود ، ويقول أيضاً « مازال الحمار سيداً ، فليسقط أبي، فلتعش امرأة جارنا ، تفو .. كلنا سنموت »[٣] ويتساءل البطل مستغرباً من سؤال أحد المارة له عن الساعة ويقول « لماذا يسأل ما دام سيموت في يوم من الأيام »[٤] .

ويتعمق صراع البحث عن الخلود عندما يقول أحدهم « لن أموت سأمشي وحيداً في المدن المقفرة » وأيضاً «لن أموت قبل أن أقابل البحر فهو الوحيد الذي سيعطيني الأجنحة»[٥] . إنها محاولة لمحاربة فكرة الاستسلام للموت ، لكن هل ينجحون ؟

يحدد كافكا قدره في الحياة من خلال عبارة وردت في يومياته فيقول : « لو أنني أدنت ، فإنني لم أدن فقط لأموت ، وإنما أدنت أيضاً لأناضل حتى الموت »[٦] من ذلك يتضح لنا أن بطل كافكا خلق كي يموت ، لكنه خلق أيضاً من أجل أن يناضل حتى لحظة الموت ، وذلك كي يكون جديراً بأن يكون قد وجد في يوم ما .

---

(١) ابتسم يا وجهها المتعب ، ص ٣٨ .

(٢) النهر ميت ، ص ١٠٢ .

(٣) قرنفلة للإسفلت المتعب ، ص ١١٠ .

(٤) القبر ، ص ٣٠ .

(٥) رحيل إلى البحر ، ص ٣٢١ .

(٦) كافكا ، اليوميات ، ص ٣٦٧ ، نقلاً عن - هل ينبغي إحراق كافكا - ص ١٩٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مما أسلفنا يتبين أن إنسان كل من كافكا وزكريا يصطبغ بطابع التشاؤم واليأس ، لكنه مع ذلك يحمل تباشير الأمل بين الحين والآخر .

وعلى الرغم مما وصف به زكريا من كونه فنان التدمير ، وصاحب الباطنية المدمرة إلا أنه لا يدمر عشوائياً ولا يدمر بلا سبب أو مسوّغ ؛ فكثير من أبطاله تراودهم فكرة اختراع قنبلة ذرية يطوحون بها فوق هذا العالم لتدمره ، ولا تبقي منه شيئاً ؛ وذلك حتى تشرق الشمس على الأنقاض [١] فلا ينقطع الأمل « سأزرع الأمل في دمي ، وأنتظر بلهفة الشمس السعيدة التي لا بد أن تشرق في يوم ما » [٢] .

تقول بديعة أمين في معرض حديثها عن موقف كافكا من الأمل بأنه على الرغم مما يشاع حول موقف كافكا من الحياة الذي يطلى بلون قحمي لا يسمح بتسرب خيط من النور المشوب باليأس والإحباط ، فإننا نستطيع أن نتبين ذلك الموقف المفعم بالأمل حتى حين يكون اليأس هو النهاية الحتمية المغلقة ، فيقول في يومياته : « لا تيأس ، حتى بسبب حقيقة أنك لا تيأس ، فحين يبدو أن كل شيء قد انتهى ، تهب قوى جديدة ، وهذا يعني بالضبط أنك حي » [٣] .

وتتضح هذه المقولة في موقف صاحب الجحر إثر خروجه إلى العالم ، فعلى الرغم من أن خروجه من الجحر يفضحه ويعرضه للمخاطر ، إلا أن ذلك هو « الأمل الوحيد الذي لا أستطيع أن أعيش بدونه » [٤] .

من ذلك نرى أنه ليس بالإمكان تجاوز الاغتراب نحو الخلاص رغم المحاولات التي تشرق هنا وهناك ، وذلك بسبب العجز المطلق وعدم القدرة على الدفاع عن النفس أمام مجتمع قاسٍ ، فالمجتمع هو المسؤول عن تعاسة الفرد التي لا يُعرف لها نهاية .

---

(١) الرعد ، ص ١١٧ ، وانظر، التراب لنا وللطيور السماء (دمشق) ، ص ٥٩ " في الصحراء" (دمشق)، ص١٨٧. "صهيل الجواد" ، ص١٤ .

(٢) رجل من دمشق ، المسرات الصغيرة ص ٦٢ .

(٣) يوميات كافكا ، ص ٢٢٤ .

(٤) الجحر ، كافكا ، ص ٣٢٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الموقف من المرأة

تتضح صورة المرأة من خلال ما بثه الكاتب من آراء ، وتصورات ، وصفات ، ومميزات يتمنى أن يراها أبطال قصصه في المرأة ، وكذلك مستوى تعامل المجتمع مع هذه المرأة وهل اعترف بكيانها واستقلاليتها أم لا ؟ .

إن صورة المرأة التي ظهرت في معظم الأعمال غالباً ما تكون صبية جميلة ناصعة البياض ، ذات شعر أسود متهدل على كتفيها ، كما أنها غالباً ما تكون ضعيفة مُعتدى عليها ، يختطفها الرجال ، مهجورة ، تحنُّ إلى علاقة مع رجل ما ، كما يتضح في " ليلة من الليالي " إذ قالت إمرأة لأبي حسن « تزوجني، وسأكون خادمتك »[١] . وهي إمرأة وحيدة تبحث عن زوجها المفقود وتقع ضحية المجتمع المتخلف ، حتى إن المرأة المتعلمة تعتبر بخلعها الملاءة خارجة على عادات الحارة وتقاليدها ، وتستحق الموت . والمرأة كذلك من وسط شعبي لا تتعداه فلا نلحظ لها دوراً على الصعيد السياسي أو الفكري ، وينحصر دورها في إطار العلاقات الإنسانية والاجتماعية ، وهي دوماً مشتهاة ومرتبطة بشوق الرجل للحياة والدفء. يقول البطل في قصة القبو « وتذكرت آنئذٍ سميحة الفتاة التي كانت تحبني ببراءة وصدق ، وكان يعذبني بقسوة اشتهائي المجنون لجسدها »[٢] .

لقد ركّز الكاتب على مظاهر القمع الاجتماعي ، وانسحاق الإنسان في الحياة ، كما كشف عن ضيق العقلية الشعبية وتخلف رؤيتها للمرأة . كما أن بطل زكريا لا يريدها أية امرأة بل يريد امرأة هو صانعها ، فيشكلها كما يشاء «سيصنع إمرأة من ذهب وسيحبها بضراوة »[٣] ، وكل ما يتمناه « من الحياة لا يتعدى بيتاً صغيراً يعيش فيه مع فتاة لم يقابلها بعد ، ولكنه واثق أنه سيجدها يوماً ما ، وسيحبها بإخلاص »[٤] . وكذلك يملك شوقاً دائماً لاحتواء المرأة ، وتلمّس جسدها بشوق، فيتمنى عباس أن « يتحول إلى هواء تستنشقه ليلى ليستقر في صميم كل خلية من خلايا جسمها »[٥] .

---

(١) في ليلة من الليالي ، (النمور) ، ص ٣٤ .

(٢) القبو ، ص ٢٩ .

(٣) الكنز ، (صهيل) ، ص ٩٢ .

(٤) رجل من دمشق (المسرات الصغيرة) ، ص ٥٥

(٥) الرغيف اليابس ، ص ٧٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعندما لا يعثر على مراده تتعمق الحساسية الجسدية للمرأة حتى تصل أبواب الرؤية السادية فتتدفق رائحة الشهوة العدوانية الدموية ، فيحدّث الشنفرى قطته عن المرأة قائلاً « أنا لست متزوجاً ، والمرأة التي أحبها سآكل فمها وأبتلع لحم شفتيها الدامي الطري ، ثم أضرب رأسها بقطعة خشب صلدة ، وأكسره وألطخ وجهي بدمها الساخن ثم أدفنها تحت سريري ، وأنام مرتاح البال »[١] فمتى نال البطل حبيبته يعني ذلك أنها انتهت بالنسبة إليه ، كما قال حسن لأحد أصدقائه في المقهى عندما كان يكتب شعراً في محبوبته : «ألا تحرق أشعارك إذا نلت حبيبتك ؟ »[٢] فالحب عند بطل زكريا ما هو إلا نجمة عالية لا يشتهي نوالها ![٣].

كما تخيل محمد امرأة جميلة ، وبعد أيام رآها نفسها في الشارع فتبعها حتى عرف منزلها . . وأصبحت أمنية محمد أن تنظر إليه وتبتسم له ، لكن المرأة لم ترمقه بنظرة في أي مرة . ها هي صورة المرأة التي يريد حتى لكأنها ليست من عالم الأرض، وهو يريدها حرّة طليقة لا سبيّة مغلوبة على أمرها لذا رفض محمد أن يأتيه الساحر بها نائمة قائلاً : « أريد أن تكون عيناها مفتوحتين ، تنظر إليّ برود ، أريدها أن تبتسم لي . . »[٤] فالمرأة بالنسبة له جزء من الطبيعة أو هي الطبيعة الجميلة وهو دائم البحث عمن تعمق تماسكه مع الطبيعة «ففطمة امرأة جميلة ضحكتها حديقة خضراء »[٥]. وسميحة «لها جناحا عصفور صغير »[٦].

فالمرأة نموذج مثالي لا ينبغي أن تدنسه الأيدي ، لهذا السبب سيصنع امرأة خاصة به تتناسب وعالمه ، وسيشكلها كما يشاء ، كذلك سيدافع عنها أمام هذا الواقع الصعب ، لأنها في الواقع الحالي لا تعجب بطل زكريا كما لا يعجبه حالها لأنها امرأة لا تعيش إلا بجسدها فقط ، فهي خاوية الروح ، مسلوبة الإرادة ، حتى أضحى الرجل يرى أن « كل النساء

---

(١) الشنفرى ، ص ١٧٥

(٢) رحيل إلى البحر ، ص ٣٢٦ .

(٣) النهر ميت ، ص ١٠٠ . وانظر أيضاً : الأغنية الزرقاء ، ص ١٣ ، الرجل الزنجي ، ص ٢٥ .

(٤) حقل البنفسج ، ص ٢٧١ - ٢٧٢ .

(٥) البدوي ، ص ٢٢٥ .

(٦) الحب ، (دمشق) ، ص ٧٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مومسات »[١] . وعاش أبطال زكريا مشتتين بين وهم المرأة المفقودة ، وواقعها الاجتماعي المزري ، وبين المرأة الكابوس التي تطل بين الحين والآخر فترعب بملمسها الحريري الناعم الرجل الذي ما إن تتمكن منه حتى تتحول إلى أفعى قاتلة [٢].

في ضوء هذه الرؤى المتباينة أصبح بطل زكريا - نتيجة خوفه منها وخوفه عليها - يفكر بامرأة لا يشتهي نوالها ... كالمرأة الصديقة فيقول : « كم أتمنى أن تكون لي علاقة صداقة مع فتاة ، لا أريد أن أحبها ، إنما أريدها فقط صديقة لا أكثر .. وذلك كي يحدثها عن كآبته التي تغلُّه إلى الشوارع ، ولكي يبكي بين يديها دون خجل .

١- صورة الأم

من المألوف أن تظهر صورة - المرأة - الأم رمزاً للعطاء والتضحية في معظم الأعمال الأدبية ؛ لأنها الموجه والمربي والمدافع عن الأبناء أمام سطوة الآباء . لكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا هل بقيت صورة الأم مشرقة في أعمال زكريا أم لحقها من التدنيس والتشوية ما لحق غيرها من النماذج النسوية في خضم صراعات هذا العالم المشوّه .

لقد سلط زكريا الضوء على حقيقة الأم ومشاعرها ، كما جردها في أحيان كثيرة من أمومتها ، فرصد سلوكاتها من خلال الظروف المحيطة بها ومن خلال تفاعلها مع المجتمع الحافل بالأزمات .

فامتازت الأم - عموماً - بالبساطة الشعبية ، والسذاجة والجهل الممزوج بالحنان الفطري، والخوف على الأبناء ، فيستعصي عليها فهم أبنائها كما في قصة «الرجل الزنجي» إذ تتهم الأم ابنها بالجنون عندما رأته يدير حواراً مع نفسه (صديقه الوهمي) .

---

(١) رجل من دمشق ، ص ٥٣ .

(٢) جوع ، ص ٥٧ - ٥٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذه هي أولى مظاهر التصادم وأول مبررات غربة البطل التي تبدأ من البيت حيث السلطة الأبوية . وفي قصة " رندا" تتنصت الفتاة الصغيرة إلى الأرض فتسألها أمها عمّا تسمعه فتقول رندا : إنها تسمع غناء جميلاً ، فتجيب الأم : « ما هذا الحكي الأبله ؟ هل تريدين أن يقول الناسُ أن رندا مجنونة ؟ الأرض مجرد تراب وحجارة »[١].

إن أبطال زكريا يتمتعون بنوع خاص من النضج الفكري فلا يهادنون أو يجاملون مع أنهم ربما يستسلمون لسطوة الواقع الذي غالباً ما يكون أقوى منهم . كما أن الأمهات لا يملكن القدرة على فهم هذا الجيل أو استيعابه ويعتبرن أفكار الأبناء مخيفة مرعبة تقود إلى الجنون .

وهناك من الأمهات من يقدرن على توجيه أبنائهن لكن هذا التوجية غالباً ما يكون سلبياً ، فبدل أن تكون الأم هي الملاذ الحقيقي لأبنائها ، تكون بجهلها وخوفها أولى وسائل التدمير النفسي والضياع لهؤلاء الأبناء . ففي قصة الأعداء (الأبناء) مثلاً يسأل الطفل أمه – كعادة الأطفال – عن فوائد العينين والأذنين واللسان ، فترتعد الأم خوفاً وتضلل الإجابة قائلة له بأن العينين خلقتا كي ينظر فيهما باحترام إلى الحكام والمسؤولين ، والأذنين كي تسمعا الأوامر الرسمية ، والخطب السياسية ، واللسان لا يفيد في شيء سوى المضغ[٢]. ويكمن سر تضليل الإجابة عن لسان الأم التي حطمها الرعب في الواقع السياسي القمعي الذي يفرض سياسة قمعية تشوه الناس . لذا نرى الأمهات وهن يندفعن إلى قتل أبنائهن فكرياً وروحياً ، حتى يصبحوا أجساداً تتحرك بلا روح ؛ وذلك لأنهنّ يخضعن لقمع خارجي ، وتتكرر هذه الصورة في شهادة أم سليمان الحلبي في قصة " الجريمة " ضد ابنها أمام المحكمة[٣].

ونتيجة للخوف الذي تمارسه الأم على أبنائها فهي تسلم الأبناء لمزالق أدناها السلبية والهروب من مواجهة الواقع فالأم في قصة " الأطفال " تحذر ابنها من الاقتراب من النهر لأنه يخطف الأطفال، وبعد قليل تؤنبه لأنه يخبرها بأنه سرق غيمة لأن الكذب عيب[٤]. في مثل

---

(١) رندا – النمور ، ص ١١٥ .

(٢) الأعداء (الأبناء) – النمور ، ص ١٠ – ١١ .

(٣) الجريمة ، ص ٢٧ .

(٤) الأطفال (غيوم) – الرعد ص ٨٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذا التناقض الذي وضعته الأم بين يدي طفلها تكون قد ساهمت في رفع درجة الشعور بالغربة والضياع ، فالفعل " سرق " مثل الفعل خطف عند الطفل وكلاهما فعل، لكن الأم لم تتنبه لذلك ؛ ولهذا السبب نستطيع تفسير إصرار أبطال زكريا على العيش بوحدة مطلقة ، ورفضهم للمجتمع وعدم قبولهم لأسرهم وبيئاتهم .

لقد أظهر زكريا نماذج لبعض الأمهات اللاتي يتمتعن بوعي ممزوج بالصرامة ، فتمارس الأم من خلاله دور الرقيب الحسيب على سلوك أبنائها المراهقين لكن هذه الصرامة غالباً لا تكون إيجابية في الغالب بل تخلق في نفوسهم ردة فعل عنيفة نستطيع تسميتها سلبية ، فأم الفتاة الشابة في قصة " قرنفلة للإسفلت المتعب " تنصح ابنتها ببعض النصائح التي تفيد بأن « الرجال كلهم يعبدون المرأة بذل ، عندما يشمون رائحتها ، ولكنهم يبتعدون عنها بقرف لحظة تنطفىء شهوتهم »[١] مثل هذه النصائح ولدت عند الفتاة إحساساً قوياً بكره والدتها حتى صارت تتمنى لو أن أمها ميتة كي تعيش دون نصائح . ومن الجدير بالذكر أن كل أشكال النصائح مرفوضة عند أبطال زكريا .

ويقاس على ذلك موقف سميرة من أمها التي تعاملها معاملة الخادم[٢] ، لذا فهي لاتحبها إلا من منطلق الواجب .

لم يغفل زكريا صورة الأم البسيطة المسالمة - على قلتها - التي تسهر على راحة أبنائها كما تقوم بدورها الطبيعي كأي أم حنونة ، منها أم أحمد في قصة " جوع " وأم عمر القاسم في قصة " يا أيها الكرز المنسي " .

وقد تضطر الأم إلى اللجوء إلى طرق الرذيلة كي تعود آخر النهار محمّلة بالمال اللازم لأبنائها - وغالباً ما يختفي دور الأب في هذه الأعمال - كما في قصة " ابتسم يا وجهها المتعب " وقصة " الابتسامة " .

وتكرر صورة الأم الساذجة الجاهلة المغلّفة بالحنان غير المقبول من قِبل الكاتب والذي يعتبره مأخذاً عليها ، فالأم في " رجل من دمشق " دائمة السؤال لابنها عن العمل شاكية له

---

(١) قرنفلة للإسفلت المتعب ، ص ١٠٥ .

(٢) البدوي ، ص ٢١٣ ، ٢٢٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الوضع المادي السيء والأعباء الكبيرة ، لكن ابنها المتسكع في الشوارع يقنعها بأنه دائم البحث عن عمل ويتعب لأجل ذلك إلا أنه لم يوفق بعد ، فتصدق الأم كلام ابنها المهمل وتتعاطف معه ، وتتكرر الصورة في قصة " ثلج آخر الليل " . وفي قصة " رحيل إلى البحر" لم تترقرق الدموع في عيني الأم عندما أخبرها ابنها أنه سيسافر بل اكتفت بالتساؤل إن كان سيرجع غنياً أم لا ؟ (لاحظ قسوة الحياة التي تتعرض لها الأم) .

إن هذه الصورة الساذجة الممزوجة بالجهل والحنان لم تأت عبثاً ، فالجوع قد استشرى في المجتمع حتى تغلب على العواطف ، وهذا ما كرره زكريا في معظم الصور التي سجلها للأم الخاضعة لظروف اجتماعية متأزمة ، واقتصادية صعبة ، وسياسية قمعية تتحكم في مسيرة تربيتها لأبنائها ، فأم الجريح الذي يرقد في المستشفى إثر إحدى المعارك في قصة " النابالم " جاءت تبحث عنه لكن عاطفتها الميتة لم تستطع أن تقودها إلى مكانه فهمّت بالخروج إلا أن صوته أيقظها من بعيد ، فما كان منها إلا أن أخذت في سرد أخبار العائلة فرداً فرداً وتتبعها بأخبار الجيران الاجتماعية دون الالتفات منها إلى وضع ابنها المناضل الجريح ودون السؤال عن حاله . يتضح من هذا الدور الذي أوكله زكريا للأم أنها الضحية ضحية الجهل والخوف ، والعادات البالية ، وضحية الرجل المتسلط وتمرد الأبناء ، والفقر ، والسياسة ؛ لذا كانت سلبية بمعنى الكلمة حتى في تعبيرها عن حبها لأبنائها . إنها الأم الرمز ، رمز الجذور التي ضلّت طريقها فتمزقت مع الريح ، كما أنها الأصل الذي تشوهت معالمه فزادت من عناء الفرد وضياعه .

٣ - صورة الزوجة :

تناول زكريا تامر حياة الأسرة في المجتمع الشعبي الكادح ، وصوّر لنا نماذج من الزواج التقليدي الذي يخلو من التفاهم أو الحب ، كما أظهر الطابع العام لنماذج الزيجات التي لا تقوم على الوفاء والإخلاص للزوج ، وذلك نتيجة نظرة الزوج لزوجته على أنها متعة جسدية وآلة للإنجاب فقط ، إضافة إلى أنها المستهلكة في حين أنه المنتج ، لذا عكس زكريا قسوة الزوج على الزوجة المسكينة . مساهمة منه في زيادة القمع الاجتماعي الذي يقع على المخلوقة الضعيفة .

فأم يوسف في قصة " البدوي " لم تحب زوجها في البداية لكنها كفّت عن التذمر مع طول المعاشرة . وغالباً ما تقع السيدة في مثل هذا الزواج ضحية ، في حين أنها لو خُيّرت لما اختارت هذا الزواج مثلاً . وفي قصة " موت الشعر الأسود " يقول زوج فطمة – التي زُوجت

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

دون رغبتها - « أنا رجل وأنت امرأة ، والمرأة يجب أن تطيع الرجل ، المرأة خُلقت لتكون خادمة للرجل ، فتجيب فطمة : « إنني أطيعك وأفعل كل ما تريد » فيصفعها قائلاً بنزق : « عندما أتكلم يجب أن تخرسي ، فتبكي وتمسح دموعها وهي تضحك .

أما عائشة في " العائلة " فيموت زوجها دون أن تولول عليه أو تحزن بل على العكس من ذلك تسارع في دفنه فيعود شبابها وتعود نضارتها رغم كبر سنها وهرمها ، لقد سارعت في دفن زوجها وذلك حتى تدفن معه كل القيود ، وتعود لها حريتها المفقودة المتمثلة بالنضارة والشباب رمز الحرية والانطلاق[١] .

وتنتحب لميا كذلك في قصة " السجن "[٢] على موت زوجها مصطفى الشامي ، وفي الليل تُلقي برأسها على الوسادة هادئة ووديعة ، مستسلمة للنوم ، كما أن الابتسامة لم تفارق وجهها . فماذا تقول تلك الابتسامة التي تظهر ليلاً أثناء خلوتها بنفسها ؟ إنها مسرورة بتحررها وانعتاقها من قيود زوجها ، لكن قيود المجتمع تنتظرها في النهار حيث يجب عليها أن تمارس دور الزوجة المخلصة المفجوعة على زوجها .

هذه هي الصورة التي رسمها زكريا للزوجة المتعبة التي لا علاقة بينها وبين زوجها سوى الأولاد خلا صورة نموذجية واحدة ، يظهر من خلالها فضل الزواج الذي تم برضى الطرفين وحبهما ، فسميرة في "سيرحل الدخان " تعيش مع أحمد الفقير ، فتجوع وتعرى إلا أنها تقنع بذلك وتسعد به لأنه الزواج الذي تم باختيارها دون أن يفرضه أحد عليها .

٣ - صورة الحبيبة :

من الأسئلة الصعبة التي تواجهنا في أعمال زكريا تامر السؤال عن مشاعر البطل " الفرد " الحقيقية ، ومدى صدقها وفاعليتها في الحياة .

إن أبطال زكريا لا يعرفون معنى الحب في حين أنهم دائمو البحث عنه ، إلا أنهم لا يلمسون جوهره السامي ، كما أنهم يمارسونه مع فتياتهم، بصورته المادية، المحسوسة، مرهوناً بالمتعة الجسدية في حين يكون هذا الحب صادقاً بريئاً من قِبل المرأة، وفيه بعض الروحانية ،

---

(١) العائلة (دمشق) ، ص ٢٧٠ .

(٢) السجن ، ص ٨ ، وانظر أيضاً امرأة وحيدة ، (دمشق) ، ص ٢٤٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كما تدافع عنه حتى الموت ، لكن ردة فعل البطل تجاه هذا الحب متباينة ، ففي قصة " الرجل الزنجي" تقع فتاة في حب البطل إلا أن أهلها يلزمونها بخطبة رجل آخر لكنها تبقى متمسكة بحبها لمن اختارته هي لا أهلها ، بينما يفكر البطل كيف سيمارس هذا الحب معها ، فتستسلم له بسهولة . وفي قصة " الصيف " تستسلم عطاف لماجد وتطلب منه الوفاء بالوعد والزواج إلا أنه يرفض ذلك ويتمنى لو أنها استسلمت له كدليل على حبها وليس ثمناً للزواج .

نلمس في مثل هذه النماذج الروح النرجسية التي تُغلف صورة بطل زكريا الذي يبحث عن شيء يسعده ، ولكنه لا يجد رغم كل المحاولات التي قد تسمى أحياناً بالحب أو التضحية . لذا لا نجدهم يتكلفون التفكير بهذه المرأة التي ضحت بكل ما تملك لأجل الحب السامي إلا أنها لا تفوز به .

وتتبلور رؤية البطل للحب في قصة " النهر ميت " عندما كانت جميلة تعود أم طارق المريضة كل يوم ، فتعلق قلبها بطارق دون أن تجرؤ على المبادرة ، في حين أن طارق اشتهى جسدها وكم تمناه مُلكاً بين يديه وعندما سألته : أتحبني ؟ أجاب بأنه يحب نجمة زرقاء لا يشتهي نوالها .

بذلك نرى أن أبطال زكريا لا يعتبرون ما ينالونه من علاقة جسدية حباً ، مع العلم أن العلاقة هذه تروق لهم في بادىء الأمر ، ويمنّون النفس بأسعد الأيام كما ينعتونه حباً ، ولكن بعد أن تنطفىء نار الشهوة يتخلون عن اللواتي أحببنهم بصدق وذلك لأن الحب شيء لا يودون نواله ، حتى يبقى محتفظاً بوهجه ودليل ذلك موقف يوسف في قصة " البدوي " إذ أحب سميرة ابنة صاحب البناية التي يسكن في قبوها كما بادلته سميرة الحب بحب جارف وتمنت أن تهرب معه على الرغم من الفارق الطبقي بينهما ، في حين تمنى يوسف أن ينال جسدها الذي طالما حلم به وفي ذلك تعبير مطلق عن انتقامه من الأغنياء [١] .

إن تدرّج الأحداث في أعمال زكريا يوصلنا دائماً إلى هذه النهاية وكأن الحب الذي يريد هو الحرية التي لا يملكها لذا لا يستطيع البطل الاحتفاظ بالحب لمدة طويلة .

---

(١) البدوي ص ١٩٥ ، وانظر أيضاً الليل (ربيع) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد ذكرنا سابقاً بأن ظاهرة الجوع في أعماله عامة وواضحة حتى إن المرأة إذا ما تعرضت لفاقة تسلك طرقاً غير مرضية كي تُسكت جوعها فعباس مثلاً يحب ابنة عمه ليلى وهي بدورها تحب أخاه الكبير وكم تمنى عباس أن يحظى بها حتى أنه بات يحلم بذبح أمه وأخيه كي يفوز بليلى ، وعندما جاع سرق رغيف خبز فتحرك الجوع بمعدة ليلى حتى توجهت إلى عباس مستسلمة له مقابل الرغيف ، لكنه ينادي الرجولة في دمه فيفشل ، عندها فقط يترك ليلى وقد بدأت تستمرىء طعم عباس ، ويهرب بالرغيف خارج البيت [١] . لقد تغلب الجوع المادي على نفسه فماتت رجولته وماتت ليلى بروحه ، كل ذلك مقابل رغيف الخبز الذي لا يضاهيه شيء في حياة أبطال زكريا . والعشق مقرون بالفعل الذي ينتهي بمجرد التفكير بإتيانه لذا لا شيء أقصر من عمر الحب عند أبطال زكريا الذين يلهثون بحثاً عنه وعندما يجدونه لا يلبثون أن يفقدوه .

ترى د. ناديا خوست أن الحب في عالم زكريا القصصي نوع من ممارسة الحرية ، ولقاء اختياري بين اثنين ، لذا تبدو الدنيا من خلاله رقيقة وجميلة . في حين أننا نرى بمحدودية الحالات التي اتسمت بالصدق المطلق كما في "سيرحل الدخان" ، و " النار والماء " ، وكيف لنا أن نعتبر الحب لقاءً اختيارياً بين اثنين ، ولم نرَ إلا أن المرأة تُقبل على عالم الرجل بصدق ومحبة في حين يقبل عليها متشهياً جسدها متوهجاً بضياء الجسد لمدة قصيرة جداً ينتهي بعدها كل شيء يربطه بالمرأة .

٤ - صورة المومس :

تناول زكريا موضوع المومس في أعماله كما تناول المرأة بعامة فظهرت المومس والمومس في أعماله امرأة منحرفة ، لا يتعاطف معها ، بل يعتبرها وسيلة للتنفيس التي يلجأ لها الفرد الممزق بين الحين والآخر ، وهي امرأة تسعى وراء المال من خلال هذه المهنة وذلك كي تتمكن من العيش في عالم فرض عليها ذلك، بسبب التباين الاقتصادي بين الفقير والغني، وعدم وجود المساواة بين الرجل والمرأة ، والاختلال في توزيع الجنسين جغرافياً . وكذلك تحول الناس في الحياة الصناعية إلى سلع جاهزة للتداول كلما اقتضى رأس المال ذلك [٢] .

---

(١) الرغيف اليابس ص ٧٨ .

(٢) خالد القشطيني ، الساقطة المتمردة ، شخصية البغي في الأدب التقدمي ، ط١ ، المؤسسة العربية للدراسات ١٩٨٠ ، ص ٥٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

دخل فرد زكريا عالم المومس في المواخير والشوارع ، فالبطل في قصة " رجل من دمشق " يفضل عاهرات الشوارع على عاهرات الماخور [١] لأسباب خاصة به. وسلمى مومس قديمة في قصة "موت الياسمين" لم تُعيّن في المدرسة إلا بعد أن ثبتت شهادتها بأنهاضاجعت ٩٢٧ رجلاً في سنة واحدة ، فعهد إليها بتدريس الصف الأول ، وكانت فرحة لأنها ستتعامل مع أطفال لم يعرفوا طعم المرارة والهزيمة إلا أنها تكتشف أن الأطفال قد فقدوا براءتهم وتحولوا إلى وحوش تريد أن تفترس جسدها الدافىء، إلى أن أخذوا يقرضون لحمها [٢] .

لقد حاول زكريا أن يرسم قذارة العالم على وجوه الأطفال ، فعمد إلى تشويه البراءة وقتلها في كثير من المواقف ، ففي قصة " القرصان " تكشف فتاة التسعة أعوام عن فخذيها حال رؤيتها القرصان وتطل من عينيها نظرة عاهرة عجوز ، فينزعج القرصان لذلك وينصحها بترك هذه الحركات والانطلاق في الحياة ببراءة قبل أن يفوتها ذلك .

ها هم الأطفال يتحولون إلى وحوش شرسة فيقرضون اللحم بطريقة وحشية وينبذون النصائح ويتمردون على كل مظاهر الحياة بسبب ما خلّفه لهم هذا العالم من متناقضات قاسية . أفقدتهم طعم الحياة الحقيقي الأصيل . كما هو حال الفتاة الصغيرة التي تمارس وأمها البغاء في قصة " الزهرة " إذ يتحلق خمسة رجال حول المرأة ، فتطلب أن تساعدها ابنتها لأن عددهم يتعبها فيتعجبون لذلك الطلب ؛ لأن الفتاة صغيرة إلا أن البنت تصرخ بحنق قائلة لأحدهم : «جرّبني وستجد أني أفضل من أمي ، وستدفع لي كثيراً » [٣] .

ذكرنا سابقاً أسباب انتشار البغي وتفلّت المجتمعات وقلنا إن الجوع أبرز سبب لهذا التفلّت القيمي فأميمة فتاة جميلة قتلها الجوع ، فتحولت إلى مومس تمارس الرذيلة ، ولا أحد من أهل الحي يعرف مكانها [٤] .

---

(١) رجل من دمشق (الخبز والكآبة) ص ٧٠ .

(٢) موت الياسمين ، دمشق ، ص ٦١ .

(٣) الزهرة ، (النمور) ، ص ٣٩ .

(٤) الأغنية الزرقاء الخشنة ، ص ١٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويصف زكريا تامر عالمهن الخاص قائلاً « ولا يخجلن وهنّ يتناولن النقود من يد رجل ما ، عالمهن حقيقي مكتظ ببشر أحياء خاضعين للنزوة ، والحماقة ، والشهوة ، والحقد ، والآهة المصطنعة . . والآهة المنسلّة من العظم »[١] .

لقد تعرض زكريا لنماذج من المومسات ممن وجدن طريق التوبة فسهلت عليهن وذلك عندما وجدن الرجل المناسب ، مثال ذلك ليلى في " رحيل إلى البحر " التي عرضت نفسها مقابل مبلغ من المال وقالت لحسن بأن الحب لا يكفي للحياة والحب ليس خبزاً ، لكنها استطاعت أن تملك قلب حسن الذي أحبها ، وارتبطا برباط الزوجية المقدس ، فوعدته بأنها لن تعود إلى مهنتها السابقة إلا أن المجتمع لم يرحمها إذ تعرض لها عدد من الرجال وعلى الرغم من مقاومتها إلا أنها سقطت تحت أجسادهم خجلة ، وفي الصباح تركها حسن وهجر المدينة كلها [٢] .

فعلى الرغم من أن المرأة ضحية مجتمع سلبي شرس إلا أن هذه النماذج لم تلقَ قبولاً أو محاولة للدفاع عنها من قِبل عالم زكريا فكما يرفض المجتمع المتسلط ، يرفض كذلك كل ما ينتجه هذا المجتمع لذا سيبقى بطل زكريا يحلم بعالم امرأة ليست من الأرض ، تعبّر في مشيتها عن غربته ، وتحس به دون أن يتكلم ، إنه يريدها لصقه لا تنفصل عن روحه ، يريدها سامية عن ظلم المجتمع مترفعة عن سلبياته . فلم تستطع الأم أن تقوم بدورها المثالي تجاه أبنائها ، وكذلك الزوجة المنقادة لآراء زوجها المتسلط والحبيبة التي لم تتجاوز دور العشيقة . والمومس تلك الصورة الجسدية البحتة التي ينبذها المجتمع بتقاليده وقيمه لكن رجاله يتهافتون عليها ويلهثون وراءها كنوع من التنفيس عن الرغبات المكبوتة .

إن عالم المرأة هذا مرفوض تماماً ، ولا يلقى صدى عند أبطال الكاتب ، وما زال البحث مستمراً لعله يعثر على عالمه بعد أن يعثر على نفسه ومعنى وجوده .

---

(١) البدوي ، ص ٢١٧ .

(٢) رحيل إلى البحر ، ص ٣١٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد كتب زكريا تامر عن المدينة العربية الأصيلة الملامح ذات الشرفات العالية والمآذن والساحات العامة - متأثراً بين الحين والآخر بعالم المدينة الغربي - كما خص بالذكر مدينة دمشق التي ولد في أحد أحيائها الفقيرة "حي البحصة "[١] ، وكان لهذا الحي الأثر البالغ على نفسية زكريا والتي انعكست بدورها على نفسية أبطاله فتنقل أبطاله بين حي وحي وكانت المدينة (دمشق) مسرح الأحداث الذي له وجهان حي الفقراء الشعبي وحي الأغنياء مقيماً بينهما المفارقات التي توحي كما لو كان يتحدث عن مدينة في مقابل ريف . وذلك نظراً لبساطة الحياة في حي الفقراء وتمسك أهله بالقيم والعادات والتقاليد في حين تفسخت العلاقات وضاع الفرد في زحمة حي الأغنياء . ونشب بداخله صراع حاد بين نمط الحياة المختلف في كل من الحيين .

وتفوح من مدينة زكريا رائحة دمشق وحاراتها وغوطتها وشمسها ورطوبتها ، وهي في حالة تمزق ناجم عن لحظات مأزومة حادة ، إنها دمشق بحقيقتها وكوابيسها وماضيها ، ولم يخف زكريا هذه الحقيقة التي ما لبث أن صرّح بأن مدينته المقصودة هي دمشق .

نستطيع أن نحدث تقسيماً - لغرض الدرس - في موقف بطل زكريا من المدينة فنرى أن المدينة عبارة عن المدينة الحاضر المدينة الكبيرة (المعقدة) التي تتضمن حياً للفقراء وحياً للأغنياء وثانياً المدينة الرمز ، وثالثاً المدينة الماضي ، ورابعاً المدينة الرؤيا .

يقول أحد أبطال زكريا الذين نبتوا في شرايين المدينة والتي أورثتهم للتشرد والضياع « وعدت إلى المسير .. آه يا مدينتي .. لقد ولدت في يوم ما على أرصفتك ، وسأظل حتى الموت مغلولاً إليها .. »[٢] .

لقد حددت نشأة المدن من وجهة نظر الفرد عند زكريا فقال : « وكان النهر في القديم وحيدا تتدفق مياهه عبر أرض مقفرة ولقد ظلت الأرض مقفرة والنهر وحيداً حتى أقبل إنسان ما ، وجثا ، وقبّل التراب بخشوع ، وعند ئذٍ نبتت البيوت والدكاكين والمآذن والمقابر »[٣] .

---

(١) محمد الماغوط - النمور في اليوم العاشر ، صفحة الغلاف .

(٢) رجل من دمشق (التشاؤب) ، ص ٧٥ .

(٣) النهر ، ص ٦٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إنها نشأة المدينة المفعمة بالحيوية والصدق مع أنه لم يحدد هوية الإنسان الذي أحياها بل تعمد أن يبقيه نكرة لأنه لا أهمية إلا للإنسانية المجردة ، والصدق المطلق . وماذا بعد هذه النشأة الصافية ؟ إنها المدينة الكبيرة المليئة بأناس لايعرفون بعضهم بعضاً ولا يربطهم ببعضهم البعض سوى الآلة والمادة كما أن الإحساس بالزمن معدوم .

صورة المدينة الكبيرة (المعقدة)

إن الصورة التي يرسمها للمدينة الكبيرة ذات الشوارع العريضة ، صورة دموية بشعة لا تعدو أن تكون مستنقعاً للآفات والسجون والملاهي ، يقول : « نهر المخلوقات البشرية تسكع طويلاً في الشوارع العريضة المغمورة بشمس نضرة حيث المباني الحجرية تزهو بسكانها المصنوعين من قطن أبيض ... وتعرج النهر عبر الأزقة الضيقة وبين المنازل الطينية .. المكتظة بالوجوه الصفراء والأيدي الخشنة وهناك امتزجت مياهه بالدم والدموع ، وبصديد جراح أبدية ، وعثر النهر في ختام رحلته على نقاط مبعثرة بمهارة مختبئة في قاع المدينة » (١) .

إن موقفه من المدينة – المشوب بمسحة تأثرية غربية (عصر الآلة) – موقف النفور والنقمة ، إلا أنه يدرك أنه جزء لا يتجزأ منها ، وأن إنكاره له لن يلغيها فهي تتسم بالبشاعة وهي قاتلة ، وظالمة ، وساحقة للإنسانية فالمدينة منفّرة ، ويضيع فيها كل معنى للحياة البشرية لأن المادة والآلة تحكمانها . وتتعامل مع الأشياء على أساس أن كل شيء له ثمن .

إنها مدينة مستسلمة بفتور لضياء الشمس الآفلة ومعلقة بين الواقع والخيال « باع الشنفرى سيفه قبل سنين ، دون أن يلطخ سيفه بدماء رجل وعاش بعدئذٍ في مدينة تفترسها شمس من نار » (٢) .

ومن أهم أسباب نفوره من المدينة أنها كبيرة ضخمة ، يخشى الضياع فيها عبر الشوارع العريضة ، ويخشى أن يقع فريسة الغربة التي حولت البشر إلى آلات صماء . « ورواد هذا المقهى عمال يشتغلون في المصانع القريبة ، وفلاحون وبائعون متجولون ، وسائقو سيارات ، وتراكتورات ، وحمالون وأناس بلا عمل – مثلي – يجلسون جميعاً باسترخاء ، يحتسون الشاي على مهل ويثرثرون دون أن يكون بينهم أي معرفة سابقة » (٣) .

---

(١) الأغنية الزرقاء الخشنة ، ص ٩ .

(٢) الشنفرى ، ص ١٧٣ .

(٣) الأغنية الزرقاء الخشنة ، ص ٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فكبر حجم المدينة أدى إلى ضياع الناس فيها ، فلا أحد يعرف الآخر ، ولا يوجد للإنسان فيها صديق يلجأ إليه وقت الشدة ، كما أن إحساس الفرد بالوحدة قاتل ، فصورة هذه المدينة في ذهن ساكنها الذي بات غريباً عنها صورة بشعة ، إذ يتخبط في خطاه لا يعلم أين يذهب ولا يعلم ماذا يريد المهم أنه يحس بمأساة الغربة، وقسوة الحياة كما يشعر أنه منبوذ في هذا المجتمع . وتتعامل هذه المدينة التي لا تعرف العواطف مع الإنسان على أنه كتلة أو شيء لامعنى لوجوده إلا من خلال العمل الآلي الذي يقدمه « شارع فؤاد الأول يتمطى سعيداً تحت ضياء شمس الربيع وثمة ناس كثيرون منتشرون على أرصفته ، والسماء فوقي رحبه ، وديعة زرقاء ، وأنين عربات الترام وهدير محركات السيارات يمتزجان معاً في صوت واحد يجعلني أحس بغربة بلهاء » [(١)] . وفي موضع آخر يقول: « ويصفني صالون الحلاق بعد قليل إلى الشارع ، وعادت السيكارة إلى الاحتراق ، السيكارة صديقتي وهي تظل على الدوام معلقة بين شفتي ، بينما أنا أسير حاملاً تعاستي وهرم أعماقي على وجهي الشاحب » [(٢)] .

إنها موحشة حدَّ الفزع ، فتقتل كل من قام إليها بهدوء ، دون أن تذرف نقطة دمع واحدة . « وسار مأمون في شارع جديد، وإذا بحشد من الناس متحلقين حول ترام، فشاهد صبياً ممدداً على السكة الحديدية وقد بترت عجلات الترام ساقيه ، وكان لون الدم أحمر امتزج بعويل الصبي الفاجع .. ، وبكى مأمون بصوت عال ، ودفع الناس الذين كانوا يصخبون فيما حوله ... ما بك يا ولد ؟

- أريد ماما .
- أين أمك ؟
- في البيت .
- أين بيتكم ؟
- وحاول مأمون أن يجيب لكن صوته اختنق » [(٣)] .

في هذا البحث عن الأم الممزوج بالحنين لها ، دليل على عمق النفور من المدينة ، ومحاولة البحث عن منبع الحنان، هذه المحاولة غالباً ماتبدأ بالحنين إلى صورة نقية

---

(١) رجل من دمشق ، ص ٦٩ .

(٢) رجل من دمشق ، ص ٧١ .

(٣) الوجه الأول ، (ربيع) ، ص ٥٧-٥٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كالريف مثلاً أو الأم ، أو الحنين إلى الماضي ، أو العودة إلى الطبيعة ، أو ربما خلق مدن جديدة ذات سمات مفقودة في الواقع. من سيتعرف على هذا الصبي؟ لا أحد يعرفه في خضم المدينة المكتظة سوى نفسه ، وهذه المعاناة (الضياع) هي من أبرز ألوان المعاناة في حياة ساكن المدن .

لقد باتت الحياة بالنسبة لساكن المدينة مملة معروفة البداية والنهاية ، لذا لا يجد ساكنها معنى لها « وأفاق القرصان في الصباح ، وقعد في ردهة الفندق ، وكان ثمة أناس حوله غرباء كلهم أتوا من مدن وقرى نائية، وتساءل لماذا أتوا إلى هنا؟ سيموت الرجل الهرم، ستتزوج الصبية ستنجب أطفالاً ... سيكبر الطفل ، وسيتعرف إلى الكلمات ، والله والمدن ، وستعانقه الأفراح والأحزان ، وسيبحث عن الفرح وحده ولن يجده »[١] .

في هذا البحث المستمر عن معنى الوجود لا يستطيع الفرد إلا أن يرهب المدينة الكبيرة التي لا تزيد وجوده إلا ضلالاً . يقول د. إحسان عباس : «هي حقاً غربة من يبحث عن حرارة المشاعر في القلوب – كما كان يحسها في الريف – فلا يجدها ، وليس في المدينة صاحب وإنما الوجوه والمودات فيها بلون الطريق .. طريق مقفر شاحب، كأن كل المدينة لشدة الاغتراب والعزلة بين الواحد والآخر غريب صامت ، يضن بالتحية على من يمرّ به من الناس »[٢] .

وتتكون مدينة زكريا – كما أسلفنا سابقاً – من أحياء عدة أبرزها حي الفقراء ، وحي الأغنياء وكلاهما يقبع في قعر مدينة مهشمة الملامح إلا أن تصويره لحي الفقراء يأتي مشوباً بلمسة رقيقة مناسبة فيها نوع من الحنان المفقود ، وغالباً ما يصور كلا الحيين معاً ، فيعقد مقارنة بينهما حتى يستدر عواطفنا تجاه حياة حي الفقراء في حين نتوجه بالنقمة والسخط على حي الأغنياء . « وكان الليل بأقدامه الزجاجية السوداء يتجول في الشوارع حيث الإعلانات الكهربائية تضيء ، ثم تنطفئ ، فنادق دور سينما ... مكتبات .. مقاه .. مطاعم .. سيارات ... ومضى يوسف يسير مبتعداً عن صخب المدينة والأبنية المضادة وتغلغل شيئاً فشيئاً في عالم الأزقة الضيقة ، الأزقة طويلة، تنتصب على جانبيها بيوت من

---

(١) القرصان ، ص ٨٨ .

(٢) اتجاهات الشعر العربي المعاصر ، ص ٩٧-٩٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تراب متقاربة متآلفة ، وتسرب إلى أعماقه حنان مباغت» [١] .ويقول في موضع آخر « وكان بانتظاره الإسفلت الرمادي والشمس ، وأبواق السيارات ، والرجال والنساء المتحركة أقدامهم بإيقاع حائر بين السير البطيء والسير السريع وواجهات المحال الزجاجية ، وصفارات الشرطي الزاعقة، وصيحات بائعي الصحف واليانصيب. دخل يوسف إلى أحد المطاعم ، وأكل بشراهة ثم عاد إلى الشوارع يمشي دون هدف وأحس أنه وحيد على الرغم من الضوضاء والناس ، ثم قادته قدماه إلى الأزقة ، وأحس وهو يمشي بين البيوت الطينية أنه يستنشق بعد مرض طويل هواء حقيقياً ممتزجاً بضياء الشمس ، وبدا له الأمس ، مجرد حلم أسود بدده الصباح » [٢] .

إن أبطال زكريا هم من أبناء الحي الفقير الذين خرجوا على أمل الفوز بحياة أفضل في حي المدينة الكبيرة (المركز) وقد تتبعنا كيف أن أبطاله يعودون إلى الأزقة الضيقة بعد طول معاناة وضياع وأنهم يرون في العودة مشفى حقيقياً .

ولكن لنتتبع الحالة النفسية لأولئك الفارين من رطوبة الأزقة الضيقة عندما يخرجون من الحي الشعبي متوجهين حيث الأضواء لاعتقادهم أنه الملاذ والأمل ؟ إنهم يبتعدون عن الحي الشعبي ابتعاد السليم عن الداء المعدي ولكن ماذا يجدون ؟؟. « غادر [فواز] البيت بخطا مسرعة ، وعندما أصبح في الحارة ، وقف برهة ، وتلفت فيما حوله ، فبدت لعينيه البيوت الترابية المتلاصقة بقايا هيكل عظمي لحيوان قديم ، فاستأنف السير مشدود القامة سريع الخطا .. قاصداً الشوارع العريضة » [٣] . و « يجيء الليل كفناً أسود فيبتعد أبو حسن بخطى هارب عن حارته الخرساء ، وأزقتها الملتوية المظلمة ، وناسها العجاف ، وبيوتها الرثة المتلاصقة ، وحين يبلغ الشوارع العريضة ، تبهره ضوضاؤها وسياراتها المسرعة ، فيمشي بخطى ذاهلة متباطئة ، مرفوع الرأس شديد الزهو بشاربيه ... » [٤] .

إن الإنسان الذي يطمع بمكان غير مكان إقامته - مجبراً كان أم مختاراً - ضائع لامحالة يسير في متاهات المدينة الكبيرة وليس هذا فحسب بل يتعرض لما يهين كرامته ويحقره، كما حصل مع أبي حسن الذي فقد شاربيه (رمز الرجولة) وتحول إلى مخلوق آخر بين

---

(١) البدوي ، ص ٢٣٩-٢٤٠ .

(٢) نفسه ، ص ٢٥٠-٢٥١ .

(٣) النار والماء ، ص ٢٥٥ .

(٤) في ليلة من الليالي ، ص ٣٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يدي رجال الشرطة ، وهذا ما نلمسه أيضاً في قصة « النمور في اليوم العاشر » التي تحكي قصة نمر عاش سيداً في الغابات (الموطن) يأكل اللحوم، ويختال بقوة ، لكنه عندما صار في القفص تحول إلى حيوان أضعف (بسبب الترويض) وصار يستمرئ الحشائش بدل اللحم .

هذه هي المدينة القبيحة والتي تبهر زائريها بالأضواء ولكن سرعان ما تكشر عن أنيابها أمامهم فتنهشهم ليعودوا مضرجين بدماء وحدتهم وتمزقهم .

إن معاناة الفرد في أعمال زكريا تقف إلى جانب معاناة الأديب على المستوى الفكري، وتجربته في الحياة بشكلها البشع الذي يحول كل قادم إلى حي الأغنياء يحوله إلى عبد مأمور وآلة مطيعة وإلى مخلوقات أخرى غير البشر. «ليتني قطيع من المدى المتوحشة المنغرسة في قلب مدينة لا تعطي أولادها سوى الجوع والتشرد والكآبة ... أنا عدو المدينة المجهول ، وإني أذرع طرقاتها كضبع جائع بينما ترقد في جيبي سكين عتيقة ... اشتريتها في يوم من الأيام ... فقد كان من الممكن أن تنقض السكين في أية لحظة غضب على كتل اللحم المتحركة عبر خواء المدينة ، وتستحم في الدم الأحمر ... ما أجمله ... » [١] .

لقد أصبح الإنسان المشوه سادياً، يتلذذ برؤية الدماء المراقة، ويتشهى رؤية الناس وهم يتعذبون ، لعلّ ذلك يخفف - قليلاً - من حنقه على العالم، فيضفي على البشر بعضاً من نار عالمه الداخلي الذي يحرقه ويمزقه شيئاً فشيئاً . إنها مدينة تنعدم فيها صور البراءة والمحبة « إنه قابع في داخلي .. إنه طيب بريء كطفل ولد بعيداً عن المدن» [٢]. ويتعاظم الإحساس بالضآلة عندما يسكن الفرد الممزق المدينة الكبيرة .

لقد عبر زكريا عن عناصر مدينة أبطاله بالمقهى والشارع فيقول : « مدينتي صليبها مقهى وشارع » [٣] فغالباً ما يجوب أبطاله الشوارع العريضة يتسكعون في الطرقات سكارى ، حتى إن الشارع ليحتل قسماً كبيراً من أحداث القصص وذلك لأن معظم الأحداث القصصية والمغامرات تتم عبر جنباته ، كما أن المقهى هو المحطة الثانية التي يأوي إليها سكارى الشارع ومشردوه .

---

(١) الأغنية الزرقاء الخشنة ، ص ١٢-١٣ .

(٢) الرجل الزنجي ، ص ١٧ .

(٣) قرنفلة للإسفلت المتعب ، ص ١١٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

صورة المدينة - الرمز :

يجرد زكريا تامر مدينته - أحياناً - من قالبها البشع وتقنيتها القاتلة ، ليشبهها بوجه امرأة ناضجة ، عذبة رقيقة . « وكان فم المرأة عنباً فجاً أحمر ، ولنهديها رائحة نبات بري » [١] ، فالمدن في أصلها ونقائها وبراءة نشأتها تشبه امرأة عفيفة طاهرة .

إنه التوحد بين طهر المرأة ونقائها ، وطهر المدينة ونقائها عندما لا تشوبها شائبة ، حتى أننا لا نستطيع التفريق بين الإثنتين ولا يترك زكريا فرصة تمكنه من ذكر مدينته المفقودة التي طالما كانت تشبه امرأة جميلة وصوتها عذب « وكان ثمة امرأة تغني .. صوتها مدينة خضراء تسافر عبر شمس ناعمة الضوء .. وعصافير تبحث عن ربيع لايرحل ... » [٢] . وعلى لسان بطله الممزق المشرد في الشوارع الذي يقابل في طريقه عدداً من الفتيات فتبتسم له واحدة منهن ابتسامة حانية تضيء وجهها الوديع ، عندها يشعر بالحسرة والأسى ويقول: «أواه أيتها الفتاة الطيبة ... إني لا أستحق ابتسامتك ، فلو تمهلت في سيرك ربما دنوت منك وقلت : سأكون إنساناً طيباً لو كانت مدينتي مثلك » [٣] .

ويقول أيضاً : « لقد أحببت إحدى الفتيات في يوم ما .. أحببتها بقوة مثلما أحب الخبز والشوارع . لكن الحب لم يمنحني سوى الكآبة .. كذلك منحني نظرة جديدة إلى المدينة التي أعيش فيها ، فأصبحت أجدها سخيفة قاسية » [٤] .

إنها قسوة المدينة التي يصعب العيش فيها بجو يورث الفرح ، إنها مسكونة بأرواح سيئة تطاردكل المحبين ، وتغتصب الفتيات البريئات فتتحول فكرة الحب إلى كابوس مدمر ، « وتابعت سيري في تلك اللحظات كانت المدينة مومساً عجوزاً ذات وجه شاحب متعب لايعرف الابتسام » [٥] .

---

(١) أقبل اليوم السابع ، دمشق ، ص ٤٠ .

(٢) قرنفلة للإسفلت المتعب ، ص ١٠٤ .

(٣) رجل من دمشق ، ص ٧٦ .

(٤) نفسها ، ص ٧٢-٧٣ .

(٥) ابتسم يا وجهها المتعب ، ص ٥١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إن تصور الشاعر الحديث للمدينة في صورة امرأة ثم في صورة امرأة متعهرة يكاد يكون قسطاً مشتركاً بين عدد كبير من الأدباء » [١] هذا ما يراه الدكتور إحسان عباس مقاساً على الشعر ويعلل استعمال هذه القرينة (المرأة – المدينة) بأن المدينة في اللغة مؤنثة وفي معظم الأحيان كانت حركة التاريخ ضد المدن فتحاً واجتياحاً واغتصاباً لها ولنسائها ولمواردها ، وهي ما تزال كذلك حتى يومنا هذا فلا يجد الأدباء بداً من ربط هذين النموذجين بعضهما ببعض للتعبير عن مأساة الإنسان العربي المغتصب .

المدينة الماضي :

تناول زكريا المدينة في الماضي كما تناولها في الحاضر؛ وذلك في محاولة لإيجاد صورة حقيقية مضيئة ترضي طبيعة أبطاله ونفسيتهم لكنه عبثاً يحاول نبش الماضي لأنه لم يعثر على مدينته كما لم يعثر عليها في الحاضر « وكان هناك باب كبير من أبواب المدينة ، باب قديم كان يغلق فيما مضى من الليالي ليحمي المدينة من أعدائها » [٢] ، « وكان الباب فيما مضى قسماً من سور حجري شاهق ، يطوق منازل المدينة ويحميها من الأعداء ، ولقد فتح الباب مرات عديدة، والآن لم يبق سوى أطلال مبعثرة، وظل الباب مفتوحاً » [٣] .

فمن أهم سمات المدن القديمة : الحصانة إذ تملك المدن الصغيرة سوراً عظيماً يحميها من الأعداء ، وذلك لوعي أهلها وإدراكهم مدى شدّة الخطر الخارجي وقسوته ، لكننا اليوم لم نعد نرى ذلك لذا سهل على الأعداء اغتصاب المدن وتشويه صفائها .

« وكان ثمة مدينة صغيرة بلا أسوار ، أهلها يؤمنون بأن الله موجود في كل مكان ... وكان أهل المدينة مغرمين بالتراجيل ... ولم تجد جيوش جنكيز خان صعوبة كبرى في اقتحام المدينة ... واستعاد أهل المدينة حبهم للتراجيل والدربكة ، والحديث عن الله الموجود في كل مكان » [٤] .

---

(١) اتجاهات الشعر العربي المعاصر ، ص ٩١ .

(٢) الباب القديم ، (ربيع) ، ص ٢٣ .

(٣) نفسها ، ص ٢٥ .

(٤) جنكيز خان ، (ربيع) ، ص ١٠٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تمتاز مدينة الماضي أيضاً بصغر الحجم الذي يوحي بالبساطة ويخلو من التعقيد العصري الذي ينبذه أهل المدن . وهي مدينة تثير الذكريات البريئة المغلفة بجمال الطبيعة ، وبساطة الناس « كان في قديم الزمان ، مدينة صغيرة بنيت وسط حقول فسيحة خضراء يرويها نهر سخي المياه. وكان ناسها جميعاً يحملون في جيوبهم قطعاً من الورق السميك كتب على كل منها اسم من الأسماء ... » [١] .

لقد صرح زكريا باسم مدينته الصغيرة إنها دمشق الوديعة المنيعة التي انهارت أمام الأعداء « حكي عن دمشق أنهاكانت في قديم الزمان سيفاً أرغم على العيش سجيناً في غمده ، وكانت طفلة تثقل الأصفاد خطوتها . وكان ياسمينها ينبت خفية في المقابر مرتدياً أكثر الثياب حلكة ، فلما علم أعداؤها بأحوالها سارت إليها جيوشهم ، وبنت حول أسوارها سوراً من قتلة ، لا يعرفون النوم فعم دمشق الذعر والارتباك والسخط ، وتراكض أهلها وتحلقوا حول قصر ملكهم صراخاً مضطرباً مستغيثاً .. » [٢] .

فما زال الظلم يحدق بدمشق النائمة الرازحة تحت حكم مستبد وما زالت صورة الماضي الجريح تنزف حتى هذا اليوم « أقبلت الاستغاثة ليلاً إلى دمشق النائمة طفلة مقطوعة الرأس واليدين ، وتراباً يحترق ، وطيوراً تودع أجنحتها السماء ، غير أن أهل دمشق كانوا نياماً ، فلم يسمع الاستغاثة سوى تمثال من نحاس لرجل يشهر سيفاً ... » وفي نهاية القصة يقول : « وأغمض يوسف العظمة عينيه ، وأحس بأن شرايينه تمتلك آلاف الأجنحة التواقة إلى فضاء رحب ، فأطلق استغاثة ، التقت بالاستغاثة الآتية من أرض يحتلها الأعداء ، وامتزجتا في صراخ مديد تبدد في ظلمة الليل المهيمن على دمشق النائمة » [٣] . وما زالت حتى الحاضر نائمة لا تسمع الاستغاثة التي تهز عظام الأجداد .

إن الاتكاء على نماذج بطولية من التاريخ وقمعها والاعتماد على تشويه لصورة الطفولة المقطوعة الرأس وخلاف ذلك من صور دموية شرسة لتعكس بشاعة الوضع كل ذلك نتيجة بركان من الآهات المحترقة داخل إنسان فتّته التشرد. فالزمان بماضيه وحاضره غير

---

(١) ربيع في الرماد ، ص ٧٥ .

(٢) التراب لنا وللطيور السماء ، ص ٥٣ .

(٣) الإستغاثة ، دمشق ، ص ١٤١ ، ١٥١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قادر على خلق أمن وطمأنينة لمدينة مسالمة ، إنها المدينة التي ضاعت عبر التاريخ سلباً واغتصاباً ، واليوم يشتد ضياعها أكثر فتجعل متنفسها تعذيب ساكنيها وتجريدهم من إنسانيتهم ، وذلك حتى يستمر الغيثان بين دوائر الحلقة المفرغة (الزمان – والمكان) .

يحلّق عباس في السماء ، ناظراً إلى مدينته الصغيرة في الأسفل فرأى مدينته التي ولد فيها صغيرة تتحلق حولها حقول خضراء ، فغمره حنان جارف ، فانحدر نحو مدينته بلهفة ، وحلّق فوق بيوتها ، يرتجف في شرايينه حب عميق ، ورغبة في بكاء حار ، وبغتة دوّى طلق ناري منبثقاً من المدينة ، واخترق رأس عباس الذي شهق برعب ودهشة ، ثم هوى إلى أسفل »[١] .

بذلك تبقى مشاعر الحب والحنين تغمر أفراد زكريا نحو مدينتهم رغم قسوتها عليهم إلا أن هذه المحبة لا تجد طريقها، فتموت حيثما نشأت، وتذبل كل الورود قبل أن ترى النور.

المدينة الرؤيا :

لم ينجح البطل في استدرار الأمن والسلامة من المدينة الماضي ولم تسعفه الذكريات كي يستعيد ثقته بنفسه، لذا لم يجد مناصاً من البحث عن البديل إنها المدينة الجديدة (الرؤيا) ، سيبدأ بطل زكريا في محاولة إصلاح الحاضر فهل يستطيع ؟ سيهدم المعامل التي قتلت إنسانيته وحولته إلى جزء من الآلة ، وسيتسلق قمة الجبل لعل الجبل يزيل الغشاوة عن حقيقة المدينة الزائفة أو ربما يجد مدينة أفضل (المدينة الفاضلة) ، وربما في صعوده لقمة الجبل تعبير عن استعلائه على مدينته تلك وسحقه لها تحت قدميه .

سيصنع مدينة ، سيرسمها في خياله ويسافر عبرها ، سيرحل وسيضنيه البحث عن مدينة جديدة تحمل رؤاه وتعبر عن وجوده ... لكنه في النهاية سيعود ؟! « ليعيش البشر ببراءة ، تنقذ مدينتي من تعاسة متوحشة »[٢] .

---

(١) الطائر ، ص ٣٥٨ .

(٢) الأغنية الزرقاء ، ص ١٤ .

(٣) ابتسم يا وجهها المتعب ، ص ٤٤-٤٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويزداد الشعور بضرورة رفض واقع المدينة الذي يعمق غربته في وطنه ، سيبحث عن الحل أينما كان، « لقد أضاع بدوي خيمته ، وها هو الآن في مدينة جاثمة تحت أقدام جبل . يوسف يتسلق الجبل سيصعد الجبل حتى قمته »[١] كما « عاش محمد أعواماً مديدة في مدينة صغيرة تقبع بذل عند أقدام جبل شاهق ... وكانت سماء المدينة سوداء لا تملك قمراً وشمساً ونجوماً ... وأخذ محمد يتجول في جنبات الغرفة ... وتخيل فجأة جبل مدينته الشامخ ، محمد سيتسلقه ... سيبلغ ذروته التي لم تطأها قدم إنسان ... سيستنشق هواء القمة .. وستكون مدينته مستسلمة لنظرته المفترسة ... ستكون عندئذٍ كدمية مهشمة »[٢] .

إنه يحلم بأن يحقق تغييراً ما، ربما يحمل سعادته « سأحول المدينة إلى قرية كبيرة محاطة من كل جانب بحقول خضراء ممتدة إلى مالانهاية وسيكون لهذه القرية مساحة فسيحة جداً ، سيجتمع فيها كل مساء جميع السكان ... وسيشعر أصحابها أثناء الغناء بأنهم أخوة .. وبأن الحياة مليئة بالمسرات المختبئة ... سيتحولون إلى أطفال كبار يعيشون بسعادة وسلام »[٣] .

لكن هذه الصورة ليست نهائية مطلقة ، بل تتعدد الرؤى ، وتمتزج مشاعر النقمة بالحب ، وذلك تبعاً لانعكاسات نفسية الشخصيات ومدى تعرضها للعامل سلباً وإيجاباً ، وغالباً ما يعكس الحلم مشاعر البطل في لحظة مأزومة ، ويمكن القول بأن هذه الرؤية تحاكي رؤية الرومانسيين للعالم الجميل المسالم ، فيبتعدون عن الضوضاء والصخب ويحلمون بقرية مليئة بالخضرة ، وغالباً ما يتمنون الانفراد بهذا العالم الجميل والبعد عن البشر « كنت أحلم بأن أغدو ملكاً .. وأنا ما زلت أتمنى بأن أصبح ملكاً في مدينة ناسها من حجر »[٤] .

ولكن ماعادت الأحلام والرؤى الرومانسية بقادرة على تغيير المدينة ، تغييراً يحقق سعادة الإنسان الذي يعاني من صراعات قاتلة مدمرة لذا سيتقدم في أحلامه نحو الرفض ، سيحلم بالرحيل لعله يكون المعادل الحقيقي لسعادة الإنسان، «وتنهدت بارتياح ثم أغمضت عيني ، وعدت أحلم بالرحيل إلى مدينة شنقت الجوع والكآبة والضجر ... »[٥] .

---

(١) البدوي ، ص ٢٤٣ .

(٢) حقل البنفسج ، ص ٢٧١ .

(٣) الأغنية الزرقاء ، ص ١٤ .

(٤) الأغنية الزرقاء ، ص ١٢ .

(٥) رجل من دمشق (التشاؤب) ص ٦٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي محاولته لإيجاد معنى لوجوده ، يلجأ إلى الرحيل لعله يعثر على مدينة تعطي معنى لوجوده « آه ما أجمل الحياة هناك في تلك المدينة .. سأرحل في يوم لابد من مقدمه ، وسأترك خلفي مدينتي المكتظة بالجيف المتحركة »[١] ويقول في موضع آخر « ولكنني سأكون سعيداً لأني سأشاهد وجوهاً ومدناً جديدة ... ربما عثرت أثناء طوافي على مدينتي التي أحلم دوماً بإمكان وجودها ، مدينة من نوع جديد ، غريب ، شنقت الجوع والكآبة والضجر .. لاتاريخ لها .. أيامها تمر بلا أسماء ، والسماء ، والقمر والربيع ، والنهار ... كل هذه العناصر طليقة حرّة ... »[٢] .

من خلال هذه النماذج يتضح لنا كم يرنو بطل زكريا إلى الحرية المطلقة والحياة الخالية من كل زيف . غير المرهونة بزمان محدد ولا هوية واضحة ، فعلى الإنسان أن يسعد بحياته كإنسان بعيداً عن الزيف والقمع ، والتسلط ، لذا نادته الحرية المطلقة وناداه الأفق وها هو يتقدم للرحيل « غير أن البراري الخضراء التي لان أفق لها كانت تناديني بشوق ، تنادي الرجل المتعب وجواده »[٣] .

لقد ناداه الأفق منذ المجموعة الأولى ، فالبطل واحد في مختلف المجموعات ولو اختلفت المسميات . وغادر البيت « وغادر البيت وتحول إلى متشرد يذرع الأرض .. وفي اليوم السابع بلغ مدينة حجرية المباني، وكان ناسها جميعاً من خشب ... ونعب الغراب وتجول الرجل حزيناً في طرقات المدينة الصامتة، بينما كان الغراب يتبعه بإصرار .. »[٤] وتمكن بعد ذلك من إنقاذ هذه المدينة من الساحرة الشريرة التي حولت كل ما فيها إلى خشب ولكن لم يأبه له أحد، ولم تمتد يد لمصافحته ، وافترسته وحشة شرسة فغادر المدينة حزيناً ، فكل المدن مثل مدينته ، جامدة ناكرة للجميل لكن سيكمل المشوار لعله يجد مدينته الأمل «لن أموت سأمشي وحيداً في المدن المقفرة ... وقصدت المدينة الكبيرة ، وأنا متلهف لرؤيتها وقد وجدتها ذات شوارع عريضة ... أحسست وأنا أرمقها بضآلة عجيبة »[٥] .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٦٨ .

(٢) نفسها ص ٦٦-٦٧ .

(٣) صهيل الجواد ، ص ٤٣ .

(٤) أقبل اليوم السابع ، ص٤١ .

(٥) رحيل إلى البحر ص ٣٢١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وما زال بطل زكريا يفتش عن مدينته (نفسه المفقودة) إنه يفتش عن أجنحته التي سرقتها المدن ولن يعيدها أحد سوى البحر "الأمل" . إلا أنه بدأ يشعر بحقيقة نفسه الممزقة « فصدمتني في البدء نظرة عيني الباردة المظلمة ، ولكني سرعان ما شعرت بأنها منبثقة من صميمي .. أنا النظرة الباردة المظلمة ، البحر بعيد .. وأنا متعب . سأعود إلى البيت »[١] .

لقد أضناه البحث عن المدينة الفاضلة (البحر) فانبثقت النظرة الباردة من داخله ، لذا لن يكمل مسيرة الترحال والبحث المضني ويكفيه أنه اكتشف حقيقة كل المدن ، فعاد أدراجه ...

« ها هي مدينتي متسولة نائمة ... وقد التقيت برجل مذعور أنبأني بأن مدينتي غزاها رجال غرباء قساة ، ونصحني بالابتعاد عنها ، ولكن حنيني إليها كان أقوى من أي رعب ... وها هي مدينتي المتسولة النائمة ، ميت ربيع حقولها الأخضر .. »[٢] .

إن عودة المتشرد إلى مدينته المغتصبة بعد طول غياب بحثاً عن الأمل جعله يكتشف حبه وصدق حبه لمدينته ، وربما أنه لو لم يهجر مدينته لما استطاع الأعداء اقتحامها . ورغم أحلامه الوردية بقرية كبيرة إلا أنه ابن المدينة الكبيرة والتي ولد فيها ، وسيظل مشدوداً إليها حتى الموت ، لأنها قدره الذي لا يستطيع مقاومته ، كما أنها رمز الاستسلام وعدم الرغبة في إحداث التغيير . فالشعور بالضياع والغربة أمر يلازم البطل حتى يفقده إنسانيته ووجوده ويتيه في خضم هذه الحياة . يمارس ألوان القمع على الأبناء والمرأة والحيوانات بروح سادية شرسة .

---

(١) نفسها ، ص ٣٣٦ .

(٢) نفسها ، ص ٣٤٠ .

(٣) رجل من دمشق ، ص ٧٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الموقف من التراث :

التراث هو ماضي الثقافة الإنسانية ، سواء أكان على صعيد الفن ، أو الأدب ، أو الفلسفة ، أم على الصعيد الاجتماعي المتمثل بالعادات والتقاليد ، والتراث بمعنى أشمل : هو التركة الفكرية ، والروحية التي يتناقلها جيل عن جيل [١] .

ويعد التراث مصدراً أساسياً من مصادر الإبداع والنشاط الفكري في الحياة الإنسانية ، كما لا يتحقق وجود أمة من الأمم دون أن تتواصل مع تراثها ، إما محاورة ، أو مجابهة ، أو حتى ثورة عليه [٢] .

وقد استعان الأدباء العرب بالتراث الإنساني بعامة والعربي بخاصة وتمسكوا به في أثناء وقوع الأمة تحت خطر يهدد كيانها ، وقد كثرت الدراسات التي تناولت قضية التراث في الأدب العربي في فترة السبعينات ، والتي تعد فترة التحديات أمام المتغيرات التقنية والسياسية، يقول محي الدين صبحي : « إن مسألة التاريخ العربي والرجوع إلى أحداثه تشكل أحد الخطوط الرئيسة في ملامح أدب السبعينات » [٣] ، حيث كثر استخدام الرموز التراثية بعد حرب ١٩٦٧ ، لما أحدثه هذا التاريخ من تغير في حياة المواطن العربي .

وتعود أسباب العودة إلى الموروث إلى غنى الإمكانات التي يتمتع بها التراث ، وبسبب اكتسابه لوناً من القداسة في نفوس الأمة ، ووجداناتها فيضفي الأديب نوعاً من الأصالة الفنية على أدبه [٤] . وبسبب من الغربة النابعة من شعور الأديب بما يسود العالم من زيف وتعقيد وتصنع تجعله قانعاً بالارتداد نحو الموروث القديم كي ينهل منه ما يريد فيتكئ على الرمز التاريخي لا ليقوله ، بل ليضيء من خلاله العصر بالخوف والحروب والجوع ، والمشبع بالنضال في سبيل الحرية والكرامة الإنسانية [٥] .

---

(١) ابن منظور ، لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، مادة ورث ، ج٢ (ص١٩٩-٢٠١) .

(٢) د. إبراهيم السعافين ، المسرحية العربية الحديثة والتراث ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٩٠، ص٣ .

(٣) محيي الدين صبحي ، ظواهر جديدة في تغيير الحساسيات الأدبية في السبعينات ، مجلة المعرفة ، ع١٣٥ ، ١٩٧٣ ، ص ١٦٢ .

(٤) علي عشري زايد ، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر ، ط١ ، الشركة العامة للنشر والتوزيع ، ١٩٧٨ ، ص١٨-١٩ .

(٥) د. خالد الكركي ، رموز الرفض والثورة العربية في الشعر الحديث ، مجلة دراسات ، مج١٤ ، ع٧ ، ١٩٨٧ ، ص١٢٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إن العلاقة بين الأديب والتراث علاقة جدلية بحتة فلا يقبل الأديب التراث كله ، ولا يرفضه كله ، بل يتم تفاعل وتجاذب بينهما حتى ينتج الأدب الأصيل ، الذي فجر الطاقات الكامنة في النصوص التراثية وتم توظيفها حسب موقف الأديب الشعوري [١] .

لقد استلهم زكريا تامر المضامين التراثية المختلفة فاتّكأ على الموروث التاريخي تارة، والأدبي تارة أخرى ، وكذلك الموروث الشعبي في بعض الأحيان ، فوظف رموزاً مفردة ثائرة ومتمردة مستمدة من التاريخ العربي الإسلامي جاءت من خلال وعيه للماضي - إذ اشتعلت الفكرة في ذهنه وكانت نواة قصصه ومقالاته المشبعة بالنفس التراثي - وفهمه للحاضر واستشرافه للمستقبل . وسنتناول بشيء من التفصيل هذه المضامين :

الموروث التاريخي :

إن اشتداد تناقضات هذا العصر، وسياسات القمع والانهزام الممارس على الشعوب ، جعل أدباءنا يفكرون باستعارة شخصيات تاريخية ينطقونها من خلال الواقع ، فمنهم من استنجد بها ومنهم من نسف الحاضر من خلالها ومنهم من رصد إمكانية تعايشها مع الحاضر ، لو قدر لها ذلك .

اختبأ زكريا خلف بعض الشخصيات ليعبر عن موقف يريده ، محاكماً نقائض العصر الحديث من خلالها ، فعبر عن كثير من القضايا المصيرية المعاصرة وعن الغربة التي يعيشها الإنسان العربي مقنّعاً بعمر [٢] المختار وطارق بن زياد ، ويوسف العظمة وغيرهم .

ولم يهتم زكريا بالتحقق التاريخي للشخصيات المنتخبة وذلك لأن الأهمية - في رأيه - لا تقع على بعث الماضي ، بقدر ما تقع على إمكانية محاكمتها في ضوء المفاهيم العربية المعاصرة ، وغالباً ما يتهاوى الماضي بشخصياته أمام تأزم الحاضر وبيروقراطيته .

كما أن تعامل زكريا مع التاريخ جاء على أساس الاستمرارية ، فاستطاع أن يدمج القديم في روح العصر دون قيود الدلالات التاريخية ، فيقبض على طارق بن زياد ، وعمر الخيام ، ويوسف العظمة ، ليعيد محاكمتهم من جديد ويلغي الفواصل بين الماضي والحاضر،

---

(١) الشعر العربي المعاصر ، ص ٣٩ .

(٢) لقد اتكأنا على هذا المصطلح في النثر تجوزاً .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والحياة والموت ليسلط الضوء على حجم التناقض بين المثل والأحزان ، والصمود والاستسلام فيكشف عن أخلاق الواقع وانتهازيته [١] ، وبذلك ، تندمج الرؤى القديمة ببطولاتها بالرؤى المعاصرة وزيفها ، ويتداخلان حتى يصبحا جسماً واحداً فتعيش القصة بقناعها الماضي والحاضر معاً لتنتج صوتاً ثالثاً يكون هو صوت المستقبل واستشرافه .

ويمثل طارق بن زياد في قصة « الذي أحرق السفن » أمام المحقق بتهمة تبديد أموال الدولة لأنه أحرق السفن ، فيدافع طارق عن ذلك لأن حرق السفن كان لا بد منه لكسب النصر ، إلا أن طارقاً لم يعرف بأن النصر ما عاد يهم المحقق والأهم من ذلك هو الإذن بحرقها ، إذ لم يحصل طارق على إذن من رؤسائه بحرق السفن ، فتثبت خيانة طارق ، ونُفِّذ حكم الإعدام [٢] .

لقد انتفى الهدف من المضمون وتحول العالم المعاصر إلى روتين ويقول أحمد محمد عطية بأن هذه القصة قد كتبت بعد مأساة ١٩٦٧ التي وقعت بسبب عدم وجود أمر للقواد باستعمال الأسلحة [٣] .

لقد تقنع زكريا بطارق بن زياد ، كي يسلط الضوء على مأساة العصر الحديث بواقعه السياسي المستبد وبيروقراطيته القاتلة ، فخرج طارق بن زياد من قبره كي يعترض على فساد المجتمع والسلطة والإدارة فصاح بنزق : « حملتم السلاح وجلستم وراء المكاتب تحتسون الشاي والقهوة ، وتتحدثون عن الوطن والنساء » [٤] .

وتحكي قصة " الاستغاثة " حكاية تمثال يوسف العظمة[٥] الذي دبت فيه الحياة حال سماعه استغاثة تجلجل في سماء دمشق ، ويدور حوار لاذع ساخر بينه وبين الحارس الليلي الذي يستوقفه مستغرباً كونه يحمل سيفاً ، كما يستخف الحارس بيوسف العظمة عندما يخبره

---

(١) نبيل سليمان ، بو علي ياسين ، الأيدلوجيا والأدب في سورية ، ص ٢٢٨ .

(٢) الذي أحرق السفن ، الرعد ، ص ١٩-٢٣ .

(٣) فن الرجل الصغير ، ص ١٠٢-١٠٣ .

(٤) الذي احرق السفن ، ص ٢٢ .

(٥) وزير دفاع الحكومة الفيصلية التي أسست عام ١٩١٨ ، قاد الجيش العربي في معركة ميسلون أمام الجيش الفرنسي ، ورفض الانسحاب واستشهد في تلك المعركة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بأنه وزير الدفاع قائلاً : « الوزير لا يمشي في آخر اليل كالشحاذ ، بل يركب سيارة طويلة عريضة والوزير لايحمل سلاحاً بل يرافقه دائماً شرطي مسلح بمسدس» [١] . ويتعاظم حوار المتناقضات هذا حتى ينتهي المطاف بيوسف المعاصر إلى مستشفى المجانين . بذلك نجد أنفسنا أمام رؤى متباينة تجمع الزمانين (الماضي والحاضر) فميسلون زمن مضاد لحزيران بمعنى من المعاني وفي هذا القناع بيان إلى أنه لا يمكن أن ينسجم الماضي ببطولاته ، مع الحاضر بانهزاماته ، كما أن الواقع المرّ لا يمكن أن يفهم بطولات الماضي إلا على أساس من التمرد والعصيان والفوضى .

وفي قصة الجريمة ، يتقنع زكريا بشخصية سليمان الحلبي قاتل الجنرال كليبر صبيحة ١٤ حزيران عام ١٨٠٠ [٢] ، فيستعير من هذه الحادثة الشخصية وحسب ، كي يطعمها بحادثة عصرية خاصة تساهم في إدانة الواقع ، إذ كان سليمان الحلبي رجلاً بسيطاً يعيش مع أسرته بهدوء وسلام إلا أنه اقتيد بتهمة أنه رأى في المنام (لاحظ التهكم) أنه يقتل الجنرال كليبر حتى إن أمه وأباه وأخته قد شهدوا عليه بهذا الجرم ، إلا أن سليمان الحلبي ينكر جريمته تلك .

لقد أنكر سليمان الحلبي جريمته لأن المجتمع هو الذي اضطره لذلك وأن حياته أصبحت مستحيلة في خضم المطاردات على قاعدة زكريا الوجودية القائلة «لماذا ولدت ما دمت بريئاً، أنت مجرم وكنا نراقبك منذ أمد طويل » وتتضح بذلك طبيعة هذا الواقع الذي يدفع الأبطال إلى التخلي عن بطولاتهم، كما لايمكن لهذا الواقع أن يعطي فرصة نضالية كهذه لأي فرد من الأفراد تراوده نفسه بعمل أمر ما ، عندها سيموت قبل أن يستيقظ من حلمه .

ويتدلى عمر المختار من أعواد المشنقة ، فنكس الرأس ، غير آبه للحارس المكلف مراقبتَه ، فيشنق الحارس دمية كانت بيد طفل صغير تعبيراً عن حنقه الداخلي ، وتفريغاً لما بداخله من قمع وتمزق ، عندها يبكي عمر المختار بسبب طحن الإنسان الذي تحول إلى آلة صماء قاتلة .

---

(١) الاستفاقة ، ص ١٤٣ .

(٢) د. جلال يحيى ، المجمل في تاريخ مصر الحديثة ، المكتب الجامعي (د . ت) ، ص ١٧٩-١٨٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إن موت عمر المختار الحقيقي لم يمنع الشمس والأحلام عنه كما لم يمنع الناس أن تذكره وتذكر بطولته في حركة الجهاد الإسلامي لمقاومة الاستعمار ، في حين أن موته أمام الحارس قد وارى الشمس عنه ، لأن الأشياء الجميلة ماتت أمام القوى الظالمة .

إن عمر المختار تعبير عن العدالة المشنوقة أمام انهزام الإنسان ، فمات وترك المشنقة ليبحث عن تربة يتوارى فيها عن بشاعة هذا العالم مبللاً بالدموع الحارقة [١] . بذلك يكون الواقع قد اغتال الذكريات الخالدة ووارها التراب .

وفي قصة " الطائر " تقنع زكريا بشخصية عباس بن فرناس فصنعت له قطته الثلاث أجنحة ليطير بها كي تسري عنه حزنه الشديد بسبب فشله بحب نهلة ، وبسبب جوعه الذي حوّله إلى ناقم مدمر لقد أسقط زكريا تامر على هذه الشخصية كل ذاتية الفرد الممزق ، ومزج بين هاتين الشخصيتين لتتجسد رؤيته الناقمة على المجتمع .

لقد وظف عدداً غير قليل من الشخصيات التراثية ذات البطولات والانتصارات بأسلوب ساخر متهكم ، كي يعكس سذاجة المجتمع وهشاشة بطولاته المصطنعة . فخالد بن الوليد يعلل أسباب بطولاته لملح أندروس الفوّار الذي يشربه كل صباح [٢] .

هذه نماذج من العلماء والأبطال ، والمخترعين ، تمثل الوجه المضيء في تاريخنا إلا أن زكريا تامر كان قد سخرها عكسياً لتوليد نوع من المفارقة التصويرية بهدف إبراز التناقض الحاد بين روعة الماضي وتألقه ، وظلام الحاضر وفساده .

ويبقى السؤال : لو قدر لهذه الشخصيات أن تعيش في زماننا هذا ، هل تبدع كما أبدعت في الماضي ؟ لقد كشف زكريا عن الأطر والمفهومات الزائفة التي تحكم حياتنا الراهنة ، والتي لو تحكمت في حياة من سبقونا لسحقتهم ، وأهانتهم ، وحرمتهم الحرية والمبادرة في الأزمات ؛ لأنها ليست سوى مزيد من القيود الخانقة للإبداع والفداء والمبادرة .

---

(١) الإعدام ، دمشق ، ص٨٩ .

(٢) الأعداء - البطل ، ص ١١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لم يقصر زكريا نماذجه على الجانب المضيء من التاريخ ببطولاته وتضحياته ، بل تقنع بصور بعض الحكام والأمراء والقواد الذين يمثلون الوجه المظلم في التاريخ ، سواء بسبب استبدادهم أو انحلالهم وفسادهم، ففي قصة " اللحى" [١] يتلاعب بالماضي والحاضر فيصور تيمورلنك (ملك المغول وحفيد جنكيزخان الذي احتل العالم وصارع العثمانيين) [٢] . شاباً صغير السن له عينا طفل وابتسامة عجوز، يكره إراقة الدماء، كما أنه لا يبغي ذهباً أو نساءً . فيصوره على نقيض حقيقته المدمرة، إلا أنه لم يغير الجوهر ولو اختلفت المسميات، وذلك عندما احتل دمشق بالحيلة عام ٨٠٣ هـ ، فهزم المماليك بدهائه وحيلته ، وها هو ذا اليوم يهزم القائمين على دمشق " أصحاب اللحى " رمز الدين ، الذين ربطوا وجود المدينة وحريتها بوجود لحاهم ، لذا تفرقوا أيدي سبأ ، واستطاع تيمورلنك أن يلطخ اللحى بالدماء .

وفي قصة جنكيزخان منشئ الإمبراطورية المغولية[٣] ، يتعامل زكريا مع هذه الشخصية المستبدة المدمّرة على أنها طاهرة في أصلها وترنو إلى الصفاء والتطهر إلا أن قذارة الزمان تضطره لأن يقرض العالم قبل أن تقرض الجرذان لحمه وذلك بعدما رأى - في الطريق - طفلاً مات جوعاً فقرضت الجرذان لحمه ، لذا قرر - ببشاعة - ألاّ يموت جائعاً فلبس دروعه ، ونظر إلى العالم بتشف ، وتخيل طوفاناً من الفولاذ المصهور يجتاح الأرض كلها [٤] .

الموروث الأدبي :

وكما وجد زكريا تامر في الموروث التاريخي - على الصعيد السياسي والعسكري والفكري - ما ينشد من شخصيات وأحداث ، وجد كذلك في الرموز التاريخية الأدبية ما يسعفه في التعبير عن آرائه وأفكاره .

ففي قصة " المتهم " يُساق رفات عمر الخيام إلى المحاكمة بتهمة كتابة شعر يمجد الخمرة ، والدعوة إلى شربها ، ونحن نعلم أن هذه التهمة قديمة لأسباب دينية ، لكن زكريا اليوم تلاعب بالأسباب التي يعزوها إلى الأوضاع السياسية والاقتصادية ، فالدعوة إلى

---

(١) اللحى - الرعد ، ص ٣٤ .

(٢) لويس معلوف ، المنجد في اللغة والاعلام ، ط ٢٢ ، دار المشرق ، بيروت ، ص ٢٠ .

(٣) مأمون فريز جرار ، الغزو المغولي ، أحداث وأشعار ، ط١ ، دار البشير ، عمان ، ١٩٨٤ ، ص ١٨٩ .

(٤) جنكيزخان ، ص ١٠١-١٠٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخمرة - حسب رأي القاضي - « دعوة سافرة إلى استيراد البضائع الأجنبية ، وتنفيذ لمخطط مشبوه يهدف إلى إثارة الشغب » [١] .

حتى الشنفرى الصعلوك الجاهلي رمز الثورة والتمرد على القبيلة وعنصريتها الذي هام في الخلاء بحثاً عن قوم جدد يستبدلهم ببني البشر بعد أن قتل تسعة وتسعين رجلاً فقد تبدلت حاله وباع سيفه منذ سنين ، وعاش في مدينة تفترسها شمس من نار ، وعلى الرغم من حبه للورد والكلمات والنجوم فإن الورد ليس خبزاً في النهاية ، والنجوم ليست سجائر » [٢] . لقد اتفق الشنفرى (تاريخياً) والشنفرى القناع بالإحساس بالغربة ، والجوع ، والوحدة ، والكآبة ، والاستعاضة عن البشر بالحيوان ، إلا أن الشنفرى التاريخي لم يستسلم بل أعمل سيفه في رقاب البشر ، وقاوم قدر الإمكان ، بينما باع القناع سيفه دون أن يلطخه بدماء رجل ، حتى إن القطة التي تأمل بإحداث التوحد معها خدشته في وجهه ، وعاد وحيداً كما بدأ .

التراث الشعبي :

لقد ساهمت العامة في صياغة الموروث الشعبي وتداوله ، كما يعد عنصراً من عناصر التراث بعامة ، ويشمل الأدب الشعبي ، وبعض الفنون كالغناء والموسيقا ، والرقص ، والمعتقدات الشعبية ، وغيرها [٣] .

وقد ابتعث الأدباء هذا التراث في أدبهم مستغلين أبعاده ودلالاته القديمة ، مضيفين إليه من واقعهم الشعوري أبعاداً ودلالات جديدة .

ويرى د. إحسان عباس أن « الجاذبية في التراث الشعبي تكمن في أنه يمثل جسراً ممتداً بين الشاعر والناس من حوله ... وهناك إحساس بأن الاتكاء على هذا التراث يقدم شهادة على الاعتزاز بالموروث المشترك ويكشف عن خوف دخيل من ضياع رابطة تعد مقدسة حين تتعرض أقلية ما للانصهار في تيار كبير » [٤] .

---

(١) المتهم ، الرعد ، ص ٢٩ .

(٢) الشنفرى ، ص ١٧٣ .

(٣) سيد حامد حريز ، تحديد مفهوم الأدب الشعبي ، مجلة المأثورات الشعبية ع٣ ، ١٩٨٦ ، ص ٢٨ .

(٤) اتجاهات الشعر العربي المعاصر ، ص ١١٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتعد حكايات ألف ليلة وليلة ، والسير الشعبية وكتاب كليلة ودمنة من أغنى المصادر بالتراث الشعبي . وقد استمد زكريا من ألف ليلة وليلة صوراً جزئية ، فأشار إلى شهرزاد وشهريار في قصة "ربيع في الرماد" [١] وذلك حتى يكسب الواقع بعداً أسطورياً، فيتناول هذا الواقع وكأنه زمن غابر غريب إلا أنه محفور في أذهاننا. ومن خلال شهرزاد وشهريار يعالج قصة البعث وقصة عالمنا الجديد ، فشهرزاد ليست الفتاة المنعمة ، بل هي جارية فقيرة أعياها البحث عن شهريار الملك حتى وجدته ، وكذلك شهريار فقط عاش حزيناً يبحث عن شهرزاد ، فما لبث أن التقى الجسدان حتى فرقهما القدر مرّة أخرى ، وتنتهي المدينة على أيدي الغزاة ، وتموت شهرزاد ، إلا أن شهريار لا يلبث أن يلتقي فتاة أخرى يتمنى لو كان اسمها شهرزاد ، ويعودان معاً نحو المدينة المحترقة ويأكلان التفاح (رمز بدء الخليقة آدم وحواء) كي يعيدا قصة الخليقة من جديد لعل في هذا البعث معنى للوجود .

أما عن حكاية علاء الدين والمصباح السحري (البعد الثالث في حكايات ألف ليلة وليلة) فقد وظفها زكريا في قصة " شمس للصغار " إذ تعرض طفل صغير يحمل بيده صحن لبن إلى مضايقات طفل آخر من ذوي الطبقة الغنية ، انتهت بوضع ذبابة ميتة في الصحن ثم كسره ، فجلس الطفل المسكين يبكي الصحن الذي انكسر خوفاً من أمه، إلا أن بكاءه لم يطل فخرج له عفريت من خاتم فضي كان ملقى على الأرض ، فما كان من الطفل إلا أن طلب إعادة الصحن الذي انكسر ، نلاحظ من ذلك أنه لم يستغل هذه المعجزة في تحقيق مطالب الترف والبذخ كما نعرف في أصل الحكاية ، إلا أنه يرنو للمحافظة على واقعه البسيط دون الخروج منه إلى حياة أفضل . هؤلاء هم أبطال زكريا يرفضون الاستعانة بالقوى الخارجية لتحسين أوضاعهم ، بل يصرون على الاستسلام لواقعهم القمعي دون محاولة منهم لإحداث تغيير ما .

وتتشابه قصة « أقل اليوم السابع » [٢] مع حكاية مدينة النحاس في ألف ليلة وليلة [٣] . فأهل المدينة من خشب بعد أن حولتها ساحرة شريرة ، وبطل زكريا رجل ملّ الحياة وقرر الانتحار ، إلا أنه أرجأ الفكرة حتى يجوب الأفياء ، فتعود الحياة لأهل المدينة على يد هذا البطل الذي تساوت عنده الرؤية للحياة والموت ، فكان له الفضل في عودة الحياة مرّة

---

(١) ربيع في الرماد ، ص ٧٥-٨٣ .

(٢) أقبل اليوم السابع ، ص ٣٩-٤٦ .

(٣) ألف ليلة وليلة ، دار الهدى الوطنية ، بيروت ، ج٣ ، ص ١٨٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أحرى إلا أن أحداً لا يعيره اهتماماً أو شكراً ، لذا ، تمنى لو أن المدينة بقيت من خشب حتى يعمها الهدوء والسكينة . فعلى الرغم مما قدم من فضل على أهل المدينة فإنه ما زال منبوذاً ولا يجد إمكانية للتعايش مع هذا العالم سواء أقدم تضحية أم لم يقدم .

واتكأ زكريا تامر في صياغة بعض قصصه على حكايات كليلة ودمنة فكانت قصة " النمور في اليوم العاشر " [١] من أروع ما قدمه من قصص رمزية ، إذ لخص فيها على لسان النمر سيد الغابات حكاية الإنسان المحكوم للسلطة الظالمة ، وكيف أنه يتقهقر ويضعف ولا يستطيع الصمود أمام أنماط القمع والإرهاب ، فالإنسان مسلوب الإرادة لا يملك حياته ولا حريته ، فيفقد حياته كلها ، بل يتحول إلى مخلوق آخر كما حصل مع النمر الذي أصبح يقلد الحمار ، ويرقص ويصفق لسيده ويأكل الحشائش كل ذلك حصل في غضون عشرة أيام ، فكيف بأمة مضى على ترويضها زمن طويل ؟! .

أما في قصة " الأعداء " [٢] فقد حط عصفوران على غصن شجرة ، ولم يغردا كعادتهما مرحبين بشمس الصباح ، بل تبادلا النظرات الوجلة الحائرة وقال أحدهما للآخر : أين نطير ؟ فسماؤهما احتلتها الطائرات ، وحزن العصفوران لأنه لم يبق لهما سوى سماء الأقفاص إلا أنهما لا يقبلان بسماء الأقفاص بديلاً من سمائهما الرحبة التي لا سلطة لأحد عليها ، لهذا السبب كان الموت أرحم لهما ، وأحفظ لكرامتهما فابتلعا حبوباً مميتة وسقطا على الأسمنت ميتين .

من هذه الرموز ، استطاع زكريا أن يعبر عن حال الإنسان الضعيف أمام قوى السلطة والآلة . كما عبر عن الإنسان الذي يرنو إلى الحرية أينما حلّ ، لكنه غالباً ما يخسر المعركة أمام السلطات القمعية بكافة أشكالها ، لذا ، يكون الموت هو الرحمة الحقيقية لهذا الإنسان الممزق .

التراث الشعبي الشفهي :

كثرت الحكايات والتعبيرات الشعبية والأغاني والمواويل التي غالباً ما تتردد على ألسنة الناس في الوسط الشعبي مشافهة ، فتغدو محفورة في أذهان الناس . وقد ركز زكريا على الحياة الشعبية الدمشقية فعني عناية خاصة بالأحياء الشعبية كالتي خرج منها (البحصة) وطبيعة تفكير الناس فيها ، ولباسهم ، وسلوكهم ، وموقفهم من التحرر ، وسفور المرأة .

---

(١) النمور في اليوم العاشر ، ص ٥٤ .

(٢) الأعداء ، ص ٥-٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذه صورة الحياة الممزوجة بالآهات في نظر أبي شكور، فما معنى أن يرهب الإنسان ، المسؤول في العمل ما دام هذا العمل لا يطعم خبزاً ولا يسقي خمراً ، وفي ذلك دعوة وتحريض ممزوجان باليأس واللامبالاة فيهرب أبطال زكريا من سوء الحال إلى مكان أسوأ لا يمت للحياة بصلة (المقبرة) ، ويزداد إحساسهم بالمرح (لاحظ المفارقات) فيدندنون :

هز التوتة يا توات
توتك حلي يا توات[١]

كما طعّم زكريا بعض قصصه بالحكايات الخرافية من مثل الخروف الذي يتحول بين يدي أبي فهد في قصة « شمس صغيرة »[٢] ، إلى ابن ملك الجان ، فيمنّيه بسبع جرار من الذهب مقابل أن يتركه وشأنه ، فيتغلب الطمع (الرغبة في الغنى) على لحظات الجوع عند أبي فهد ويلقى مصيره على يد سكران متسكع ، في حين أن زوجته تنتظر عودته محملاً بالذهب . بذلك ، تكون أحلام الفقراء ليست ملكاً لهم ، وأنه محض الحلم بحياة رغيدة يقتل صاحبه ، فعلى الفقير أن يبقى فقيراً حتى النهاية . فيواري زكريا العالم الواقعي خلف هذه الخرافات ، ومن ثم يركبه تركيباً واقعياً جديداً مغايراً لما هو مألوف ، فيقدم ذروة الالتحام بين الخرافات الشعبية والواقع المعاش مكسباً كل منهما بعداً غرائبياً جديداً ليقتربا معاً نحو الوجدان الشعبي .

ويضيف زكريا نمطاً آخر من أنماط الخرافة الشعبية متمثلة بأوهام المشعوذين والعرّافين، فتذهب المرأة في قصة « امرأة وحيدة »[٣] ، إلى العرّاف المشعوذ كي يبقى لها زوجها مخلصاً، ويستغلها هذا المشعوذ إشباعاً لشهوته ، في حين تظن المرأة بأن الجان تطرد الشياطين من داخلها فتستسلم للذة ساحرة .

وحتى لا يصرف زكريا النظر عن هدف العمل الفني ، اكتفى بالاتكاء على بعض الحكايات الشعبية والخرافات والأساطير دون إسفاف في العمل الفني ، لذا ، ظهرت هذه التضمينات على شكل أخيلة مناسبة رقيقة لا تصرف الذهن عن أهداف زكريا التي ينبغي إيصالها للقارئ .

---

(١) نفسها ، ص ٧٧ .

(٢) شمس صغيرة ، ص ٤١ .

(٣) امرأة وحيدة ، ص ٣٤٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الموقف من السياسة :

لعبت السلطة السياسية دوراً مهماً في تعميق مفهوم الاغتراب عند بطل زكريا ، كما لعبت الحياة الاجتماعية ، والفكرية ، والشعبية ، والاقتصادية هذا الدور من قبل . فالسلطة السياسية جزء من أدوات القمع التي سيطرت على الفرد وسلبته حريته ، وبخاصة بعد حرب حزيران إذ ازداد شعور الإنسان العربي بالانفصال عن مسرح الأحداث ، وتعمقت الفجوة بينه وبين السلطة وتعمق الشعور بالعجز وفقدان القوة ، فالدولة هي صاحبة القرار ، ولا حق للفرد في المشاركة في أي قرار تتخذه السلطة ، لذا تعالت عليه وبدأ يشعر بالكبت وسلب الحرية في القول والعمل ، والتخطيط ، والمشاركة ، والمعارضة ، وذلك لما جرّته عليه السلطة السياسية من انكسارات وخذلان .

لقد عالج تامر بعض القضايا السياسية التي تمثل نماذج مختلفة من القمع الفردي ، فتناولها من خلال ممثليها « الملك وحاشيته (جنوداً ووزراء ، ورجال دين) والقاضي ، والشرطي ، والحارس الليلي ، وغيرهم من أيدي القمع .

ويصور زكريا الحالة التي وصل إليها الفرد من التمزق في علاقته مع السلطة فيضطر مواطن ما أن يبعث برسالة إلى مدير الشرطة مفادها « من مواطن مثالي إلى السيد مدير الشرطة ، خضوعاً لأوامركم ، أرجو السماح لي أن أموت » [١] . بذلك لا يعود قرار الموت بيد الخالق بقدر ما هو مسيطر عليه من رجال الدولة (الشرطة) وفي ذلك تصوير ساخر لكل القوى التي سلبت الإنسان حريته في العيش أو اللاعيش ، وهذه أقصى درجات سلب الحرية التي تتناسب عكسياً مع الاغتراب ، فكلما قلّصت حرية الفرد ، تعمق شعوره بالاغتراب وفقدان الأمن .

ويذهب زكريا أبعد من ذلك مبيناً شدة اليد الحاكمة وسطوتها فيقول: «في اليوم الأول خلق الجوع، وفي اليوم الثاني خلقت الموسيقا ، وفي اليوم الثالث خلقت الكتب والقطط، وفي اليوم الرابع خلقت السجائر ، وفي اليوم الخامس خلقت المقاهي ، وفي اليوم السادس خلق الغضب ، وفي اليوم السابع خلقت العصافير وأعشاشها المخبأة في الأشجار ، وفي اليوم الثامن خلق المحققون فانحدروا تواً إلى المدن ، وبرفقتهم رجال الشرطة والسجون والقيود

---

(١) الذي أحرق السفن ، ص ٢٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحديدية »[١] . هذه هي أقطاب حياة بطل زكريا التي يكررها في معظم قصصه ، فقد أفرزت البرجوازية الصغيرة فرد زكريا ، الذي يتمتع بثقافة جيدة ، فيهوى قراءة الكتب وسماع الموسيقا ، ويحب القطط والعصافير الخضرة التي تعمق الانتماء وتثير لواعج الرومانسية ، كما أنه فرد لا يستطيع أن يحب العمل، لأن العمل جزء من أدوات القمع والتقييد والاغتراب عن الذات لأنه يستخدم كشيء من الأشياء ، ويهوى الجلوس في المقاهي والملاهي كنوع من الخلاص ، فيضفي زكريا على هذه السمات صفة القداسة لأنه يرسم بدقة اغتراب بطله . إنها قصة الخلق والتكوين ، فالله عز وجل خلق الكون في ستة أيام ثم استوى على العرش في اليوم السابع لكن أقطاب الحياة عند فرد زكريا خلقت في سبعة أيام وفي اليوم الثامن – خارج حدود الأسبوع – تأتي القوة الوحشية لتغتال العالم ، وبذلك ، تكون هذه القيود موجودة بوجود الخليقة ، لذا ، نراه ينطلق من رؤية فلسفية تقضي بجوهرية الشر وأزليته وربما انتصاره وبذلك ، يكون الشرّ قد بدأ مع بداية الحياة ، وبما أنه قد آمن بأزلية الشر والغضب والقهر ، سيبقى الصراع المشوب بروح الاستسلام والخنوع قائماً حتى النهاية فلا ضرورة للثورة أو الاحتجاج لأنها تحتاج إلى تحريك الطاقات الكامنة وتحويلها إلى موقف إيجابي ، فيقهر الفرد ويصبح سلبياً لا مبالياً نتيجة لانعدام الأمن والشعور بالعجز عن ممارسة أي فعل سياسي ، فيستسلم ويتقاعس عن أداء دوره[٢] .

قلنا : إن الملك وأعوانه هم الإطار الكبير الذي يمارس القمع ، وذلك عندما أحاط الأعداء بأسوار دمشق ، صرخ الشعب مطالباً بالسلاح للدفاع عنها ، إلا أن الملك وجنوده يطلبون منهم عدم التدخل في تخصصات غيرهم ، لأن الدفاع عن المدينة موكل إلى الجنود وحدهم ، لكن الناس لم يقتنعوا بذلك ، وعندما لم يَرَوا مبادرة الجنود الدفاعية أشهرت السيوف في وجوههم فقتل منهم من قتل ، واعتقل من اعتقل على أيدي جنود الملك ، عندها لم يمهلهم العدو طويلاً فانقض على المدينة ودمّرها[٣] .

لقد كان القهر الداخلي الذي أصاب الناس نتيجة محتومة للقهر الذي خلّفته الهزيمة ، فلاذ الناس بالصمت ، ولم يكتسبوا جرأة في مقاومة الملك وجنوده إلا في قصة "النسيان" ، وذلك عندما صاروا في مواجهة حتمية مع الموت، إذ تنبأ رجل غريب بأن أهل المدينة ينتظرهم

---

(١) الذي أحرق السفن ، ص ٢١ .

(٢) د. نبيل رمزي ، الاغتراب وأزمة الإنسان المعاصر ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٨٨ ، ص ٦٣ .

(٣) التراب لنا وللطيور السماء ، ص ٥٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قلنا سابقاً أنه ما من شك في أن نكسة حزيران عام ١٩٦٧ قد تركت بصماتها على الأشكال الأدبية ، فوجدت في الرواية مثلاً صدى عند إميل حبيبي ممثلاً في السياسة (سداسية الأيام الستة ، والمتشائل) ، وعند سعد الله ونوس في المسرح « حفلة سمر من أجل خمسة حزيران » كما أن في القصة القصيرة خير صدى لما لها من مرونة وقدرة على مواكبة الأحداث ، والتعبير عنها وتجسيم الفوضى ، فأصيب الأدباء بردة فعل عنيفة تجاه كل القيم والمفاهيم والأخلاق ، وسحب كثير منهم الثقة بالقدرة الإلهية التي لم تتدخل لصالح الإنسان آنذاك ، وشاعت تيارات جديدة في الأدب فمنهم من لجأ إلى الوجودية ، ومنهم إلى الماركسية ، أو السريالية ، أو العبثية وغيرها ، وقد عبر زكريا تامر عن رؤيته السياسية من خلال عدة مواقف ساقها على يد أبطاله ، فقد اتفق عجوزان في قصة الأعداء (الأسرى) على كتابة عريضة موجهة إلى الله عز وجل يلتمسان فيها العون والمدد من أجل مقاتلة الأعداء ، ولما طال الجواب تساءل أحدهم عن سبب رفض الله لهذا الالتماس ؟ لذا عليه - عز وجل - أن يعفيهم من فريضة الصلاة إذا لم يبعث المدد (واحدة بواحدة) ، إلا أن السؤال يتردد مرة أخرى ؛ وإذا رفض ؟ فيجيب الآخر باطمئنان وثقة « لا تخف إن الله سيعفينا من فريضة الصيام أيضاً »[١] لأنه غير قادر على إرسال المدد لمحاربة الأعداء . فتتضح الرؤية السياسية هنا بأن الأعداء لا يقهرون . حتى أن القدرة الإلهية لا تستطيع تقديم العون بل عجزت أمام القوى السياسية والقمعية ، وفي هذا تعبير عن سوء الأحوال السياسية السائدة إبان الهزيمة .

وأشار زكريا في قصصه المليئة بالرؤية السوداوية واللا معقول إلى أن كل أوجه القمع التي تمارسها السلطة لا تنصب إلا على الفقراء ، بينما الأغنياء لا يتعرضون لمثل ذلك ؛ لأن الأديب أراد أن يظهر مأساة الفقير الذي يعيش بين فكي كماشة : السلطة السياسية من جهة والطبقة الغنية من جهة أخرى ، فالشرطي مثلاً في قصة " الشرطي والحصان" يستوقف رجلاً مسكيناً يجر حصانه المتعب عبر طريق كتب عليها ممنوع المرور ، فيصر الشرطي على عودة الرجل وحصانه من حيث أتى . في حين تمر سيارة فخمة مسرعة دون أن يستوقفها الشرطي ، لذا يزداد حنق الحصان (لاحظ تمرد العناصر غير الإنسانية) ويعبر عن ذلك بتمرده وثورته فيضرب الشرطي ويوقعه أرضاً إلا أنه يعدم في الساحة العامة أمام مشهد من الناس ، عندها لم يتفوه أبو مصطفى بكلمة بل « تخيل القانون مخلوقاً ضخماً له آلاف الأيدي ،

---

(١) الأعداء الأسرى ، ص ٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

القانون يأمر الشرطي ، فيطيع الشرطي ، ويأمر الشرطي أبا مصطفى ، ويجب أن يطيع أبو مصطفى الأوامر » [١] . فكل شيء منظم حسب القوانين التي ينفذها الفرد ويتمنى الفكاك منها إلا أنه يجب أن ينصاع لها - ولا خيار آخر له - مجرداً من مشاعره .

وكما أن الشرطي هو اليد الآلية التي تنفذ أوامر السلطة فإن كل مسؤول يتسلم منصباً ما يتحول إلى آلة جوفاء تنفذ كل ما يطلب منها ، لذا على المسؤول أن ينكسر الشعب وينكر مصالحه حتى يظهر الولاء للسلطة . فالمعلم عمر القاسم الذي كان يعيش ببساطة مع أهل الضيعة في قصة « يا أيها الكرز المنسي » [٢] والذي يطرد من الضيعة لأنه لم يهادن الآغا « رمز السلطة » يتبدل ويتكلف أخلاق المسؤولين حتى صار وزيراً ، فيفرح أهل الضيعة لابنهم البار ويقررون زيارته ومعهم سلة من الكرز الذي يحبه إلا أنهم عادوا خائبين موقنين أن عمر القاسم الذي يعرفون مات منذ زمن .

ولا ينجو العلم من قبضة الوزراء، فالوزير في قصة «التراب لنا وللطيور السماء» [٣] يقنع الملك بمساوئ اختراع الطائرة التي تحلّق فوق الأعداء وذلك لأنها يمكن أن تطير فوق قصر الملك ، وفي ذلك تآمر وخبث على الملك وحاشيته ، لذا يصبح العلم وتصبح المخترعات رمزاً للتخريب السياسي المرفوض .

مما لا شك فيه أن زكريا يتصدى في أدبه لتسلط الدولة القمعي عن طريق سرد ممارسات لا معقولة لتكون ملاذاً معوضاً لخيبة آمال المجتمع ، لذا فهو إيجابي من خلال رصد المواقف السلبية للشخوص . فالسلطة الحاكمة لا تعجز عن تقديم كل إنسان للمحاكمة كما أنها لا تعجز عن تدبير التهمة المناسبة لكل فرد ، وكثيراً ما يحاكم دون تهمة . ولا تعجز أيضاً عن استخراج الأموات من قبورهم لتعيد محاكمتهم من جديد ، لذا تصبح الحياة والموت في نظر الفرد سواء ، لأن الإنسان في كليهما يعيش في سجن كبير كما يراها مصطفى الشامي : « وفي تلك اللحظة كانت الأرض الجرداء والأرض الخضراء لهما سماء واحدة مصنوعة من قضبان فولاذية » ، [٤] ودلالة القضبان واضحة لا تخفى على أحد .

---

(١) الشرطي والحصان ، ص ٦٨-٦٩ .

(٢) يا أيها الكرز المنسي ، دمشق ، ص ٣٤ .

(٣) التراب لنا ... وللطيور السماء ، ص ٦٠ .

(٤) السجن ، ص ١٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واستطاعت الشرطة كذلك إخراج عمر الخيام من قبره ومحاكمته بتهمة جديدة ، كما استطاعت أن تؤول شهادة الشهود حسب مصلحتها ، فالقاضي مثلاً رأى في حب عمر الخيام للكلمات تمرداً وذلك لأن المواطن الصالح يحب أمه والحكومة فقط ، وفي قراءته لكتب الحب خروجاً على الأخلاق العامة لأنها في نظره كتباً جنسية ، كما رأى بعد شهادة الصحفي الذي شهد بأن عمر الخيام لم يمدح الحكومة في أشعاره، أنه لا يحب الشعب ، وبعد تعاونه مع الحزن تعاوناً مع جواسيس الطابور الخامس الذي يعمل على زعزعة الثقة بالسلطة المسؤولة [١] .

وقد اعتبر زكريا أن السلطة تعنى بالقشور السطحية فقط، وتتناسى الجوهر الذي سبّب في تمزق الإنسان واغترابه عن ذاته كنوع من الاستخفاف بعقل الإنسان ، فعبر عن ذلك بأسلوب متهكم ، فالفرد جائع إلا أن الشرطة تقبض عليه بتهمة أنه يسير مقوس الظهر وفي ذلك إساءة لسمعة البلد ومظهرها ، وترويج لإشاعات المرض والجوع ، مع العلم أن بطل القصة يعترف لهم حقاً أنه مريض وجائع ، إلا أنهم يتهمونه بمهاجمة القوانين ، وأنه يسير عابساً شاحباً ، فيخبرهم لأنه بلا عمل ، إلا أنهم يحذرونه من السير في الشارع ، فيسير مسرعاً نحو البيت منكسراً مهزوماً ، عندها يقبض عليه لأنه تثاءب في الشارع ويحكم عليه بالإعدام لأنه مواطن غير صالح [٢] .

من ذلك اعتبر زكريا تامر أن الفرد مدان ومتهم دون سبب وجيه لأنه لا ضرورة لوجود سبب فمجرد وجوده في هذا العالم تهمة كبيرة .

ويتجسد ذلك في سؤال القاضي (السلطة) لأحد المتهمين «لماذا ولدت ما دمت بريئاً؟ جئت إلى هذا العالم كي تهلك وستهلك دون احتجاج » [٣] . كما «لا يوجد إنسان دون ذنب » [٤] وتكفيه تهمة الوجود، لذا يبقى سليمان الحلبي صامتاً أمام محاكمته كما ظل

---

(١) المتهم ، ص٢٨ .

(٢) الصقر ، ص ١٤-١٦ .

(٣) الجريمة ، ص ٢٧-٣٣ .

(٤) رحيل إلى البحر ، ص ٢٩٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جوزيف . ك صامتاً في القضية[١] لكافكا من قبل فاستغرب سليمان أن ينمو في أعماقه شعور بالذنب إلا أنه كان في الوقت نفسه شديد الاقتناع ببراءته[٢] ، ويتعرض جوزيف . ك لمثل هذا الموقف فيطرح التساؤل نفسه « وأنا أستنتج هذا مع أنني متهم ولا أستطيع أن أجد أدنى ذنب يمكن أن يكون السبب في اتهامي على أن هذا شيء ثانوي ، والسؤال الرئيسي هو من الذي يتهمني ؟ »[٣] . وبذلك فقد خضع كل من بطل كافكا وزكريا - لحظة الإعدام - إلى الخنوع وعدم المقاومة لانعدام القوة المسبوقة بانعدام المغزى من المقاومة ، التي تقع ضمن خيار واحد (الموت) والعجز المغلّف باليأس المبرر كل ذلك ، في حالة من الاغتراب التي يقنع الفرد من خلالها بأن لا ضرورة لمقاومة فاشلة منذ البداية .

وهناك الكثير من قصص تامر التي تعتبر تجسيداً لضعف الإنسان المهزوم ومعاناته النفسية والسياسية والاجتماعية ، كما أن من أبرز الآثار السلبية للاغتراب هي تحوّل الإنسان عن طبيعته الأصلية واغترابه عنها فيتحول إلى إنسان زائف أو سادي أو حيوان كما حصل مع عمر السعدي في قصة " النهر "[٤] ، والذي قبض عليه دون أن يقترف ذنباً ، وبقي في الزنزانة حتى بات يتخيل أن الحارس الذي يحضر له الطعام ليس له لحم أو عظم ، كما أن إحساسه بالغربة الذي ولّدته الوحشة والوحدة قد تضاعف عندما استرعى انتباهه حركة يده في الهواء ، إذ خامره إحساس بأن هذه اليد غريبة عنه ، وكانت هذه هي الخطوة الأولى في فقد الإحساس بالذات كما أن نهايته كانت أشد وقعاً من أمثاله : سليمان الحلبي ، وجوزيف . ك . إذ التفتْ حوله ذيول الغربة والوحشة فتجرّد من إنسانيته متحولاً إلى حيوان ينتظر ركلة الحارس بلهفة .

في كل ما أسلفنا تأكيد على أن كل مايحيط بالفرد هو عدو له، وما العالم إلا عبارة عن مؤامرة كبيرة هدفها القضاء على الفرد وسحقه في بوتقة الجماعة الخانعة المجردة

---

(١) رواية القضية لكافكا تقوم على محنة الإنسان وحيرته أمام القانون فلا يمكنه تصور نهاية له أو لواضعيه ، إذ يعتقل جوزيف . ك ولا يدري ما التهمة الموجهة إليه فيستسلم للاعتقال مع أنه موظف كبير في أحد البنوك ، وتستمر محاكمته لمدة سنة كاملة ينتقد كافكا من خلالها النظام البيروقراطي الذي يحكم حياة الناس ويسلمها إلى التعقيد ، مثلما أدان البيروقراطية زكريا في قصة الذي أحرق السفن ، كما حاول جوزيف . ك إدانة الفساد أمام القاضي لكن دون جدوى . ونظراً لخسارة المعركة بين الفرد والسلطة ، يستسلم جوزيف . ك للموت (كالكلب) كما يقول لحظة الإعدام .

(٢) الجريمة ، ص ٢٧ .

(٣) كافكا ، القضية ، ترجمة مصطفى ماهر ، دار الكتاب العربي ، (د . ت) ، ص ٢٩٥ .

(٤) النهر ، ص ٦٦-٧١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من كل إحساس ، حتى أن رجال الدين كانوا قد ساهموا في هذه المؤامرة فطوت السلطة السياسية رجال الدين تحت لوائها ، وصار رجل الدين جزءاً من بطانة الحاكم ، فكما أن جوزيف . ك يكشف عن واقع الكاهن الذي صدفه في إحدى الكنائس ، وتبين له فيما بعد أنه يستدعى من قبل القاضي للمشاركة في معالجة قضيته، يكشف زكريا كذلك عن رجال الدين الذين يقفون موقف العداء من العلم والعلماء ، ويساهمون في طمس شخصية الفرد باسم الدين ، لذا فقد اعتبروا أن كل مستجدات العصر كفراً وإلحاداً وتصدوا للعالم الذي صنع طائرة لإنقاذ دمشق ، كما اتهموه بالكفر والإلحاد لأن في هذا الاختراع تقليد لما يخلق الله ومخالفة لمشيئته ، وما كان من الرجل ذي اللحية الطويلة (رمز رجل الدين المتطرف) إلا أن أشار قائلاً : « هذا ليس عالماً ، إنه إبليس متنكر ، يريد إغواءنا وإبعادنا عن ديننا »[١] فما كان من الملك إلا أن أمر بإعدام العالم .

لقد تعمد زكريا أن يكشف عن الوجه المتطرف لرجال الدين والذي يعكس من خلاله ممارستهم السلبية تجاه الفرد ، فرسم صورتهم - بدلالة اللحى الطويلة جداً (التطرف) - أنهم جهلة لا يفقهون شيئاً مُلمّحاً لذلك من خلال أحد رجال الدين الذي صرّح أمام حاشية الملك بأن إبليس يتجسد في الطابة التي اخترعها العالم للأطفال[٢] ، ولم يكتف بوصفهم بالجهلة بل ينسب لهم الهزيمة المميتة التي حصلت في قصة «اللحى»[٣] أمام تيمورلنك الغاشم .

لقد ساهم رجال الدين في تجسيد المواقف الانهزامية بمعاونة السلطة السياسية فدعو للخنوع وعدم المقاومة وفق مبدأ القضاء والقدر[٤] . فوقع في الحيرة بين حقيقة الدين الحنيف وتفسيرات رجاله الخاطئة له ، ففقد الدين قداسته وضاع الفرد بين قهره وتمزقه .

وتجدر الإشارة إلى أن رؤية زكريا تامر العامة تنبثق من مواقفه السياسية وآرائه ، لذا فقد ظهرت آثار الرؤية السياسية في موقفه من المجتمع والسلطة الأبوية والمرأة ، والمدينة ، والتراث وغيرها إذ جاءت كل هذه المضامين لتخدم موقفه من السياسة لذلك لا نجد فضلاً للاستمرار في عرض موقفه من السياسة في باب مستقل .

---

(١) التراب لنا .. وللطيور السماء ، ص ٥٦ .

(٢) الملك ، النمور ، ص ١٢٢-١٢٣ .

(٣) اللحى ، ص ٣٢ .

(٤) انظر : الخراف ، ص ١١١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثالث

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثالث
البناء الفني/ الشخصية القصصية

كانت الشخصية - قديماً - عاملاً ثانوياً بالقياس إلى عناصر العمل الأدبي الأخرى ، فقد كانت خاضعة خضوعاً تاماً لمفهوم الحدث . واستمر المفهوم الأرسطي للعمل الفني يولي أهمية بالغة للحدث على حساب الشخصية حتى القرن التاسع عشر ، إذ احتلت الشخصية مكانة بارزة في العمل الروائي بخاصة ، بأنها لم تستقل عن الحدث فحسب بل زاد على ذلك أن أصبحت الأحداث نفسها مبنية - أساساً - من أجل إمدادنا بمزيد من المعرفة بالشخصيات ، ونجد لذلك تبريراً عند النقاد والدارسين ، فيعزو الآن روب جرييه هذا الأهتمام الذي أولاه الروائين للشخصية في القرن التاسع عشر الى صعود قيمة الفرد في المجتمع، ورغبته في السيادة، فأضحت الشخصية عاملاً مختزلاً لمميزات الطبقة الاجتماعية، حتى أضحت كل عناصر السرد تعمل على إضاءة الشخصية وإعطائها الحد الأقصى من البروز ، وفرض وجودها في جميع الأوضاع [١] .

ويستفيض عدد من العلماء في تفسير العلاقة بين الشخصية في العمل والمجتمع الذي تنغرس فيه وتعبر عنه ، إذ لم تعد الأهمية لما تمثله الشخصية في العالم بل لما يمثله العالم بالنسبة لها ، وما تمثله الشخصية بالنسبة لنفسها [٢] وبعبارة أخرى ما عادت الرواية الجديدة تعني كتابة مغامرة بل أصبحت مغامرة كتابة .

وغني عن البيان أن الشخصية ليست هي المؤلف الواقعي ، وذلك لسبب بسيط هو أن الشخصية محض خيال يبدعه المؤلف لغاية فنية محددة ، وحسب ما يرى تودوروف فإن قضية الشخصية هي قضية لسانية، فلا وجود للشخصيات خارج الكلمات ، لأنها ليست سوى كائنات من صنع المؤلف، مع الأخذ بعين الاعتبار بأن الشخصيات - أحياناً - تمثل أشخاصاً فعلاً وذلك بأن تعكس بعض جوانبهم الواقعية وفق صياغات خاصة بالعمل الفني [٣] .

---

(١) الآن روب جرييه ، نحو رواية جديدة ، ترجمة . مصطفى ابراهيم ، دار المعارف . مصر ، ص ٣٤- ٣٥ .

(٢) حسن بحراوي ، بنية الشكل الروائي ، ط١ ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ١٩٩٠ ، ص ٢٠٨ .

(٣) نقلاً عن حسن بحراوي ، ص ٢١٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وازداد الاهتمام بالشخصية حتى أصبحت الشخصيات ذات وجود مستقل ، بينما الحدث تابع لها [١] .

ومن خلال دراستنا لأعمال زكريا القصصية لاحظنا أن بناءها الفني يقوم على عنصر الشخصية كمرتكز أساسي ، بعد أن أسقط الحادثة من محور القصة ، وهذه من أهم سمات التجديد الفني التي امتاز بها زكريا عن غيره من الأدباء العرب في فترة السبعينات ، فقد سلّط الضوء في المجموعات "صهيل الجواد الأبيض" و "ربيع في الرماد" على الفرد المسحوق ذي المعالم التائهة ، فلا هوية ولا اسم يمتاز به بطل زكريا فهي شخصية ذات قوة جذرية أو كما يسميها رولان بورنوف بقائد الحركة في الحدث ، كما أن الحدث الذي يقوم به قائد الحركة عند زكريا يمكن أن ينشأ من رغبة أو حاجة أو من خوف [٢] .

امتازت الشخصية القصصية عند زكريا بالعمومية فاختفت الأسماء وأضحت الأشخاص أقرب ما تكون الى الذوات ، فلا نعرف شيئاً عن نشأة الشخصية أو ماضيها ويأتي ظهورها في العمل دون مقدمات سابقة ، حتى يمكننا أن نطلق عليها اسم الشخصية الجماعية، لما نستشف من خلالها ملامح الشعب العربي ومأساته وأزماته أمام السلطة بكافة مؤسساتها فيجد القارئ شخصيته متحققة - جزئياً - في إحدى شخصيات القصة فيتحقق امتزاج القصة بتصورات القارئ وتخيلاته ، كما يرى ذلك برناردي فوتو نظراً لما يحدث من تجاوب بين بعض انفعالات القارئ وعواطفه وبين القصة نفسها ، وربما يصل الأمر إلى أن يجد القارئ رمزاً لحياته الخاصة [٣] .

أما مجموعة " دمشق الحرائق " فقد سلطت الضوء على عدة شخصيات أفرزها زكريا من المجتمع الشامي الشعبي ، ورسمها بدقة متناهية توحي بواقع البيئة المحلية للقاص . فرؤية القاص للواقع هي التي تفسر طريقته في رسم الشخصيات ، وكذلك مدى وعيه للعلاقة بين الإنسان والواقع .

---

(١) أدوين موير ، بناء الرواية ، ترجمة : إبراهيم الصيرفي . الدار المصرية للتأليف ، (د.ت)، ص ١٨-٢١ .

(٢) رولان بورنوف ، وريال أوئيليه ، عالم الرواية ، ترجمة : نهاد التكرلي ، ط١ ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، ١٩٩١ ص ١٤٥ .

(٣) برناردي فوتو ، عالم القصة ، ترجمة : د. محمد هداوة ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، ص١٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وحتى تقوم الشخصية بدورها الفاعل لا بد للكاتب من المزج بين عوالم الشخصية وأبعادها الثلاث : الخارجي والداخلي والاجتماعي [١] .

لقد استخدم زكريا تامر الطريقة التحليلية غير المباشرة (الملحمية) [٢] والطريقة التمثيلية المباشرة في رسم شخصيات العمل القصصي فاعتمدت مجموعته الأولى " صهيل الجواد الأبيض " على الطريقة التمثيلية المباشرة ، بينما تكشفت الطريقة التحليلية في باقي المجموعات ، والتي لم تخل من بعض القصص التي تعتمد الطريقة غير المباشرة في السرد.

وشخصية البطل في قصص زكريا جدلية متوترة ، وفي حالة صراع دائم مع السلطة بكافة مؤسساتها وتتسم بثبات المرقف منذ بدء القص حتى نهايته ، فنحس أمامها بنبض الحياة ، ومأساة الواقع . وشخصية أبطاله التي ظهرت في "صهيل الجواد" ، و"ربيع في الرماد" ، و " الرعد" ، و " النمور" ذات ميزات خاصة يمكن أن نعبر عنها بنموذج الإنسان المثقف ابن الطبقة البرجوازية الصغيرة الذي اصطدم بواقعه فانفصل عنه وارتد على نفسه ممزقاً عابثاً حزيناً .

ويستوقفنا السؤال : من أين استمد زكريا تامر شخصياته ؟ يقول مبيناً أنه لا انفصام بين الواقع وعالمه القصصي " ... أحب القصة التي تنجح في إقناعي بأن عالمها هو عالم حقيقي وأرضها صلبة وبشرها من لحم ودم ، ولغتها لغة صادقة حارة " [٣] . لذا جاءت الشخصية مدركة لواقعها المعاش الفقير، المهزوم ومقرةً له دون محاولة الثورة أو الاحتجاج ، كما استمدها من واقع المثقف العربي ، ومن التاريخ ثانياً ، ومن الحياة الشعبية ثالثاً .

فتنطلق شخصياته من الواقع الاجتماعي والطبقي ، لكنها تدرك طبيعة خضوعها له ويظهر ذلك من خلال ما يعتمل في نفس الشخصية من قلق وعقد وكوابيس واضطرابات ، فتحاول المقاومة بذاتها الإنسانية ووجودها وأحلامها ، وتسعى الى الخلاص من القيود التي تكبد تطلعاتها وحاجاتها الطبيعية (الحب والخبز ، والحرية) .

---

(١) د . محمود السمرة ، في النقد الأدبي ، ط١ ، الدار المتحدة ، ١٩٧٤ ، ص٢٥ وانظر أيضاً حسين القباني فن كتابة القصة ، ط٢ مكتبة المحتسب ، عمان ، ١٩٧٤ ، ص٧٠ .

(٢) محمد يوسف نجم ، فن القصة ، دار الثقافة ، بيروت ، ص ٩٨-١٠٠ .

(٣) استفتاء حول واقع القصة ، ص ١٠٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويتكئ زكريا على الواقع في بناء شخصياته غير الواقعية واللامعقولة ، كما في " الفريسة " و "مغامرتي الأخيرة " ، و "عباد الله" .

وبسبب تشوه الواقع ، يقدم زكريا الشخصية مشوهة من الداخل ، وهذا ما سنفسره أثناء عرضنا للظواهر النفسية للشخصية إذ اصطدمت الشخصية بالواقع ولم تستطع الانفلات منه أو تجاوزه مما خلق توتراً مزمناً وخصاماً مستمراً مع العالم ، فتبلورت الرؤية العبثية (اللامعقول) كما في شخصية بطل " القبو" و " صهيل الجواد " ويوسف في "البدوي" ، وينكر الأهل ابنهم كما في " ابتسم في وجهها المتعب" ويشهدون ضده أمام المحكمة كما في " الجريمة " .

وزيادة على ذلك تمتد شراسة الواقع نحو الحلم ، فتقتل الرغبات فيه ويتحول الى كابوس فظيع يساعد في استسلام الفرد وهزيمته ويظهر ذلك واضحاً في قصة " القبو " ، و " الاغتيال " ، و " الفندق " .

أولاً - الشخصية المحورية :

أ- الشخصية المثقفة :

تعتبر شخصية البطل المثقف الشخصية المحورية في أعمال زكريا مستلبة تماماً لرؤية الكاتب الفكرية (السؤال عن معنى الوجود ، والشعور بالاغتراب ، والظلم) أكثر من استلابها للحدث القصصي الذي يكاد يخبو في بعض القصص ، فجاء الشكل منبثقاً عن حركة رؤيوية تمازج فيها الشكل والمضمون في وحدة واحدة ، وتطابقا في التعبير عن أفكار الكاتب كما في قصة " الزهرة "[1] مثلاً ، التي تعبر عن رؤية الكاتب القائلة باستحالة الانبعاث في واقع التفسخ الراهن إذ تجسد المعنى في الشكل حتى وضعنا في صميم الفكرة التي رسمتها اليد الخشنة عندما حاولت أن تنبثق من التراب لتنتشي رائحة الطبيعة الجميلة، لكن خمسة رجال ومعهم امرأة وابنتها الصغيرة يتفاوضون على ممارسة الرذيلة في حين تثبت الطفلة (البراءة المدمرة) جدارتها وتفوقها على أمها . لذا ترتعش اليد الخشنة النحيلة وتنسحب هاربة نحو الظلمة والتراب .

---

(١) الزهرة ، (النمور) ، ص ٢٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولم تتحرك الشخصية من خلال عواطف خاصة تسيطر عليها بل على العكس من ذلك ، فلم يتفاعل الفرد مع الأحداث أو حتى مع مجتمعه بقدر ما هو قائم بذاته يملك همومه (الخاصة – العامة) ذات الملامح الوجودية أحياناً ، والتي تنسحب عليها هموم المثقف وأحاسيسه فقد عانى الفرد من استلاب روحي في الوسط الانحطاطي لهذه الطبقة والتي ظن الناس بقيامها يكون الخلاص إلا أن هذه الطبقة أخذت تتجذر وتبني مصالحها الخاصة متناسية مصالح الشعب ، لذا نما شعور باغتراب الوعي المتجاوز في بنية ثقافية تجمع (الإلحاد ، والميتافيزيقا ، والإقطاع ، والرأسمالية ، والقومية ، والوجودية ، والاشتراكية) هذه البنى – التي تعد المكونات الذهنية للبرجوازي الصغير – خلقت حالة من الشعور بالفراغ وانعدام الماهية عند المبدع الحساس المثقف[١] .

على الرغم من أن زكريا يعّد ابناً لهذه الطبقة على المستوى الاجتماعي – في المآل لا في الأصل – إلا أنه عبر عن حالة الاستلاب الإنساني ، والمعاناة الثقافية والاجتماعية التي يعيشها المثقفون من خلالها ، ورفض – روحياً ووجدانياً – كل وصوليتها وزيفها وقمعيتها وانحطاطهاعلى مستوى الوعي عنده .

وتجدر الإشارة إلى المقولة التي يرددها النقاد وهي أن هموم الفرد عند زكريا ذاتية جداً ولا تخدم المجتمع ، كما أن وحدته تعود لسبب خاص به لا ينسحب على الآخرين كمقياس . ومن هؤلاء نبيل سليمان وبوعلي ياسين في كتابهما " الأيدلوجيا في الأدب " ، ومحمد كامل الخطيب في " السهم والدائرة " ورياض عصمت في " الصوت والصدى " إلا أننا ننكر هذا الفهم لما نلمسه من ملامح للمثقف العربي ومأساته على صعيد الفرد ، فالشخصية الفردية لا يمكن إلا أن تعبر عن الفرد على المستوى الفني بينما على المستوى الاجتماعي للشخصية فهي تعكس الذات الاجتماعية لا الفردية ، لأن الفرد لا يوجد الا ككائن ، كما أن الكائن لا يوجد إلا كفرد ، والرؤية هي التي تعبر عن وعي فردي أو وعي جماعي ، ورؤية زكريا – في مجملها – تعبر عن وعي جماعي بصيغة فردية .

ويشترك أبطال زكريا بسمات عامة تجمعهم جميعاً رغم اختلاف ملامحهم كشخصيات في القصص، وهذه السمات تقودنا للقول بفردية بطل زكريا ، فالشخصية القصصية في

---

(١) للمزيد انظر : العالم القصصي لزكريا تامر ، ص٣٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المجموعات " صهيل الجواد " و " الرعد " تخوض حرباً ضد المجتمع بكامل أو جهه والفارق الوحيد أنه كلما تعمقنا بها كلما ازدادت سوداويتها وعبثيتها في واقع اجتماعي ، واقتصادي ، وسياسي مظلم ، فالشخصية دائمة البحث عن الثلاثي (الخبز ، والجنس ، أم الحب والحرية) في مواجهة الخصم (الثلاثي) الذي يورث (الجوع ، و الفقر ، والكبت) وتدور معظم الأعمال حول هذه الأزمات الثلاث ، تبلورها الفكرة المركزية " الفرد وحيد ضد المجتمع " فالسارد في بحثه عن الحب يصطدم بالكبت وهذا ما يفسر اندفاعه الجنسي نحو النساء الجميلات " أنا لا أحب سوى النساء اللواتي استطيع مضاجعتهن "[١] ويتمثل الحرمان الجنسي كذلك في قصة " وجه القمر " إذ تولدُ الكبت عند سميحة بفعل سلطة أبيها الذي ضربها وهي صغيرة بسبب انحسار ثوبها عن فخذيها ، وتبع ذلك تعرضها لحالة اغتصاب ، مما أدى إلى فشلها في زواجها .

في حين يرسم زكريا محاولة الخلاص التي تراود سميحة من هذا الكبت بتمنّيها الاختلاء - يوماً ما - بالمعتوه الذي يجوب الحارة ، وتتعرى أمامه بإرادتها وتمارس معه الجنس بحريتها ، ودون قيود . لذا فقد خلّف الكبت الجنسي رغبة في ممارسات غير مشروعة .

وفي بحث البطل عن الخبز يصطدم بكرهه للعمل الذي يسلب حريته ويحوله الى (شيء) مما يورثه الجوع والكآبة " لا أملك سيارة ولا بناية شامخة في شارع لا يسكنه الفقراء ... " [٢] ويظهر الجوع المميت عند عباس في " الرغيف اليابس " جوع للرغيف ممزوج بجوعه للجنس الذي يعاني من كبته فلا يستطيع ممارسته مع ليلى (ابنة عمّه) التي يحبها ، فجوعه للخبز المفقود فاق جوعه الجنسي ، لذا تخلى عن ليلى مقابل الانفراد بالرغيف . ويسبح الفرد بعالم من الأحلام تنفيساً عن الكبت الذي يعاني ، فيحلم كل من بطل "الكنز" ، و "صهيل الجواد " ، "والأغنية الزرقاء" ، "والمسرات الصغيرة " بأن يصبحوا ملوكاً ، وذلك لتعويض النقص الحاصل في الحاجات الأساسية والتي لا تتوافر - في هذا الوقت - إلا لمن يكون بمنزلة الملوك .

ونستطيع القول بأن كره السارد للعمل يكاد يكون مسوغاً من حيث طبيعة العمل الذي يمارسه - كما يرى زكريا - فهي طبيعة غريبة مستوردة ليست من فعل حضارته لحساب

---

(١) الرجل الزنجي ، ص١٥ .

(٢) صهيل الجواد الأبيض ، ص٣٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عدد من الناس ، وبسبب هذا الكره يتعرض البطل للجوع والفقر . « ... أشتغل في اليوم ثماني ساعات .. أتعب .. أبتلع طعامي بسرعة عجيبة .. »[١] .

وتتجلى أزمة الحرية التي تشكل محوراً رئيساً في معظم القصص ، فيرفض سلطة الأب المقيدة لحريته كما في " ثلج آخر الليل " ، ويرفض العمل كما في " الرجل الزنجي " ، ويرفض الزواج كما في " الصقر " و " صهيل الجواد " ، ويرفض السلطة السياسية كما في " التثاؤب " ، "ورحيل الى البحر" ، ويرفض القيم الاجتماعية كما في " موت الشعر الأسود" و " البستان" و " الراية السوداء " ، و" الخراف " ، ويرفض الظلم الطبقي كما في " الشنفرى" و " الليل " ، و " شمس للصغار " .

ورغم التحول من استخدام ضمير المتكلم إلى ضمير الغائب (الرواي) في مجموعتي " ربيع في الرماد " ، و " دمشق الحرائق " فقد انصرفت به بعض الهموم إلى الذات الموضوعية التي ترصد المشكلات الاجتماعية والأوضاع السياسية ، إلا أن هذا التحول بقي ظاهرياً فالذات الفردية برؤيتها وسلوكها بقيت في العمل على الرغم من اختفائها ظاهرياً ، لأن هذا التحول لم يستطع أن يمنح الشخصية سمات إيجابية ، بل بقيت مستلبة لسلبية مسيطرة ، وغير قادرة على الدخول في عراك مع العالم الخارجي ، فالشخصية عنده تواجه بنى قديمة مرفوضة لكنها لا تزيد على مواجهتها بالاندحار أمامها والاستسلام دون رغبة أو قدرة على المقاومة بسبب الاغتراب، كما في " الجريمة " و " النهر" و " القرصان" ، و "الحفرة " فما يكون منها إلا الهروب إما لعالم الخيال والأوهام كما في (" الكنز " ، " الاغتيال " و "البدوي " ، " رحيل إلى البحر " ، " أقبل اليوم السابع") ، أو الاستسلام للظلم والموت بطريقة بشعة (الراية السوداء ، الخراف ، مغامرتي الأخيرة ، الابتسامة) .

على الرغم من أن الفرد بشخصيته سلبي مسحوق إلا أن هذه السلبية مبررة ويمكن لنا اعتبارها إيجابية لأنها تظهر ضديتها للروح السلطوية الرسمية المتكلفة ، فتناوئ الرموز السلطوية على شكل خصومات الفرد مع السلطة والمجتمع حتى وإن كانت بالإشارة إلى موضع العيب والثغرة ببعض السلوكات البسيطة كالبصق كما في "الرجل الزنجي، الصيف"، أو التقيؤ كما في " القبو " أو الشتائم كما في " السهرة " أو بعض الألقاب المخزية كما في " المسرات الصغيرة " أو السخرية اللاذعة كما في " الأعداء " ، و "عباد الله" ، و " اللحى " .

---

(١) صهيل الجواد الأبيض ، ص٣٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالفرد في مواجهة الواقع عليه اللجوء إلى واحد من الخيارات الثلاث إما أن يصطدم بالواقع صداماً مباشراً يفرز الغالب والمغلوب، وإما أن يستسلم دون مقاومة ، وإما أن ينصهر في المجتمع ويجاري الركب ، والأخيرة يمكن اعتبارها السلبية المطلقة التي لم يلجأ لها زكريا في تبرير سلوكات شخصياته، كما يدرك أن الحل الأول محسوم النتيجة لصالح المجتمع بينما الفرد فمغلوب لا محالة فيفقد القص عمقه ودوره في التغيير ، لذا يبقى أمامنا الخيار الأوسط القابل للمناورة الفنية ، وهي التي تعامل معها زكريا بدراية جيدة .

وبذلك يكون سلوك الفرد مبرراً ، فالفرد بريء والآخرون هم المجرمون ، وهو الضحية والجماعة هي الجلاد . لذا يكون الفرد من وجهة نظر زكريا مُثلاً لعنصر الخير دائماً بينما الجماعة تمثل الشر . مهما كانت قوتها . لأنها ستفرض على الفرد ما لا يريد .

وبسبب من الوحدة التي تعيشها الشخصية لم تستطع أن تحقق تواصلاً حتى مع الأم التي يفترض أنها (نموذج الحب والحنان وسعة الصدر) كما لا يستطيع أن يحقق تواصلاً مع أحد ، فلماذا تنظر فتاة وشاب إلى " الرجل الزنجي " بازدراء ؟ . ولماذا لا يسأل عنه أحد من الأصدقاء ؟ لذلك ينعدم التواصل بينه وبين المجتمع وبالتالي ينعدم الفعل ، لذا تستلم الشخصية أمام الواقع مسحوقة محطمة وتنتهي إلى « كومة لحم بائسة لا يستطيع مساعدتها أي إله »[١] .

وتلجأ الشخصية الفردية إلى تلمس رفاق محددي الملامح من مثل الحصان الأبيض في "صهيل الجواد" ، و البحر في "رحيل الى البحر" والمقهى والشارع في " الأغنية الزرقاء ، و الرجل الزنجي ... ، والمرأة التي يمكن مضاجعتها (المومس) ، في "رحيل إلى البحر" ، و "رجل من دمشق " .

وتقسم الشخصيات في المجموعات القصصية إلى قسمين الشخصية المحورية التي يقوم عليها بناء الحدث ، وتستحوذ على اهتمام السارد كما أسلفنا والشخصيات الثانوية التي وجدت لخدمة الشخصية المحورية جذباً أو دفعاً والتي نستطيع تقسيمها إلى نموذجين اثنين : النموذج الجاذب كرجل الدين والمرأة ، والنموذج المرهوب كالأب ، والشرطي .

---

(١) القبر ، ص٣٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثانياً - الشخصيات الثانوية :

١. النموذج الجاذب

أ- شخصية رجل الدين :

تعتبر شخصية رجل الدين جاذبة تستأثر باهتمام الشخصيات الاعتبارية كأهل المدينة ، ورجال الحي ، والآباء والأمهات ، والحراس ، والحاشية وغيرهم فتكتسب تعاطفاً جماهيرياً بفضل ميزة تنفردبها عن عموم الشخصيات كالوقار البادي على على إيهاب الشيخ .

وقد استطاع زكريا أن يقيم علاقات منطقية متلاحمة بين وجود الشخصية (المظهري والباطني) وبين السياق الاجتماعي والذهني الذي يندرج فيه ذلك الوجود . « فالسمات المظهرية أو النفسية للشخصية سواء أكانت دقيقة مفصّلة أم إجمالية تكون دائماً متضامنة مع رؤية العالم التي تميز لحظة من لحظات الواقع »[١] ورجل الدين ذو لحية بيضاء طويلة ، وجبّة عريضة ومنظر مهابة ووقار ، والمتأمل يجد أن هذه الصورة تعبر عن نموذج الاعتزاز بالأصولية إلا أن الكاتب يقدمها على سبيل السخرية بأسلوب الدلالة المعاكسة ، التي يصف من خلالها شيئاً ليوحي بشيء آخر ، وينتقد الأيدلوجية الدينية كذلك ، كما في قصة " الخراف " إذ تتجسد هذه السلطة المعنوية بالشيخ محمد (دلالة الاسم) الذي لا غنى لأهل الحي عنه ، فيلجاؤون إليه وقت الشدة ويشعرون بجلال قدره وهيبة لحيته الطويلة البيضاء ، فيدعون له بطول العمر وينتظرون بلهفة موعد صلاة العشاء كي يصطفوا خلفه بخشوع ، كما لا يتوانون عن تقبيل يده ، فهو الأب الروحي للجماعة (أهل الحي) ، وبفضل هذه السمات ينجح الشيخ محمد في إحكام سلطته على أهل الحي، ويصبح البؤرة التي تستقطب الجميع ، فيقنعون بكل ما يقول وبكل توجيهاته .

وبذلك استطاع زكريا - بفضل السمات الجاذبة التي ألصقها برجل الدين - أن يقنع القارئ بأن هذا النموذج المتعاون مع الشخصيات الاعتبارية الأخرى ، استطاع أن يقمع الفرد ويهزمه .

---

(١) بنية الشكل الروائي ، ص٢٢٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ب - شخصية المرأة :

تعد المرأة نموذجاً للشخصية الجاذبة للفرد المزق الذي يحاول التنفيس عن كبته برصد الملامح الجمالية فقط ، وذلك لأن مظهر الجذب لم يتعدَ الصفة المظهرية ، فعمل الكاتب على إبرازه من خلال تركيزه على درجة التناسق والتناغم في جسد المرأة ، (شدة بياض الجسم ، وسواد الشعر الطويل ، وسعة العينين ...) أما عن السمات النفسية الداخلية للمرأة فقلّما جرى الحديث عنها لاعتبار الكاتب أن هذه الشخصية لا تشكل وزناً في العمل إلا على سبيل الجذب فقط ، فلم يسخرها للتأثير في الحدث ، بقدر ما أبقاها موضوعاً جنسياً خاضعاً لرغبات الرجل (الرجل الزنجي ، والرغيف اليابس ، والشنفرى ، وحقل البنفسج) .

فالمرأة لا تسترعي الانتباه ولا تثير الإعجاب إلا بقدر ما يكون حظها من الجمال وحسن المظهر ، حتى وإن حظت الشخصية النسوية على درجة من الذكاء إلا أنه لم يول ذلك عناية ، باستثناء الإشارة إلى عائشة ابنة عبد الله الحلبي بأنها طالبة جامعية[١] .

لذا تعد سلطة الجسد محور الاستقطاب بالنسبة لعلاقة الفرد بالحياة ، وسواء أكانت المرأة حيَّة ظاهرة في العمل ، أو مجرد خيال يعتري ذهن البطل ، أو حتى تمثال من الجصّ (رجل من دمشق) فهي لا تقوم إلا على أساس جاذبيتها المظهرية .

٢. النموذج المرهوب :

على الرغم من التقسيم الظاهري لنماذج الشخصيات الثانوية إلا أن هذين النموذجين يتفقان في الهدف رغم اختلاف الصورة . فرجل الدين مثلاً يشترك مع الشرطي والأب في قمع الفرد وتحطيمه ، ولنأخذ نموذجاً :

أ- شخصية الأب :

يعد الأب نموذجاً سلطوياً بارزاً في المجموعات ، وذلك لأن بطل زكريا رافض لشتى القيود الأسرية والخارجية ، فوالد يوسف في " ثلج آخر الليل " يبيع المذياع مع علمه أن المذياع هو الصديق الحميم لابنه ، كما يقف للحيلولة دون تمتع يوسف بقراءة الكتب لأنها مضرَّة بالعقل ، ومنحه حرية التدخين . وفي " قصة الصقر " يخشى البطل والده الميت ويتخيل أنه يخاطبه صارخاً في وجهه (قوة حالة أزلية) آمراً إياه بالكف عن التدخين .

---

(١) الخراف ، ص١١٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد ركز الكاتب على نفوذ الآباء الممارسة على أبنائهم وزوجاتهم داخل البيت ، بينما لم نجد صدى لصورة الأب وسلطته خارج البيت ، ويعود سبب ذلك إلى أن الأب يتعرض في الخارج لقمع شرس من قبل المسؤولين عنه في العمل ومختلف المؤسسات ، فما يكون منه الا أن يمارس دوره في قمع أهل بيته كنوع من تخفيف الكبت ، فيبقى الجميع في حالة صراع مستميت .

ب - شخصية الشرطي :

وهي رمز السلطة القمعية التي تمارس واجبها في الخارج ورمز القوة الحالّة في الوجود لشر أزلي ، وعداء للفرد أينما كان وكيفما كانت ظروفة .

ويشتد ظهور هذه الشخصية في مجموعة "الرعد" ، و "دمشق الحرائق" ، و " النمور في اليوم العاشر" فصورها بأنها تمارس قمعها بلا عقلانية ، وأنها فاعل مطلق لا يقف في وجهها أي عائق ، إذ تستمد قوتها من وجودها ذاته والذي أبرزه زكريا منذ البداية في قصة "الذي أحرق السفن " فقوّة وجود الشرطي مستمدة من قوة وجود الكون ذاته ، وقوته هذه لا تزول أو تضعف سواء أمام الفرد الذي على قيد الحياة أم الذي يرقد في القبر من مثل : إعدام البطل في " الصقر " لأنه تشاءب ، واعتقال عمر السعدي في " النهر " دون تهمة مسبقة وقدرته شبه الآهيّه تمكنه من استدعاء الموتى وكسر حواجز المعقول " المتهم - عمر الخيام " ويوسف العظمة في " الاستغاثة " ، ومحاكمة أبطال التاريخ بحثيثات جديدة كما في " الذي أحرق السفن - طارق بن زياد" و " الجريمة - سليمان الحلبي " أو الجمادات كما حاكم الشرطي دمية الطفل في " المتهم " كنوع من التنفيس الداخلي الذي يسلمه للتسلط لأنه اليد المنفذة لأصحاب القرار .

وبقوته تلك يبقى ويدوم في الأزل بينما ينتهي الفرد سواء بإرادته أو دون إرادته .فالعلاقة قائمة بين الفرد والشرطي (رمز القوة) - كما يراها زكريا - على صراع الوجود الذي عادة ما يختتم لصالح الشرطي .

فالفرد معاقب على وجوده قبل أن يعاقب على أفعاله كما يتحرك الشرطي في وسطه الخاص (السجن ، والمحكمة ، والقبر والشارع) فيحاصر الفرد حصاراً مميتاً لا يستطيع الانفلات منه ، حتى وإن حاول فسيكون الموت بانتظاره كما في "عباد الله " ، و " الشرطي" و " الحصان " .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثالثاً - الشخصية التاريخية :

لقد أعاد زكريا تامر صياغة التاريخ من جديد فما عاد تاريخ السفّاحين عبر العصور مداناً إذا ما خضع لظروف الواقع الحالي بتناقضاته .

واستخدم زكريا نموذجين من الشخصيات التاريخية النموذج الإيجابي ممثلاً بالأبطال ، والنموذج السلبي ممثلاً بالسفّاحين ، على اعتبار مردهم في الأصل أنهم أفراد يواجهون مجتمعاً مليئاً بالمتناقضات : ـ

أ- النموذج الإيجابي :

لقد وظف زكريا بعض نماذج البطولة التاريخية ، توظيفاً عكسياً . فجعل من طارق ابن زياد ، وعمر الخيام ، وعمر المختار ، وسليمان الحلبي ، ويوسف العظمة ، شخصيات مجرمة في الحاضر ، فلو قدر لهذه الشخصيات أن تعيش في الوضع الراهن - لما استطاعت أن تحقق بطولاتها المنوطة بها - ربما هذا ما يريد قوله زكريا - لا لأنها لا تملك القدرات النضالية بل لأن الواقع أشد ظلماً وقسوة ، لذا فسر تلك البطولات على أنها إجرام وخروج على القوانين ، كما فسر الإخلاص على أنه تآمر على الدولة ...

وبذلك يتضح لنا الحاضر ببيروقراطيته وانحطاطه الذي يشوه كل المفاهيم والقيم البطولية ، كما يسلخ سمة القداسة عن التاريخ وبطولاته ، فلا يكون من الشرطة إلا إعتقال الأبطال من الشوارع والقبور دون مراعاة لكرامتهم .

ب - النموذج السلبي :

اعتبر زكريا تامر النماذج التاريخية السفّاحة نماذج إنسانية مظلومة تستحق التعاطف معها ، كما برر سلوكها الإجرامي على مرّ العصور بأنه ردة فعل لواقعها المؤلم، الذي يضطرها أن تسلك مسالك الشر كي تدافع عن نفسها أمام شراسة العالم المعاصر، فجنكيزخان مثلاً لم يتوج ملكاً إلا بعد أن ذاق مرارة الجوع وتيمورلنك لم يجتح المدينة طمعاً وتجبراً بل رحمة بالحلاّقين الذين كسدت تجارتهم بسبب تمسك أهل المدينة باللحى .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتنطلق فكرة تبرير سلوكات الفرد على شخصية شهريار إذ دفعنا زكريا للتعاطف مع هذه الشخصية مجانبين في ذلك الحقيقة الأسطورية التي قتلها الفراغ فعاثت فساداً وتلذذت في ذبح النساء ، فجاء شهريار نموذجاً للبطل المدافع عن مدينته المضحي بشهرزاد في سبيل إنقاذ المدينة ...؟ !!

كل ذلك جاء في قراءة زكريا الخاصة للتاريخ ؛ يخدم - من خلالها - مصلحة الفرد على حساب الجماعة ، حتى وإن كان ذلك على حساب قلب الحقائق التاريخية ، إذ يحق له التلاعب بالتاريخ لخدمة أهدافه الفنية ورؤيته الفكرية ، وبذلك يكون الفرد بريئاً عبر التاريخ إلا أن الواقع المؤلم يجعله يسلك سلوكات شرسة .

رابعاً - الشخصية الشعبية :

استمد زكريا تامر بعض شخصياته من البيئة الشعبية الشامية وعكس من خلالها واقع الحياة الشعبية البسيطة المحيطة به .

واستند في رسم شخصياته الشعبية على الوصف التصويري إذ أظهر من خلاله ملامح الرجل الدمشقي ، وصفاته الرجولية " القبضاي " ، كما أطلق على الشخصيات أسماء ذات بعد دلالي واضح يميزها عن غيرها من الشخصيات من ذلك : أبو شكور ، أبو صياح ، أبو كاسم ، أبو حسن ، عمر السعدي ، عبد الله الحلبي ، مصطفى الشامي ، فقدّم هذه الشخصيات من خلال نموذج الشخصية الشعبية البدائية التي تتصف بالجلافة والوحشية المعتمدة على القوة العضلية .

وظهرت هذه الشخصية في مجموعة "دمشق الحرائق" واتسمت بالوحشية واللاإنسانية في مواجهة القيم الجديدة ، فمارست دور الشر والقتل كما في " الراية السوداء " و " موت الشعر الأسود " و " الخراف " .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اللغة والسرد والحوار

يرى النقاد أن القصة تحيل الواقع إلى عالم ساحر ، وأن اللغةفيها وسيلة لصنع الرموز التي تلتحم معاً لصنع الحركات والشخوص [١] .

تعد اللغة المصدر الأساسي في بناء العمل الإبداعي ، إذ تنبع أهميتها من سيطرتها على الشكل الخارجي للعمل الفني ، فهي ليست مجرد ناقل أو مادة خام تقدم عناصر العمل الفني بل هي العنصر الأساسي الذي يكشف العالم الداخلي ، ويوحِّد بينه وبين العالم الخارجي كما أن اللغة تختلف عن بقية العناصر الفنية بأنها الوعاء الحامل لفكر الإنسان ، وهي القادرة على جعل الماضي واقعاً معاشاً ، كما أنها تمتد بالحاضر إلى رؤية مستقبلية مشحونة بالتوقعات ، وتمتاز كذلك بالدينامية في بنائها ، فتشكل تجانساً في العمل من خلال أدوارها ، وعليها أن تكون منسجمة مع أسلوب الكاتب في رسم شخصياته [٢] .

لقد جاءت لغة زكريا تامر مليئة بالحدة والتوتر ، ناقلة لنا أنماط القهر والاضطهاد والتمزق الإنساني الذي تعانيه الشخصية القصصية ، عاكسة لنا نفسية أبطاله المهزومين الذين يتسمون بالسادية والعدوانية أحياناً ، والانهزامية أحياناً أخرى . وذلك لأن موضوعاته تدور حول قضية انهزام الإنسان وتمزقه أمام مجتمعه ووجوده وذاته ، وأن عالمه قائم على القتل (موت ، انتحار ، إعدام) ، والجوع (الفقر) ، والاغتصاب (الكبت) .

وقد تميز زكريا بقدرته على استعمال مفردات اللغة العربية بشكل كبير ، وتشكيل الصور التعبيرية والرمزية المثيرة مما يجعل القارئ يحس وكأنه في عالم من الأساطير والرؤى والسحر مع العلم أنها صورة من العالم اليومي المألوف [٣] .

ومن الجدير بالذكر أن مستوى شخصياته التي تنتمي إلى البرجوازية الصغيرة، قد فرض على لغة العمل القصصي عبئاً إضافياً، فبطل زكريا البرجوازي الصغير، المثقف،

---

(١) نبيلة إبراهيم ، نقد الرواية ، النادي الأدبي ، الرياض ، ١٩٨٠ ، ص ٢٥ .

(٢) د. إبراهيم السعافين ، لغة السفينة مجلة الأقلام ع٢ ، ١٩٨٩ ، ص ٧٥-٧٦ .

(٣) د. سمير قطامي ، أزمة الإنسان في قصص زكريا تامر ، مجلة دراسات ، مج ١٠ ، ع١ ، ١٩٨٣ ، ص ٢٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مـأزوم الفكر والحيـاة ، ويعيـش في صراعـات عدة ، لذا جـاءت لغـة زكريا من مـستـوى هذا النمط حتى إن هذا المستوى من اللغة قد فرض على بقية الشخصيات ، ومع علمنا بضرورة أن تكون اللغة مناسبة للمستوى الفكري لكل شخصية على حدة ، إلا أن زكريا تامر تجاوز ذلك ليفرض لغته الخاصة (الفصيحة ، دون اللجوء إلى العامية تقريباً) على جميع الشخصيات سواء أكانت رئيسة أم فرعية ، مثقفة أم شعبية ، محتفظاً بالمستوى الفكري لكل شخصية للدلالة عليها .

لقد امتازت لغته بالانفعالية وهي الشائعة في الأدب لأنها تجسد الانفعالات إزاء موضوع معين ويسميها البعض باللغة الشعرية لأنها تمتزج بحالات الشعور وتنوعاته (الرمزية ، التكثيف ، الحدس ، التصوير ...) . وباعتماد اللغة القصصية على العناصر الإيحائية صارت القصة وسطاً بين القصة والشعر ، إذ أصبح الكاتب يولد جملاً شعرية ذات كثافة عالية ، وخصوبة بيانية وصور إيحائية وذلك عندما يمازج بين الفكرة والإحساس .

واللغة الشعرية تباين اللغة التقليدية ، فهي لغة ذات جمل قصيرة متلاحقة ، متوترة مكثفة ، غنية بالإيحاء ، كما تشارك في صياغة الحدث وتوظف الأسطورة وتعمد إلى التكرار ، وتوظف الكلمات توظيفاً جديداً [١] .

والقصة الشعرية ليست أكثر من لحظة شرود ذهني ، تشغلتها التداعيات ، وصورها الحوار الباطني مع الذات . ولغة القصة الشعرية عبارة عن دفقات شعرية تتنارع بجملها القصيرة مع النبض القصصي والتصاعد النفسي للشخصية المتوترة. ويُعَدُّ زكريا تامر شاعر الرعب والجمال [٢] لأنه يدنو بالقصة من وضع الشعر ، فقصته جاءت على شكل منمنمات صغيرة وأساطير محدودة ، تلعب الصورة الشعرية فيها دوراً هاماً في ترجمة الأفكار إلى مواقف محددة .

---

(١) إيمان القاضي، السمات النفسية والفنية للرواية النسوية في بلاد الشام (١٩٥٠-١٩٨٥) ر . ج ، جامعة دمشق ، ١٩٨٩ ، ص ٢٨٧ .

(٢) صبري حافظ ، نقلاً عن : ماهر شفيق ، الجنس في القصة العربية المعاصرة ، مجلة الأسبوع الثقافي ، ع ١٠٤ ، ١٩٧٥ ، ص ١٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبما أن العلاقة التي تحكم الفرد مع الآخرين في عالم زكريا هي علاقة صدام وصراع وجودي ، فإن لغة هذا النمط لم تخرج على كونها لغة غرائبية مجردة من مثل كثرة استخدام « بشر، كائنات، مخلوقات ... » فهو إذ يبتعد عن المألوف في اللغة ويستخدم مفردات الحلم والكوابيس بتوترها ولامعقوليتها كما تفارق دورها في التعبير لتشارك في صنع الحدث ، وتعميق الإحساس به ، فتغدو اللغة صرخات مدوية تزلزلنا وتوقظ أحاسيسنا عندها، فلم تعد الشمس تبعث بنورها للصباح بل لتغتال الناس وتشترك مع العوامل الأخرى (رجال الشرطة) في سحق الإنسان . بذلك تتحول اللغة بين يدي زكريا من أداة تعبير إلى فعل تفجير وتدمير . يقول بطل قصة «النهر ميت» عبر تيار الوعي الجارف « حقدي يتسلق صخور جبال موحشة ، الجراد يطفئ أفراح الحقول ... النهر ميت ، تمزق القناع ، هذا وجهي ، أنا ذبابة المدينة ، النهر ذو الشفاه القاتمة الذي غمر لهيبها الشرس ، صبية نضرة كسنبلة خضراء ، كانت نائمة ، غير أن لحمها الأبيض أوقظ شمساً مجنونة ، ركضت في شوارع الدم المرتعد »[١] . ويأتي تعقيب على لسان السارد في قصته القرصان « وابتدأت مدية الليل تنغرس في قلب النهار وتساقطت العتمة ثلجاً أسود »[٢] . وفي قصة العصافير يروي السارد حكاية بنت اسمها ندى « وجهها أبيضٌ لفرح خفي ، يجعلها تضحك مبتهجة فتنحدر النجوم من أعلى ، وتختبئ في شعرها الأسود المديد »[٣] . كما أن الموت من وجهة نظر أبي مصطفى « وردة من ثلج مختبئة في شرايينه ، وها قد جاء صاحبها .. وكان الحزن آنذاك حمامة ترتدي ثياب الحداد ، وتطير هلعة تحت أمطار غزيرة »[٤] . ويقطب طارق بن زياد جبينه « بينما كان الدم المتدفق في شرايينه رعداً شرساً »[٥] ... ويطول بنا الاستشهاد حول لغة زكريا الشعرية التدميرية الغرائبية .. وهذا ما سنلمسه لاحقاً .

ويجدر بنا أن نلقي الضوء على بعض الأساليب اللغوية التي صاغ بها كتاب القصة أعمالهم ، ومدى انعكاسها في أعمال زكريا .

---

(١) النهر ميت ، ص ١٠٢ .

(٢) القرصان ، ص ٨٧ .

(٣) العصافير ، الرعد ، ص ١٠٩ .

(٤) السجن ، ص٨ .

(٥) الذي أحرق السفن ، ص ٢٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

السرد والحوار :

يعد السرد والحوار من أهم العناصر الفنية في العمل . وأبرز الأساليب السردية هي : الطريقة الملحمية التي يتولى الراوي - من خلالها - سرد الأحداث بضمير الغائب ، فيرسم شخصياته من الخارج ، ويشرح عواطفها وبواعثها وأفكارها ، كما يعقب على بعض تصرفاتها ، ولا ينسى أن يعطينا رأيه صريحاً في بعض الأحيان وتعتبر هذه الطريقة الأكثر شيوعاً في السرد .

والطريقة الثانية هي : اعتماد السرد من خلال ضمير المتكلم ، فتعبر الشخصية عن نفسها دون اللجوء إلى وساطة[١] . وهناك من يعتبر هذه الأساليب كلاسيكية بالنظر إلى عدد من الأساليب التي ظهرت بظهور الرواية الجديدة ، وهي الارتداد إلى الماضي (الاسترجاع) والقطع المكاني والزماني ، والمراوحة بين الحلم والواقع ، وتيار الوعي ، والمنولوج (الحوار الأحادي) [٢] .

لقد نوع زكريا في استخدام الأساليب السردية ، فاستخدم أسلوب السرد المباشر وغير المباشر ، ونستطيع القول بأننا لمسنا حضوراً واضحاً للسرد من خلال ضمير المتكلم في مجموعته الأولى « صهيل الجواد الأبيض » إذ يكاد يغلب هذا الأسلوب على القصص جميعها ، وذلك لانسجامه مع المضمون ، الذي يهدف إلى تسليط الضوء على عنصر الشخصية أكثر من الحدث .

إن وظيفة السرد والحوار هي الكشف عن مستوى الشخصية ، وتحديد طبيعتها إلا أن الوسيلة الفضلى لقراءة فكر الشخصيات هي الحوار . والحوار ذو شقين : الحوار الخارجي الذي يدور بين الشخصيات ، والحوار الداخلي الذي يدور مع الذات (المنولوج) وقد اعتمد زكريا على السرد الذي يقوم على تيار الوعي والمنولوج ، بينما نلحظ ضآلة استخدام الحوار الخارجي (بين الشخصيات) في المجموعة الأولى - مثلاً - ويعود سبب ذلك إلى أن البطل قد قطع علاقته مع العالم الخارجي ، واقتصر علاقته على ذاته فقط ، لذا جاء حواره معها ، وذكرياته، وتخيلاته ، كما حاور شخصيات مغيبة وذهنية كشف من خلالها عن أزمته

---

(١) بيرسي لوبوك ، صنعة الرواية ، ترجمة : عبد الستار جواد ، دار الرشيد ، بغداد ، ١٩٨١ ، ص ١٢٤ .

(٢) د. إبراهيم السعافين ، تطور الرواية العربية الحديثة ، ص ٢٦٥ . وانظر أيضاً : لغة السفينة ص ٧٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

النفسية وانهزامه كما في قصة " القبو" عندما حاور شخصية ذهنية تدعى ماريا . فظهر من خلال الحوار محاولة التعبير عن رغباته الجنسية المكبوتة إلا أن هذا الحوار ينتهي بكابوس مرعب [١] .

وبسبب من توجه العمل الروائي والقصصي نحو المنظور النفسي الذاتي ظهر الأسلوب التعبيري الجديد (المنولوج الداخلي) -كما أسلفنا- والذي تطلق عليه سيزا القاسم «الأسلوب غير المباشر الحر » الذي يجمع بين الأسلوبين الكلاسيكين اللذين قام عليهما فن القص وهما السرد المباشر وغير المباشر ، وأضحى الكاتب يملك حرية أكبر في نسج كلام الشخصية داخل كلام الراوي ، كما فيه تعبير عن مشاعر الشخصية وعواطفها بلا وساطة [٢] .

وتستطيع الشخصية التعبير عن أفكارها المكنونة (اللاوعي) دون تنظيم منطقي ، أي تتحرر من قيود التنظيم والترتيب ، كما أنه بفضل هذه الطريقة يمكن دراسة الشخصية الإنسانية وعرضها برسم القطع الداخلي لحياتها العقلية والنفسية .(الشعور واللاشعور) [٣] .

ويشترك تيار الوعي بهذه الصورة ، إذ يبنى على تداعي الخواطر وتشابكها مفتقداً المنطق والتسلسل المألوف ، فتتحدث الشخصية بطريقة التداعي الذهني والشعوري لتكشف عن طبيعتها تجاه الشخصيات الأخرى وتجاه الأحداث قصة « البدوي » . هذا وقد شبه روبرت همفري قصص تيار الوعي بجبل الثلج الذي يطفو على سطح الماء ، وتيار الوعي ما هو إلا ذلك الجزء الذي يرقد تحت سطح الماء من هذا الجبل [٤] . وحتى لا يجرفنا تيار التشتت تجدر الإشارة هنا إلى أن تيار الوعي يعد أشمل من المنولوج ، أي أن المنولوج جزء من تيار الوعي ، كما أنه ليس كل تيار وعي منولوج . وما يهمنا هنا هو الالتفات إلى العلاقة بين المنولوج وبين حالة التأزم والقهر والاغتراب التي يعيشها البطل القائمة على الجدلية ، فيرتد البطل على نفسه ليعيش معها بطريقته الخاصة . كما نلمس من خلال هذه الطريقة الجديدة (المنولوج وتيار الوعي) الحس الوجودي ، والصور السريالية ، والعبثية والتعبيرية والنفسية والحلمية والكابوسية التي تسيطر على البطل ويتقوقع بداخلها وهذا ما سنراه لاحقاً .

---

(١) القبو ، ص ٣٢ .

(٢) سيزا قاسم ، بناء الرواية (دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب) ط١ ، دار التنوير ، بيروت ، ١٩٨٥ ، ص ٢١٨ .

(٣) محمد يوسف نجم ، فن القصة ، ص ٧٩ .

(٤) روبرت همفري، تيار الوعي في الرواية الحديثة، ترجمة : محمود الربيعي، ط٢، دار المعارف بمصر، ص١٩-٢٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من ذلك نستطيع القول إن عالم زكريا القصصي يقوم - ببنائه - على تيار الوعي والمنولوج .

لقد استعانت الشخصيات على ذلك بلغة تتناسب ونفسيتها الممزقة السادية في كثير من الأحيان ، من ذلك «كومة لحم بائسة» ، «مخلوق ضائع في زحام مدينة كبيرة» ، « عدو المدنية المجهول الذي يذرع طرقاتها كضبع جائع » .

وتكثر في قصص زكريا الألفاظ الدالة على أنماط الوحدة والغربة والعزلة والكآبة ، والشقاء ، حتى إننا لا نستطيع أن نلحظ جملة تخلو من هذه الألفاظ ، وكلها تصب في انهزام البطل أمام ذاته ومجتمعه سواء أكان هذا الالتزام مبرراً أم غير مبرر من ذلك : « وحيد ككلب الأسواق الأجرب .. يحتويني فراغ غرفتي ... سأموت .. وابتدأت أبتلع الحبوب الملساء الصغيرة وأنا أبتسم ابتسامة متشفية ... هي وحدها باستطاعتها أن تنقذني من تعاستي ... وكنت وطواطاً هرماً أعمى ، جناحاه محطمان لا أجد خبزي وفرحي » [١] .

فلا نجد دلالة توحي بها هذه الألفاظ أكثر من الإيحاء بالدونية والقزمية والحيوانية ، ففي المعجم اللغوي الخاص بزكريا تكثيف مركز على الجانب السوداوي الموغل في السوداوية ، فالدمار والخراب والظلام والرماد ، والرؤوس المقطوعة ، والسحب الممزقة ، والرعد والقنابل ، والطفولة المشوهة ، عالم مخضب بالسوداوية حتى إن قراءة قصة واحدة مثل « رجل من دمشق » تغني عن بقية القصص التابعة للمجموعة الأولى .

وللجمل في قصص تامر دلالات ورموز ، تساهم مع الألفاظ السابقة في خدمة رؤية الأديب لاغتراب الفرد ، فالأشجار في الشارع « كفت عن الغناء لحظة تحلق عدد من رجال الشرطة .. حول رجل يمشي على الرصيف سيفاً هرماً » [٢] كما « هربت النجوم من سمائنا وكف الأولاد عن اللعب، وتحول غناء العصافير إلى شهيق خانت » [٣] لحظة تحلق تيمورلنك بجيوشه حول المدينة ، فهول القادم وشراسته أفزعت النجوم، وأوقفت الأولاد عن اللعب ،

---

(١) [صهيل الجواد] ، ص ٣٥ .

(٢) الذي أحرق السفن ، ص ١٩ .

(٣) اللحى ، ص ٣١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وحوّلت الغناء إلى شهيق . بذلك اشتركت الطبيعة والطفولة في إدراك حقيقة القادم وخطره ، لذا ينتهي دور هذين العنصرين عند هذه الجملة ويبدأ بعد ذلك السرد بتفصيل الأحداث حول موقف الناس من هذا القادم والسؤال الذي يطرح نفسه لماذا لم تصب الشمس بالذعر كغيرها من العناصر ؟ لقد تعمدتْ أنا الراوي أن تبقي الشمس مشرقة وذلك لأن الشمس التي تعتبر من أكبر المظاهر الكونية لا ينبغي لها أن تفزع لخطر قادم على أناس جهلاء ، فهم يستحقون هذه النهاية (الموت) .

وفي قصة " النابالم " تساقطت قنبلة إثر قنبلة ، دمرت المقاهي والمآذن والمدارس والمستشفيات ... وأحرقت الليل والمطر ، غير أن أحمد أمر بقذف المزيد من القنابل » [١] .

فتساقط القنابل يحمل دلالة تعبيرية احتجاجية من قبل أحمد على الواقع والمجتمع وذلك عندما أحس بقمع صاحب البناية الممارس عليه ، وكبت حريته في إحضار من يشاء إلى بيته ، فبإسقاط القنابل يسقط أحمد غضبه على شكل صورة تدميرية .

أما نعيب الغراب في « أقبل اليوم السابع » [٢] ففيه دلالة تشاؤمية يحمّلها الراوي للبطل أينما حل ، لذا قرر البطل الانتحار كسبيل للخلاص غير أنه راجع نفسه فترة من الزمن (المقاومة) ليجوب البلاد ، إلا أن صوت الغراب (التطير والتشاؤم) لازمه ، فيدلل زكريا بذلك على أن الفرد مطارد بشؤم لا يعرف سببه منذ ولادته .

وفي قصة « إمرأة وحيدة » [٣] يعلمنا الراوي بأن عزيزة تخاف القطط السوداء ، ودلالة القط الأسود في موروثنا الشعبي تعني أن الجان متمثل في القط الأسود ، وفي هذه الجملة مفتاح القصة بأكملها فتستسلم عزيزة للعراف سعيد ، الذي يخبرها بأن مشكلتها لاتحل إلا برضى الجان عنها وبما أنها تخاف القطط السوداء لا بد لها من إطاعة العراف الذي أوهمها باستحضار الجان ، وتستسلم له دون مقاومة لعلمها بأن المقاومة تغضب الجان وهي تخاف من غضبهم كما تخاف القطط السوداء .

---

(١) النابالم ، النابالم ، ص ٥٣

(٢) أقبل اليوم السابع ، ص ٣٩ .

(٣) امرأة وحيدة ، ص ٣٤٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد أكثر زكريا من الإيحاءات والرموز في أعماله، فالنهر مثلاً يرمز للخلود ، والخلود قضية تثقل كاهل البطل المؤرق الباحث - دوماً - عن حقيقة وجوده فيقول بطل النهر ميت « آذار ، نيسان ، مايس ، الثلاثاء ، الأربعاء ، متى يتوقف هذا الركض المجنون ؟ سأدفن يوماً في حفرة ، ويظل النهر حياً ... ليتني نهر »[١] كما أن الشمس تحمل - في أكثر من موضع - دلالة الحرية .

أما في قصة « رحيل إلى البحر » فقد كثرت الإيحاءات والدلالات فحمّل زكريا دلالة البحر كل ما يقوله في مجموعاته حول فكرة الحرية المطلقة ، بطريقة فلسفية ، وحول المنشود من معرفة معنى الوجود « يا سيدي ، أعط دمي ضحكة طفل ، أعطني بحراً » ، إلاّ أن البحث عن البحر يضنيه ، « مياه البحر ستغسل الجسد ، شمس البحر ستصرع الحيوان وسيفقد الإنسان غباره ، ويصبح كما يشتهي ، طفلاً ، شاعراً، قديساً، بطلاً »[٢] إلا أن هذا البحث المستميت الذي كلّفه الوقوع في المخاطر أكثر من مرّة - لايستمر طويلاً فيعود أدراجه نحو مدينته البائسة، ويبدأ البحث عن عمل (القناعة التي فرضها الاستسلام) ولو قدّر للبطل أن يعثر على البحر لانتهت مسألة صراع البحث عن معنى الوجود ، ولقال زكريا كل ما يريد قوله ، ولما احتاج إلى كتابة المزيد من القصص .

لقد استخدم زكريا لغة الكوابيس التي تبتعد عن اللغة الواقعية لتلعب دوراً وظيفياً يظهر الواقع خارجاً على المنطق العقلاني ، فيمزج زكريا بين الشعر والحلم والرسم ويجمع بين التجريد الشعري وغرابة الحلم ، والإيحاء والرمزية ، والانتقال التدريجي من الحلم الشعري إلى حدود الكابوس كما في قصته القبو «وتغلغلت الموسيقا المرحة في الهواء الذي أستنشقه، ومن مقعدي القابع قبالة النافذة كنت أستطيع مشاهدة رؤوس أشجار عارية ، متجهة إلى السماء الصافية بصلاة خاشعة ، قالت المرأة : اسمي ماريا .. أترقص ؟
قلت : أنا لا أتقن الرقص .

وشرعت ترقص ، كان في جسدها إله راح يعبّر عن يأسه وعجزه وخيبته الأبدية ، في رقصة متنافرة ، مع إيقاع الموسيقا العنيفة وبدت في تلك اللحظة أكثر جمالاً من سماء قرمزية كبيرة .. وتسلل إغراؤها إلى أعماقي كموجة عطر ناعمة، واستولى عليّ حنين متوحش

---

(١) النهرميت ، ص ١٠٢ .

(٢) رحيل إلى البحر ، ص ٢٩٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إلى تجرع خمور الإله المجنون المختبئ في جسدها ... ، وفجأة فوجئت بتبدل بشع ، إذ أخذ اللحم يهترئ ويتفتت ويتساقط إلى الأرض قطعاً صغيرة صفراء كريهة الرائحة ، فأذهلني هذا التحول ، وتراجعت إلى الوراء مذعوراً ، واندفعت نحو باب فتحته بضربة من قدمي ، وانطلقت إلى الخارج تتبعني ضحكة باردة طويلة »[١] . هيهات لهذا البطل من خلاص يوقظهُ وينقذه من عالمه الكابوسي ، فها هي الأيدي الغريبة تتلقفه في الشارع وتجره نحو جثة يتهم بأنه قاتلها فينكر ذلك ويتساءل كيف له أن يقتل أباه » . إلا أن الصيحات الكابوسية تعلو مطالبة بشنقه ... ومن قمة التأزم يعود زكريا للواقع « وقبل أن تطلق صرخة هلع مدوية تشرق شمس كبيرة وتغدو السماء زرقاء رائعة، ويتلاشى الثلج الأسود. وفجأة يسمع صوت امرأة تناديه ، فيفتح عينيه ليجد أمه منحنية فوقه وتسأله إن كان بخير » .

إنها لحظة تحول الواقع من حال إلى حال ، تتبدل من خلالها الرقة والجمال بالبشاعة ، والألوان القرمزية بالصفراء ، والرائحة الطيبة بالكريهة .

ولا يقل الحلم أهمية عن العالم الكابوسي ، فكلاهما لغة اللاشعور كما أن في الحلم تحقيق مقنع لرغبة مكبوتة تكمن أهميته في الكشف عن محتويات اللاشعور والرغبات المكبوتة .

يراوح زكريا بين الحلم والواقع ويتعانق الحلم مع الرمز ليشكلا عالماً خاصاً ، كما استخدم أسلوب المراوحة الذي يعد من أهم الأساليب الفنية الجديدة واستخدم زكريا الصورة الحلمية الكابوسية ، فوظف أحلام اليقظة كذلك ، مراوحاً من خلالها بين المتناقضات ، وبين الماضي والحاضر، ونستطيع اعتباره خيالاً تعويضياً يشبع - البطل - من خلاله رغباته المكبوتة (الجنس ، الجوع ، الحرية) . ويتخيل بطل " الأغنية الزرقاء الخشنة " لو أنه توِّج ملكاً على المدينة ، فماذا عساه أن يفعل؟ لقد تكشفت لنا نفسية البطل التي تعاني الكبت والحرمان من خلال هذا التخييل ، فأول ماسيحققه هو أن يشبع رغبته الجنسية بزواجه من امرأة شاهدها في الشارع ، وسوف يعطي صاحب المقهى مبلغاً ليجدد فيه مقهاه (فقر ← إشباع = غنى) وسيسمح له بتسميته بمقهى الملك (إثبات الوجود) وسوف يهدم المعامل، وسيجمع الآلات

---

(١) القبو ، ص ٣٣ . كما يمكن متابعة مثل هذه العوالم الكابوسية في كل من : الكنز ، جرع ، الهزيمة ، الطفل نائم ، البدوي ..

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويدمرها (حرية) كل هذه الرغبات مبنية على عنصر تخيلي واحد ، وهو أن يكون ملكاً (قوة) يمثل من خلالها سلطة لا تعلوها سلطة أخرى . ويكون الحلم بالغنى من أجل ألاّ يجوع الإنسان « هل سأصبح غنياً ؟ ألن أجوع ؟ » [١] .

وفي « المسرات الصغيرة » يقرر البطل أن « لا بد إذن بالتمتع بمسراتي الصغيرة التي أخلقها بمفردي .. على الطاولة المجاورة يجلس رجل كهل .. لأتخيله مليونيراً متنكراً في تلك الملابس الزرية » [٢] .

وكما أن زكريا قد عبر عن مظاهر البشاعة الواقعية بأسلوب حلمي (الكابوس - اليقظة) فقد عبر بأسلوب سريالي يشير الغرابة أيضاً ، فيفقد المألوف قدرته الجمالية ، من خلال التوفيق بين صور متضادة ، وزعزعة الرؤى اليومية الثابتة ، لذا فقد وجد السرياليون منبعهم في اللامعقول ، والعقل الباطن بجنونه وأحلامه وهلوساته ، وهذيانه ، فغاصت في اللاوعي [٣] .

ويسرد الراوي في قصة « القرصان » كيفية هجوم الخناجر على الرجل - الشرير الشقي - في آن واحد ثم تتراجع بشكل خاطف منسحبة من اللحم ، فيتدفق الدم من خمسة ثقوب ، وتمزق الخناجر اللحم » [٤] وفي « رحيل إلى البحر » يقبل رجال نحو حسن بلا رؤوس صائحين : هذا قاتل الله ، ويجرونه نحو بناية صفراء الحجارة - هكذا بدت لعيني حسن - [٥] . في هذه المراوحة بين الكابوس والواقع تدلل على أن من يفقد رأسه يفقد حواسه جميعها وبذلك تسهل قيادته لخدمة أعداء الإنسان، ويلتقي حسن في القصة نفسها برجل لايدرك عمق حبه لحبيبته، ولا يحس أنها ملك له إلا عندما يصير دمها نبيذه، عندها يشرب دمها بسعادة تجري في عروقه [٦] . ويتعمق زكريا في رسم بشاعة الواقع الذي ينتهك

---

(١) الكنز ، ص ٩١ .

(٢) المسرات الصغيرة . ص ٥٦ .

(٣) نعيم عطية ، مؤثرات أوروبية في القصة القصيرة في السبعينات ، مجلة فصول ج٢، ع٤، ١٩٨٢، ص ٢١٦ .

(٤) القرصان ، ص ٩٦ ، وانظر أيضاً جنكيزخان ، ص ١٠٦ ، والعائلة ، ص ٢٦٧ .

(٥) رحيل إلى البحر ، ص ٢٩٣ .

(٦) رحيل إلى البحر ، ص ٣٢٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حرمة البشر ، إذ يرى حسن رجلاً ينتحب بحرارة ، وعندما يخلع الرجل معطفه ، يكشف عن جسد مشخن بجراح طويلة عميقة ، تطل منها رؤوس فئران ضئيلة الحجم ، فما كان من حسن إلا أن يبتعد عنه مهرولاً تحت المطر »[١] .

إنها صورة الواقع التي عكسها زكريا من خلال العبث والسريالية واللامعقول . والكوابيس ، والفنتازيا ، والرسم ، فجمع أدواته من الواقع لكنه لم يركبها تركيباً معقولاً ، بل ركبها تركيباً غير مألوف . فكيف تنمو الفئران في جسد إنسان ما ؟ . وكيف تتحول الفتاة إلى أفعى ؟ وكيف يأكل الإنسان لحم طفل ما ؟؟. بذلك فقد تلاشى الحدود بين العالم الخارجي والداخلي للشخصيات معبراً عن اللواعج النفسية التي تؤرق الفرد ، فاتسمت بطابعها السريالي المهجن بالفنتازيا والهلوسات المرضية القائمة على التشتت والتناثر ، وافتقاد التماسك في عالم قصصي هلامي لا يكاد يبين فيه الخيط الحكائي بوضوح . لذا فهناك علاقة وثيقة بين الفنتازيا وعلم النفس ، وعلى الكاتب أن يقنعنا بأن غير المألوف هو المألوف والعكس صحيح ، وبما أن الفنتازيا خرق للقوانين الطبيعية يعكس جوانب من منطقنا أو قوانيننا المألوفة [٢] فقد وظفها زكريا كي يشير إلى بطله المريض نفسياً ، لذا لا بد من التحليل النفسي – علم اللاشعور – أحياناً . وعلم اللاشعور هذا عبارة عن لغة الإنسان بما هو راغب مقابل لغته بما هو عارف ، وتمتاز الصورة النفسية بمحدودية أسبابها وفرديتها ، وتعلقها بصاحبها كما في قصة "وجه القمر" فالسبب الذي يحرك مكامن خوفها ، واضح لديها تماماً ، وهو راسٍ منذ القدم (الطفولة) مترسب في عقلها الباطن ، لا ينكشف إلا من خلال التحليل ، فسميحة فتاة بسيطة تعرضت لقمع والدها في الصغر كما تعرضت لحالة اغتصاب ، فصار مجرد التفكير بالجنس يثير أعصابها وهذا ما يفسر فشلها في زواجها فيما بعد . وعلى وقع ضربات الفأس التي تحاول اقتلاع شجرة الليمون القديمة المزروعة في باحة البيت ، تبدأ ملامح الكبت لدى سميحة بالظهور على شكل تيار الوعي والتداعيات وذكريات الطفولة ، ومع كل ضربة من ضربات الفأس تتخلص سميحة من نقطة من نقاط ضعفها ، وذلك بالتناغم مع صوت المعتوه الذي يوقظ شهوتها الجنسية شيئاً فشيئاً ، وبتوالي ضربات الفأس الممتزجة بصراخ المعتوه تتناغم هذه الضربات مع الضربات النفسية الداخلية عند سميحة ، فكلاهما يقتلع موروث الطفولة (الشجرة التي تحمل ذكريات الطفولة (اللعب حولها) ، ونفسيتها التي باتت تتخلص من قمعها وكبتها ، كل ذلك يتم من خلال

---

(١) نفسها ص ٣٣٠ .

(٢) ت . ي . أبتر، أدب الفنتازيا (مدخل إلى الواقع) ترجمة: صبار السعدون، دار المأمون، بغداد، ١٩٨٩، ص١٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تتابع الجمل الشعرية ذات الدفقات المتنامية والمتصاعدة في نفسيتها نحو التخلص من مرضها (الكبت) ، حتى تصل إلى مرحلة (الخلاص) تتمنى فيها أن تختلي بالمعتوه وتتجرد من ملابسها أمامه بكل شجاعة وتشبع رغبتها الجنسية المكبوتة بسادية مرعبة يتحول خلالها المعتوه « إلى طوفان من المدى ، يجتاح جسدها ممزقاً لحمها على مهل ثم يتركها وجاً لوجه مع الرعب الهرم »[١] .

ويستطيع بطل زكريا ممارسة احتجاجه على من هم أضعف منه كالمرأة أو الحيوان أو الجمادات (الدمى) .

فيوسف في قصة البدوي أحس بضآلة نفسه أمام سميرة التي تحبه لكنه لا يستطيع أن يفكر بالزواج منها لأنها ابنة رجل غني (صراع الطبقات) فما كان منه إلا أن عبر تعبيراً احتجاجياً بأن أمسك دمية وتأملها ، فطغى عليه سخط وحشي لعلمه أنه لن يكون في الأيام القادمة سوى مخلوق مهمل .. فأخرج من درج الطاولة مدية وفصل بحدها رأس الدمية . وبسبب إحساسه بالضياع وفقدان ماهية الوجود يعبر تلك التعبيرات السادية ويتصرف بعدوانية شرسة كنوع من الانتقام من الوجود (اغتصاب سميرة والهرب) .

يتضح للدارس أن معظم قصص زكريا تبدأ من لحظة معقولة ، فالشرطي يدخل المقبرة مخاطباً عمر الخيام الميت (المتهم) ، ويتحاور البطل مع والده الميت في المقبرة (القبو) . فتسير القصة من عالم المعقول إلى عالم اللامعقول . وكأنها تفيض بواقعية سحرية تراوح من خلالها في الحدث الصغير بين الواقع واللاواقع ، ونلحظ عكس ذلك في قصص أخرى إذ يبدأ زكريا القصة من اللامعقول لتتجول الأحداث عبر الواقع المعقول ، في محاولة للانسجام معه لكنها تفشل في إيصال العالمين معاً كما هو في «ابتسم يا وجهها المتعب» والتي يجعل فيها مسألة التنقل بين الحياة والموت مسألة إرادية بيد الفرد «ماذا سأخسر لو عدت إلى العالم »[٢] .

وفي قصة "مغامرتي الأخيرة " نموذج آخر من نماذج تحطيم قواعد المعقول فيسخر من خلالها بالواقع ويتكئ على اللامعقول في بيان سخف ماهية الوجود ..ويسرد البطل حكايته

---

(١) وجه القمر ، ص ١٠٠ .

(٢) ابتسم يا وجهها المتعب ، ص ٤٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الغريبة بضمير المتكلم ، إذ يشتري بيضتين من أحد الباعة إلا أن البيضتان تقعان وتتحطمان ، فيتشاءم الرجل الجائع ويخرج من البيضتين منكر ونكير (تراث ديني) اللذان يبادران بالاعتذار للبطل الجائع بأنهما قدما خطأ إليه، إلا أن البطل يقرر أن البائع قد غشه ، فماذا يفيده الخطأ في حين خسر البيضتين ، ويذهب إلى البائع ليجده قد مات . وفي سيارة الإسعاف يدور حوار بين الميت والبطل الذي يصرّ على استرداد نقوده وعندما لا يجد تجاوباً يلقي بالجثة من السيارة ويتمدد مكانها ليجد نفسه بعد ذلك ممدداً في مكان مظلم (القبر) ويلتقي مرّة أخرى بمنكر ونكير . وتبلغ السخرية من الحياة والموت حدّها عندما يتعاقد (البطل الميت) مع الجرذان بأن يعطيها أطرافه مقابل أن تحضر له راديو ...[١] وهكذا ومن خلال هذه الصياغات الملينة بالإيحاء والعبث واللامعقولية استطاع زكريا أن يتجاوز القصة التقليدية إلى القصة التعبيرية .

لقد كثرت الأنماط اللغوية السردية التي استخدمها تامر في لغته إذ أسهمت مجتمعة في تشكيل عالم القصة وفي تحقيق بنيتها الدلالية ومن أبرز هذه الأنماط : **السرد الوصفي** الذي يعتمد أسلوب الرسم والفن التشكيلي فتتلاحم هواجس النفس ، وملامح الحياة ، مع مناظر الطبيعة وحركاتها لدرجة أنه يمزج بين المشهد الطبيعي والحدث ، ويحول الحركة من فعل الحدث إلى المشهد المتعدد الألوان ، ذات الدلالات المختلفة والتي تعكس بدورها وقع كل لون على نفسية البطل ، فحياة الكادحين والمدن الممزقة هي المعادل الموضوعي لتمزق البطل الداخلي ، فلا يرى ما يراد الناس ولا يستطيع الناس أن يروا ما يراه ، وكأننا بزكريا تامر رسام مبدع يتقن رسم المناظر الطبيعية كما يتقن مزج الألوان معاً ، فيخرج بلوحة بديعة .

وفي حالة من هدوء نفس البطل ووداعته نرى اللوحات اللغوية هادئة بديعة إيجابية أيضاً « وجه القمر يحتضنه شعر أسود متهدل بفوضى ، عينان خضراوان »[٢] . وشاهد أحمد في « سيرحل الدخان » « الصيف ، وكان طفلاً ذهبي الشعر والوجه ، يلعب على شاطئ رملي »[٣] .

---

(١) مغامرتي الأخيرة ، النمور ، ص ١٣٤ ، وانظر أيضاً السجن ، و الصقر ، و الحفرة .

(٢) الأغنية الزرقاء الخشنة ، ص ١٣ .

(٣) سيرحل الدخان ، ص ٦٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وإذا اسودت الأشياء بنظر البطل فإنها تنعكس سلبياً على اللوحات اللغوية ، فتأتي مشوهة سوداء « وأهبُ واقفاً بحركة مباغتة ، ويبدو الحقل بعيني رقعة سوداء كبيرة تترنح في أرجائها وحشة مقبرة قديمة مهجورة ، ويغدو الهواء مفعماً بنتانة ، لا أدري من أين أتت ، ويطلق كلب قابع في مكان ما نباحاً طويلاً ممطوطاً » [١] .

كما « وقف القرصان طويلاً أمام مرآة قابعة في واجهة إحدى المحلات ، وشاهد في المرآة رجلاً أصفر الوجه ينتحب ، في عينيه فقراء الأرض كلهم ، وخيل إلى القرصان أنه يرى هذا الرجل لأول مرّة ، ثم توهم خلال لحظات أنه أبصره » [٢] لقد تعرض القرصان لثلاث حالات أولها فعل المشاهدة (شاهد) ، والمشاهدة عادة هي عين الحقيقة ، وثانيها الخيال « خيّل إلى » فقد خيّل إليه أنه يرى تلك الحقيقة ، وثالثها الوهم « توهم » والوهم أضعف من الخيال ، فربما يكون قد شاهد هذه الحقيقة (الوجه الأصفر) ، وربما لا يكون قد شاهدها وباجتماع المشاهدة الفعلية مع التخيل مقابل التوهم ترجح الرؤية على عدمها ، وبذلك ينسى القرصان نفسه في لحظة من لحظات الجوع ، وربما في مرّة أخرى يشاهد مخلوقاً آخر .

ليس هذا فحسب بل برع زكريا في استنطاق الطبيعة وجعلها تساهم في رسم الملامح النفسية للشخصية الممزقة ، ويبرز ذلك في معظم بدايات قصصه إذ يصور الطبيعة والمدينة وارتباطهما بالشخصيات « الأشجار الخضراء في الشارع ، كفت عن الغناء لحظة تحلق عدد من رجال الشرطة المتجهمي الوجوه حول رجل يمشي على الرصيف سيفاً هرماً » [٣] .

كما جاءت اللغة الوصفية في قالب يحمل الصورة الكابوسية المرعبة في ثناياه ، فيرسم الاستفاثة القادمة ليلاً إلى دمشق بصورة مهشمة « أقبلت الاستغاثة ليلاً الى دمشق النائمة طفلة مقطوعة الرأس واليدين وتراباً يحترق ، وطيوراً تودع أجنحتها السماء والأشجار » [٤] .

---

(١) الرجل الزنجي ، ص ٢٦-٢٧ .

(٢) القرصان ، ص ٩١ .

(٣) الذي أحرق السفن ، ص ١٩ .

(٤) الاستفاثة ، ص١٤١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويوظف زكريا المحسوسات المختلفة لرسم اللوحة السردية ، فالأصوات والروائح والألوان ، كلها أشكال ساهمت في التعبير عن الذات المبعثرة ، والمتشظية لإنسان زكريا في اغترابه .

ومن الأمثلة على اجتماع اللون والرائحة في سرد وصفي واحد قول ليلى لأحمد في قصة " النابالم" « سيموتون موتاً بطيئاً ، ليتك تبصرهم يا أحمد ، ليسوا بشراً ، كتل لحم محترقة سوداء ، لها رائحة لن تنساها حتى بعد أن تموت »[١] .

ويحمل اللونان الأصفر والأسود دلالات عدة عند زكريا ، فهما يرادفان كل حالات اليأس ، والقنوط ، والانهزام النفسي « ... كل شيء أسود ... وبلهفة يمزق الجرح ضماده الأصفر ليستقبل حشداً من قبلات الموتى »[٢] ، كما يغدو لون الثلج بعيني بطل زكريا أسود (إسقاطات نفسية) والسماء سوداء ... حتى أن اللون الأبيض قد فقد إيحاءهُ الصافي في كثير من الأحيان فيحمل دلالة سلبية عندما يصف الميت الذي يرتدي الملابس البيضاء والشرطة الذين يرتدون اللون الأبيض في قصة " السجن " ، والحلاق الذي يقطع رأس الرجل ذي الأسنان المنخورة يرتدي اللون الأبيض أيضاً[٣] .

ونكاد لا نجد لوناً يحمل شفافية وأملاً حقيقياً مثلما هو اللون الأخضر. كما في قصة " الأطفال " و " خضراء " .

ويكثر زكريا من التشبيهات فلا تكاد تخلو فقرة من فقرات قصصه إلا وتضم تشبيها أو أكثر كيف لا واللغة الشعرية التي استخدمها زكريا في أعماله تعتمد أسلوب تكثيف العبارة فاستخدم التشبيه البليغ كثيراً « وجهها هديل حمامة ، فمها قرنفل مرتجف »[٤] « وكان فم المرأة عنباً فجاً أحمر »[٥] . واختزل بالتشبيه وصفاً طويلاً « فيرتمي

---

(١) النابالم، النابالم ، ص٤٧ .

(٢) صهيل الجواد الأبيض ، ص٤٢ ، وانظر أيضاً ثلج آخر الليل ، ص١١ .

(٣) في الصحراء ، ص١٧٩ .

(٤) قرنفلة للإسفلت المتعب ، ص١٠٦ .

(٥) أقبل اليوم السابع ، ص٤٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الشيء إذ وجدت أمي ما تزال ساهرة تنتظرني »[١] فعلى الرغم من أن مكانه الخاص به لا يتجاوز القبو ، الا أنه يشعر بطمأنينة خاصة كان قد فقدها خارج القبو ، حتى إنه تخلص من أحساسه بالغربة .

وكثر الحديث عن ثنائية الغنى والفقر ، فطرحها زكريا على شكل قضية اجتماعية هامة جداً ممثلة بالسؤال التالي : لماذا لا يتزوج الفقير من الغنية ؟ ونجد هذا التساؤل في كل من "سيرحل الدخان" و " البدوي" ، و " الليل" . أما ثنائية اللذة والعذاب فقد شاعت في الأعمال لتعبر عن سادية الأبطال الذين لجأوا الى هذه الطريق بعد أن تصدى لهم المجتمع وحرمهم من حرياتهم كما في " الشنفرى" ، ومن الثنائيات أيضاً، ثنائية الحب والاضطهاد « أبي رجل هرم يحب أشجار الزيتون ، ومن غصن شجرة الزيتون تدلى مشنوقاً »[٢] وفي قصة الحب « أطلقت صفارات الإنذار صراخها الممطوط الحاد ، فأطفأت المدينة أضواءها محاولة خنق شهقة ذعر ، وتعانق بلهفة رجل وامرأة مستلقين على سرير ضيق »[٣] . ومن ثنائية الجمال والقبح أيضاً « طفلي صغير لم يتكلم بعد ، كان جميلاً ، ولكم كان قبيحاً وبشعاً لحظة رأيته مذبوح العنق »[٤] ، فسرُّ الجمال لم يطل لأن لحظة الاغتيال تنتظر بلهفة ، وحب الرجل لأغصان الزيتون لم يمنعها من أن تكون سبب حتفه ، ففي هذه المفارقات العجيبة نفس لغوي جميل جداً . يختصر كلاماً سردياً كثيراً لا ضرورة له في جو التكثيف الشعري الذي يلجأ إليه تامر .

ومن ثنائيات الواقع والحلم ، هرب القط من واقعه المزري وجوعه المزمن نحو الحلم بأن يقبض على عصفور مسكين فيغرس أسنانه الصغيرة الحادة في عنقه ممزقاً حنجرته العفنة »[٥] .

ومن أكثر الثنائيات سخرية وبشاعة ثنائية الرومانسية والشراسة كما في قصة " الجريمة" إذ يحز الجلاد بنصل المدية عنق سليمان الحلبي بينما ذهنه مشغول بالبيت

---

(١) القبو ، ص٣١ .

(٢) القرصان ، ص٨٧ .

(٣) الحب ، دمشق ص٦٩ .

(٤) القرصان ، ص٩٧ .

(٥) ثلج آخر الليل ، ص٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الذي ينتظر العودة إليه بفارغ الصبر وذلك حتى يقرأ قليلاً من الشعر »[١] إنها مفارقة عجيبة تطرح بلغة شعرية مكثفة وأسلوب ساخر ، سذاجة الواقع ومهانة الفرد الذي يعذب دون ذنب .

وتطرح لغة زكريا - بطريقة إيحائية - الحاجة الى السعادة المفقودة عبر القبض على القائم (الشقاء) ومن خلال تقديم الغائب بوصفه أنشودة الروح التي لم تفن ولن تفنى في مثل هذا الواقع .

أما عن اللغة المشبعة بالإيحاءات التراثية فقد أفاد منها زكريا إفادة جيدة فعبر من خلال الأمثال والمأثورات الشعبية والصور والطقوس الدينية والأغاني واللغة الثالثة (الوسطى) الشيء الكثير، فكثر استخدام الأمثال الشعبية في المجموعتين الأخيرتين (دمشق الحرائق ، والنمور) وذلك لأن هاتين المجموعتين تناولتا قضايا من المجتمع المحلي والعربي ومن الأمثلة التي جاءت على لسان الشخصيات الشعبية (الثانوية) قول أحدهم في قصة « يا أيها الكرز المنسي » : « إذن عمر القاسم صار وزيراً فسبحان من يعطي دون أن يسأل وصدق من قال إن من جدَّ وجد »[٢] . وقول أحدهم في قصة «رجل غاضب» «جبان حي أفضل من شجاع ميت »[٣] . وورد في « الخراف » « إن الوردة تلد شوكة »[٤] كما يقول أبو سميرة في «السهرة» « العين بصيرة واليد قصيرة »[٥] .

لم يغفل زكريا مناسبة اللغة لكل شخصية من شخصيات العمل ، فلجأ الى اللغة الثالثة التي تقع بين العامية والفصحى والتي تمتاز بفصاحة المفردات والإعراب ودلالة مفردات الجمل الا أنها تقترب من الاستعمال العامي إذا قرئت بتسكين أواخر كلماتها »[٦]

---

(١) الجرية ، ص٣٨ .

(٢) يا أيها الكرز المنسي ، ص٣٠ .

(٣) رجل غاضب ، دمشق ، ص١٠٨ .

(٤) الخراف ،ص١١٠ .

(٥) السهرة ، ص٧٤ ، وانظر أيضاً " في الصحراء " ، ص ١٨١ .

(٦) د . يوسف نوفل ، قضايا الفن القصصي ، ط١ [د . ن] ١٩٧٧ ، ص٣٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مع العلم أن تركيب الجملة ودلالة المفردات يأتي موحياً بالعامية أكثر لشيوع استخدامه في العامية لا الفصيحة . مثال ذلك « صار وجهه كالليمونة »[١] وصراخ الأم بوجه ابنها محمد المشاكس « الله لا يكبرك »[٢] .

وظهرت كذلك التعبيرات الشعبية التي تقرب العامية لتدلل على مستوى الشخصية الفكري ، وغالباً ما يستخدمها العامة في لغتهم من مثل قول والد يوسف له مؤنباً إياه على كسله وخموله «هل تكسر حجارة في النهار»[٣] ، وقوله وهو في حالة نزق من هرب ابنته «آه يا ربي ... ما الذي فعلته حتى تفضحني في آخر عمري »[٤] كما يقسم الشاهد ذو اللحية الطويلة أنه سمع بأذنيه اللتين سيأكلهما الدود بعد موته ... أنه سمع المتهم يمجد الخمرة[٥].

ويشتم كل من صباح وقاسم غسان بشتيمة تعد من أقبح الشتائم الشعبية وأكثرها إهانة للرجل الا وهي نعته بأنه امرأة ويطلق هذا النعت في موقف الشجاعة والجبن فيقول صباح : «أرأيت إنه امرأة ولو كان رجلاً لما سكت »[٦] .

ولم تخل قصص زكريا من التضمينات الثقافية ، فظهرت ثقافة القاص في لغته على لسان شخصياته البرجوازية إذ تعتبر هذه الشخصيات الكتاب خير صديق ، وترى في الموسيقا عالماً يفوق - رقة وعذوبة وصفاء - عالم البشر، فحسن في «رحيل إلى البحر». مولع بروايات أرسين لوبين[٧] . ويظهر بطل قصة " قرنفلة للإسفلت المتعب " ثقافته الأجنبية

---

(١) الراية السوداء ص١٢٥ .

(٢) يوسف ، يوسف الصغير الهالك ، النمور ، ص٢٠ وانظر : العائلة ، ص٢٦٩ ، البستان ، ص١٢ .

(٣) ثلج آخر الليل ، ص ١٠ .

(٤) نفسها ، ص ١١ .

(٥) المتهم ، ص٢٨ .

(٦) الراية السوداء ، ص١٢٣ .

(٧) رحيل الى البحر ، ص٢٨٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الواسعة عندما يورد في حديثه - متفلسفاً - أسماء أشهر الأدباء العالميين وذلك ليدلل على سعة اطلاعه فيقول : «كلنا مجانين ... ديستوفسكي مجنون ... سارتر أبله لا يحب الشمس رامبو ولد غير مهذب ... تشايكوفسكي ضفدع حزين ، لوركا بلبل أسود .. كافكا صرصار من حجر جيمس ماسون طبل ... » ويعقب صديقه على هذا العبث قائلاً « كلنا طبول ممزقة فقدت حتى الصوت الأجوف ، ما الفائدة من الوقوف تحت الشمس ؟ »[١] .

وتكثر كذلك الإيحاءات الفلسفية التي يسوقها الأبطال مشيرين بذلك إلى وضاعة الواقع وسعة اطلاعهم ، يقول الرجل الزنجي معلقاً على المارة في الشارع « أحذية اسمها الرؤوس »[٢] .

ونظراً لسعة اطلاع زكريا وثقافته المتنوعة فقد ظهرت التضمينات القرآنية والنبوية والتي غالباً ما وظفها على لسان الشخصيات الثانوية في مواجهة البطل المأزوم من ذلك : رؤية يوسف في المنام سبع بقرات عجاف ذات خوار حزين ، ترعى في حقل بلا عشب[٣] . ويستشهد والد البطل في قصة "الصقر" مرغّباً ابنه في الزواج «الأبناء زينة الحياة الدنيا »[٤] ، وقول الشيخ محمد «لا مهرب من الموت وأنا اليوم بلغت من العمر عتيا »[٥] ، وقول القاضي في قصة " المتهم" « الله أكبر لقد زهق الباطل وانتصر الحق »[٦] .

فالقاضي المكلف بقمع الفرد لا يكتفي بقمعه شخصياً بل يستعين على ذلك بالموروث الديني الذي أصبح كالكابوس المسلط على رقاب أبطال زكريا .

---

(١) قرنفلة للإسفلت المتعب ، ص١٠٨ .

(٢) الرجل الزنجي ، ص٢٠

(٣) ثلج آخر الليل ، ص١٥ .

(٤) الصقر ، ص١٤ .

(٥) الخراف ، ص١١٢ .

(٦) المتهم ، ص٢٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الزمان والمكان

الزمان

بما أن الشخصيات والأحداث واللغة تُعد عناصر حيوية في بناء العمل الفني (الرواية والقصة) ، فإن للمكان دوراً هاماً في هذا البناء إذ يُعد العمود الفقري الذي يربط أجزاء العمل بعضها ببعض ، كما يُعد الأرضية التي تتحرك عليها الأحداث . لأن الصراع في العمل الفني بين الشخصيات لا يحدث في الفراغ ، بل يحفه زمان ومكان محددين .

لقد ظهر المكان في الأعمال الروائية من خلال وجهة نظر شخصية معينة أو من خلال وجهة نظر الراوي ، إذ يبدو المكان - سواء أكان واقعياً أم خيالياً - مرتبطاً بل مندمجاً بالشخصيات كارتباطه بالحدث أو بجريان الزمن [١] فيتجاوز قيمته كإطار جغرافي صرف ليدخل في جدلية مع الأشخاص ونفسياتهم ، والأحداث ودلالاتها ، فيكون وصف الطبيعة والمنازل والأثاث ، وسيلة لرسم الشخصيات وحالاتها النفسية . بذلك يصبح المكان عنصراً بنائياً ودلالياً في القصص ، مساهماً في تحديد طباع الشخصيات وأمزجتهم [٢] . كما يحمل أبعاداً سياسية واجتماعية ، ويحمل رؤية الكاتب ووجهة نظر الشخصيات .

وكما يرى رولان بورنوف بأن الكاتب يزودنا بحد أدنى من الإشارات الجغرافية سواء أكانت هذه الإشارات مجرد نقاط استرشاد لإطلاق خيال القارىء أم استكشافات منهجية للأمكنة [٣] ، فإن المكان الذي نتناوله موجود في العمل سواء ظهر أم لم يظهر سُمي أم لم يسمَّ ، فمدينة دمشق مثلاً تمثل المكان القصصي العام لزكريا تامر ، كما أنها نموذج لمدن كثيرة متشابهة في الظروف والأحوال . فعلى الرغم من أن القصص تناقش قضية الفرد المهزوم الذي يعيش في كل زمان ومكان - وهذا ما يفسر عدم تسمية الأماكن تقريباً - إلا أن الملامح العامة تكاد تنطق بخصوصية المكان ، فالنهر في قصة "النهر" يحمل ملامح نهر بردى ، والزقاق الضيقة في " الراية السوداء " تحمل ملامح الأحياء الشعبية الدمشقية هذا عدا عن إطلاق المسميات صراحة في أكثر من موضع .كما أن الباب القديم في قصة " الباب القديم" كان - فيما مضى - قسماً من سور حجري شاهق يطوق منازل المدينة ويحميها من

---

(١) رولان بورنوف ، عالم الرواية ص ٩٨ - ١٠٥ .

(٢) ليلى درغوث ، المكان والزمان في يوميات نائب في الأرياف ، مجلة الحياة الثقافية ،ع ٥٨، ١٩٩٠م ، ص ٤٤.

(٣) عالم الرواية ، ص ٩٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأعداء ، غير أن السور تهدّم ولم يبق منه سوى أطلال مبعثرة [١] ونكاد نلمس ملامح السور بسور دمشق الذي كان يحيط بها قديماً إلا أن الزمان قد عفا عليه وفُتحت أبواب المدينة -كما يرى زكريا - دلالة استباحة حرماتها بعد أن كانت حصينة (بعد سياسي) .

ويقول بطل زكريا في موضع آخر : « مدينتي كانت في الأيام القديمة زهرة من أزهار الياسمين المغروس بكثرة في باحات بيوتها » [٢] ونحن نعلم أن من سمات البيوت الشامية وجود الباحات الداخلية المزروعة بالأزهار . هذا بالإضافة إلى العديد من القصص التي ورد اسم دمشق صريحاً فيها ، منها : التراب لنا . . وللطيور السماء ، الاستغاثة ، السهرة .

أما عن الظواهر المكانية التي اتكأ عليها زكريا في بنائه القصصي ، فقد جاءت تتناسب وطبيعة الشخصية المحورية (الفرد المهزوم) السائرة بلا هدف في كثير من الأحيان، كالشارع ، والمقهى، والزنزانة، والغرفة الموحشة، والقبو المظلم ، والسينما ، والخمارة، والمعمل، والمطعم، وبعض الظواهر الطبيعية كالأرض الخضراء ، والبستان، والبحر، والنهر.. وجميع ما ذكر نستطيع أن نطلق عليه (المكان المعادي) كما وصفه غالب هلسا [٣] لأنها تشترك جميعاً في ممارسة القمع ، والعداء على البطل ، وتعكس وجهة نظر الكاتب في الحياة والوجود .

والسؤال الذي يطرح نفسه كيف يرى تامر أمكنته ؟ وكيف يصفها ؟

الشارع :

إن جذور المكان تنبعث من الحي الشعبي الدمشقي وتنطلق باتجاه الشوارع العريضة حيث المباني الضخمة ، والإعلانات المضيئة ، وسكك الحديد وغيرها من مظاهر الحضارة والمدنيّة . وقد كانت الأزقة الضيقة والشوارع المقفرة هي المسرح الصغير الذي حمل بين جنباته البطل المأزوم ، فعكس ضيق المكان نفسية البطل المنكسرة المتقوقعة على نفسها . والمكان الخانق يسيطر على الأعمال ، وهو بدوره يُنمّي الكراهية والتمرد في قلب الشخصية ، فبين ضيق الأزقة وفساحة الشوارع عالم من التضاد يُبنى على علاقة جدلية إذ تجره قدماه حيناً نحو الشوارع العريضة بعد أن عانت نفسه الشوارع الضيقة (الاختناق ← المكان الواسع = حرية) .

---

(١) الباب القديم ، ص ٢٥ .

(٢) رحيل إلى البحر ، ص ٣٤٠ .

(٣) دلالة المكان في قصص زكريا تامر ، ص ١٢١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويحمل بذلك - هذا النمط من الأمكنة - بُعداً فلسفياً يتجاوز التأثير النفسي ليعبر عن القلق البشري أمام العالم الذي لا يجد فيه البطل مكاناً له ولأمثاله ، فيبتلعهم العالم ويضللهم ، ولا يحققون الحرية التي ينشدون « وجرتني قدماي بعد قليل نحو شارع متخم بالضوضاء وهناك أحسست بأني قد غدوت شيئاً ما كريهاً لا طفولة له » [١] فالشارع عند أبطال زكريا هو العالم الخارجي الذي يعادل عالمه الداخلي القابع في القبو ، أو القبر ، أو الغرفة ، أو الزنزانة ، كما يعد مرفأ الحرية المضلل ، والذي يتكىء على الحلم للخلاص أو ملء الفراغ . لقد قلنا إن جميع الظواهر المكانية تشكل المكان المعادي للبطل ، ودليل ذلك أن أبا فهد يلقى مصرعه في شارع الأزقة الضيقة على يد شاب سكران وذلك عندما حاول أن يتخلص من فقره بأن حلم بالخروف (ابن ملك الجان) . كما أن قصة " الكنز " تُظهر لنا حقيقة المكان - الحلم الذي يتحول إلى عدو شرس لا يفتأ يقضي على البطل . ويلقى أحمد مصيره في الشارع إثر حلمه بالغنى (الكنز المدفون أسفل شجرة الليمون في باحة البيت) فتصدمه سيارة وهو غارق في أحلامه . وبذلك يكون المكان قد عبّر عن عدائه للفرد عداء مطلقاً .

ولا يفوتنا القول إن صراعاً ينشأ حال خروج البطل من الأزقة الضيقة متوجهاً نحو الشوارع العريضة المكتظة . فالبطل الذي يخرج منتشياً مسرعاً نحو الشوارع العريضة سرعان ما يعود لها منكسراً مهشماً بسبب قسوة المكان - الحلم ، كما في قصة " البدوي" و "قرنفلة للإسفلت المتعب" و "في ليلة من الليالي" و " النار والماء" . والسؤال الذي يطرح نفسه هل يعود البطل المأزوم منكسراً من الشوارع العريضة فقط ؟ أم أن الشوارع الضيقة تفعل الفعل نفسه ؟

من خلال استعراضنا للنماذج القصصية وجدنا أن بطل زكريا إنسان مهزوم - ومحكوم عليه بالانهزام - رغم محاولاته الانفلات من قيود واقعه ، حتى إن هذه الشوارع والأزقة الضيقة لا تمنحه الأمان المرجو ، فنسان الذي ينأى رويداً رويداً عن الشوارع العريضة ، ومبانيها الحجرية ، ويسير بين الأزقة الضيقة الخاوية قاصداً بيته ، يواجه مصيره على يدي أبناء حارته (صياح وقاسم) اللذين يتحرشان به بذلك تكون مجرد حركة البطل خلال كل من المكان المفارق للذات (الشوارع العريضة) ، والمكان الموافق للذات - غالباً - (الشوارع الضيقة) دليلاً على نهايته وكآبته واغترابه .

---

(١) ابتسم يا وجهها المتعب ، ص ٤٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

القبو المظلم والغرفة الموحشة :

إن المكان الخاص بالبطل ، الذي يأوي إليه بعد رحلة التسكع في الشوارع عبارة عن قبو مظلم أو غرفة وحيدة موحشة ، ولم نلمس أن بطل زكريا يعود آخر النهار متعباً إلى بيت وثير، كما لم يأل جهداً في استخدام الكلمات التي توضح مستواه المعيشي الرث (غرفة وحيدة مظلمة ، تفتقر لكل مظاهر الحياة سوى السرير ، وبعض الأقداح وكسر الخبز) .

وقد صوره زكريا كذلك كي يبعد احتمالية الأمل في نفوس القراء من أن بطله يعاني الصراع خارج البيت فقط ، بل صوره كذلك ليدلل على ضيق العالم وضيق الأفق الذي يعيش فيه فرد مثل بطل زكريا . فيجسد القبو في قصة " البدوي" مظاهر الحرمان المختلفة (الطعام ، المرأة ، السجائر) ولا يتمتع إلا بنافذة صغيرة تطل على حديقة البناية ، ولا ندري ربما أبقى زكريا على هذه النافذة كي يحاول الفرد من خلالها إحداث توازن بين عالمه المزري وكآبته ، وبين عالم الطبيعة الجميل ، وذلك حتى يحافظ على أدنى درجات وجوده فالحديقة عبارة عن بصيص من النور الذي يستطيع الفرد من خلاله إحداث توازن . كما أن أحمد في قصة " النابالم " كان قد أحضر حبيبته ليلى إلى غرفته كنوع من إحداث التوازن بين الكآبة التي تخلفها الغرفة والعذوبة التي تخلفها ليلى .

ويتصارع العالم المتضاد بين جنبات غرفة الرجل الوحيد أو قبوه ، فعلى الرغم من ضيقها إلا أنها تتسع لتشمل العالم الداخلي للبطل فبين عذوبة الربيع وتوحش النمر الجائع عالم مخيف مرعب ، يقود نحو الهلاك أو التحول إلى العالم الحيواني .

وعلى الرغم من محاولة إقناع الذات بطمأنينة مستعارة في المكان الخاص بالبطل إلا أنه يقف على علاقة التضاد بين العالم الداخلي والعالم الذي يجثم فوقه « إني أعيش في هذا القبو ... العالم يجثم فوقي ، إني سأظل حتى النهاية في قعر المدينة »[١] ، بذلك تتعمق روح الاغتراب التي خلّفتها الفجوة الكبيرة بين عالم البنايات الضخمة والقبو ، فيعود إلى غرفته دون حنين بعد أن تشرد طوال ساعات عبر الشوارع .

---

(١) القبو ، ص ٣١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المقـهى :

إنه القضيب الثاني في صليب مدينة أبطال زكريا «مدينتي صليبها مقهى وشارع» . لقـد ظهـر المقـهى في عـدد لا بأس به من القـصص ، فكان دوماً مـلاذ البطل وأمـثـاله من مشردي المدن وعـمـال المصانع ، فالمقـهى مكان متحرك مفتوح مؤقت يوحي بعدم الاستقرار ، والبطل في جلوسه فيـه ، يشـاهد الرائحين والغـادين ويستمع إلى ثرثرات هنا وهناك ويتـسمّن بأنماط الناس فاحصاً ومنتقداً إياهم . كما أن المقهى هو المكان الوحيد الذي يشكو له بصمت المهزوم وانكساره .

وتلخص قصة " الأغنية الزرقاء الخشنة " سمات المقهى بأن روادد عـمـال يشتغلون في المصانع القريبة ، وفلاحون وبائعون متجولون ، . . . يجلسون جميعاً باسترخاء ، يحتسون الشاي على مهل ويثرثرون دون أن يكون بينهم أي معرفة سابقة [١] وكأن كل واحد منـهم لايجد متنفساً لنفسه إلا في المقـهى، فيثرثر حتى يحس أنه مـا زال موجوداً على قيد الحياة . حتى إن المقـهى في إحدى القـصص التي لا حياة لبطلها سوى الجلوس في المقهى ومراقبة الناس ليتحول إلى تبره فيـما بعد ويصبح عيناً للشرطة على روادد المساكين [٢] ، بذلك لايستطيع زكريا التخلص من شدة القمع السياسي الواقع على أبطاله حتى في المقهى (المكان الذي يفترض أنه مكان الراحة والاسترخاء) .

ويعـد المقـهى هو المكان الوحيـد الذي يستطيع البطل من خلاله التـواصل الصـامت مع الناس ، كما في " الرجل الزنجي" و " البدوي" و " القبو" .

ويكاد يشـترك المطعم مع المقـهى في كونه المكان الذي لا تواصل فيـه إلا مع الطعـام الرخيص بينما يكتـفي بمراقبة الناس من خلاله . وقد تعـرض البطل في بعض القـصص إلى ولوج مطاعم الأغنياء إلا أنه لم يستطع استيعاب هذا العالم الذي يراه عبارة عن جرذان كبيرة تأكل بنهم ، فبذلك عكس مستوى المكان نفسية البطل ووجهة نظره به .

ولأن البطل لا ينتمي إلى عـائلة - وإن كـان كذلك فـإنه يرحل مبتـعـداً عنهـا - يجد نفـسه في خـضم وحدتـه مضطـراً للجوء إلى المطـاعم كي يتـناول طعـامه بسرعة ويخرج إلى الشوارع . ولذا فلا معنى لهذا سوى أنه مصدر إشـباع الجوع والذي غالباً لا يُشبع لأن المطعم بات يساعد العوامل الأخرى في ضياع الفرد .

---

(١) الأغنية الزرقاء الخشنة ، ص ٩ .

(٢) ملخص ما جرى لمحمد المحمردي ، النمور ، ص ٨٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الزنـزانـة :

لم تكن الزنزانة أقل حظاً من الظواهر المكانية الأخرى التي ساهمت في اغتيال الفرد ، فواحد مثل بطل زكريا لابد وأن يصدف في طريقه المتعثرة قمعاً كثيراً يلزمه الزنزانة التي لانوافذ لها قصة " النهر" ، وذلك زيادة من تامر في تصوير مظاهر القمع السياسي الشرسة التي لا تترك منفذاً واحداً للفرد ليطل من خلاله على العالم الخارجي . وتكون الزنزانة نموذجاً مكانياً يساعد على عزل الفرد وسحقه وتحويله إلى حيوان ضعيف .

وتتجسد الحديقة الجميلة في قصة " البستان " ، حباً صادقاً أمام سميحة وسليمان اللذين يحلمان ببيت صغير محاط ببستان كالذي يقفان فيه ، وما أن يشرعا في التأمل حتى يغتال البستان - ممثلاً بعدد من الرجال - حبهم وفرحتهم وشرفهم ، بذلك تكون الطبيعة قد حطمت أحلام الفرد وقيدت تطلعاته لا بل اغتالتها ، وكأنها تقول له : لا يحق لك أن تحلم برومانسية بين أحضان الطبيعة الخضراء .

ولم تكتف الطبيعة الخضراء بعدائها للفرد بل اعتبر زكريا تامر أن الصحراء (رمز الجفاف) تساهم أيضاً بجزء من هذا العداء . فيحاول البطل أن يتوحد مع البحر الذي يكمن خلفها إلا أنه يجهد بحثاً عبر الصحراء الخاوية (الوضع الراهن) ولا يعثر على البحر رمز الأمل ، فلا تكتفي الصحراء بذلك بل تسلمه للسلب وقُطّاع الطرق .

لقد حاول زكريا أن يجسد البعد النفسي للمكان ، فمن خلاله نستطيع قراءة سيكولوجية ساكنيه ، وطريقة حياتهم ، كما أن تطور الحالة النفسية - تأزماً وانفراجاً - للشخصية يجعلها ترى المكان الواحد بأكثر من رؤية . ويتجسد هذا في " النهر" إذ يتكىء عمر السعدي بمرفقيه على سور النهر، ويتأمل - منتشياً - المياه المنسابة تحت ضياء الشمس حتى خُيّل إليه للحظة - لاحظ قصر الزمن الذي يعطيه للعالم المضيء في أعماله - أن النهر امرأة مسحورة غامضة الفتنة ، كما كان عمر يعشق النهر « وقد ابتسم بغبطة وهو يرمق مياهه التي تغني بأصوات خافتة .. » لكن ماذا يجري للنهر بعد أن يعتقل رجال الشرطة عمر دون ذنب .. « وتحول غناء النهر إلى استغاثة خافتة ... » ثم « انكمش عمر السعدي مذعوراً، وكان النهر في تلك اللحظة نائياً تترقرق مياهه حزينة تحت شمس صفراء »[١] .

---

(١) النهر ، ص ٦٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الزمـــان

بما أن الصراع في العمل الفني بين الشخصيات لا يحدث في الفراغ ، وأن الزمان والمكان يحفّانه من كلا الجانبين، فإننا ننظر إلى الحدث على اعتبار أنه حدث هنا - هنا الآن - أو سيحدث شيء جديد في مكان آخر ، والحدث يتقدم بتقدم الشخصيات خلال فترة زمنية معينة [١] .

والعلاقة بين الزمان والمكان علاقة جدلية إذ يطمح الزمان إلى تغيير المكان ، بينما يقاوم المكان هذا التغيير ، ويرنو الى استرداد ملامحه التي أطاح الزمان بها ، وغالباً ما يتم ذلك بمساعدة الزمان نفسه عن طريق العودة إلى الماضي [٢] .

لقد قسم الدارسون الزمن إلى نمطين رئيسيين الأول : النمط الخارجي الذي يتضمن زمن الكتابة وزمن القراءة ، والثاني : النمط الداخلي الذي يتضمن الحاضر والماضي والمستقبل [٣] .

فقد كتب زكريا في فترة السبعينات مجمل قصصه وقد كانت هذه الفترة تعاني من اضطرابات على الصعيد السياسي والاجتماعي والثقافي ، ففترة الستينات وبداية السبعينات اتسمت بكثرة الثورات والاضطرابات والانقلابات والحروب في الوطن العربي فكانت حرب ١٩٦٧م هي الفرصة للتخلص من جبن الأمة ورعبها ورفعتها ، إلا أن النكسة قد شدت العالم العربي نحو الإحساس بالضياع ، كما أن الحياة الاجتماعية فقدت رونقها واستحال الناس إلى دُمى تمشي على الأرض دون أن تستوعب حقيقة ما جرى لها سياسياً ، هذا عدا عن سرعة الانفتاح على الحضارة والتأثر بها دون قيد أو شرط كل ذلك ترك آثاره السلبية على جو الأعمال القصصية . وبما أن القضايا المطروحة في أعمال زكريا (كالقمع ، والبطالة ، والشوق إلى المرأة . .) لا تنتمي - عموما - إلى زمان محدد وذلك لأنها مطروحة بشكل لا تاريخي ولأن الاستبداد والقهر -اجتماعياً وفكرياً وسياسياً- يضرب

---

(١) عالم الرواية ، ص ١١٧ - ١٢٠ .

(٢) المكان في الرواية الفلسطينية ، منها عرض الله ، ر . ج ، جامعة اليرموك ، ١٩٩١م ، ص ١١ .

(٣) المكان في يوميات نائب في الأرياف ، ص ٤٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جذوره في عمق التاريخ العربي خلال فترة تمتد سنين طويلة ، إلا أنها توحي بزمن الغربة والعزلة ، وغربة الذات عن كل ما حولها ولا معقوليتها ، فوطأة الزمن كانت ثقيلة لأنها شردت الإنسان العربي بحثاً عن ماهية وجوده في خضم الأحداث السياسية المتسارعة والتي غالباً ما يروح ضحيتها الفرد البسيط . ولا تزالَ الأمة تعاني من وطأة هذا الزمن وآثاره ومسبباته ، فزمن الهزيمة والعجز والقلق مستمر - من وجهة نظر زكريا - حتى النهاية وما زمن قراءة الأعمال إلا ترجمة لصدق وجهة نظره .

لقد اتكأ زكريا في بعض أعماله على تسلسل الزمن التقليدي (الماضي ، الحاضر والمستقبل) فتتطور الأحداث تبعاً لتسلسل ثابت كما في "شمس صغيرة " [١] التي بدأت بزمن السرد الماضي . « كان عائداً إلى البيت » ثم ينتقل إلى الحاضر إذ يصدف في طريقه خروفاً سميناً فيحمله .. ويعرج على المستقبل (الحلم) إذ يمنّي النفس بالجرار المليئة بالذهب والتي سيسعد من ورائها... إلا أن الوقت (الليل) لم يمنحه السعادة بهذا الحلم - فالليل في أعمال زكريا رمز لكل ظلام يحيق بالفرد وغربته - بسبب شاب سكران يترنح عبر الطرقات .

ويمكننا تسمية هذا النمط من الزمان ، بالزمن المتصاعد طردياً مع نمو الحدث ، وشاع هذا في بعض الأعمال كما أسلفنا بالإضافة إلى الجرعة ، والباب القديم ، وفي ليلة من الليالي ، والوجه الأول ، والرغيف اليابس .

تنقّل زكريا بين عناصر الزمن الماضي والحاضر والمستقبل ، فظهرت لنا دمشق الماضي والحاضر والمستقبل في الوقت نفسه ، وكما قلنا من انعكاس الحقبة التي كتب بها زكريا (زمن الكتابة) على الزمن القصصي فقد تأثرت دلالة المكان (العربي) بالزمن فتناول دمشق مثلاً - قديماً وحديثاً - كيف كانت وكيف صارت - كما أثّر كلا العنصرين على نفسية الشخصية واستطاعا الإفصاح عن مكنونها .

ويلجأ الكاتب إلى استخدام الفعل الماضي (كان) كثيراً في محاولة منه لرصد الماضي بآماله وذكرياته وأوجاعه مقابل الحاضر الذي يغتال فرحة تذكر هذا الماضي ، ويترحم عليه .

فقد « حكي عن دمشق أنها كانت في قديم الزمان سيفاً هرماً أُرغم على العيش سجيناً في غمده ، وكانت طفلة تثقل الأصفاد خطوتها ، وكان ياسمينها ينبت خفية في المقابر مرتدياً أكثر الثياب حلكة ... » [٢] .

---

(١) شمس صغيرة ، ص ٤١ .

(٢) التراب لنا وللطير السماء ، ص ٥٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فدمشق كانت في قديم الزمان . .أي زمان هذا الذي كانت به سيفاً (رمز القوة) هرماً ، وطفلة (مكبلة ومسلوبة الحرية) حتى إن ياسمينها لم ينبت إلا (سراً) في المقابر وقد غيَّر لونه .. ؟!

ولا يحدد لنا زكريا الزمن التقريبي لذلك « مدينتي كانت في الأيام القديمة زهرة من أزهار الياسمين .. لكنها أضاعت وجهها الأبيض منذ أن وطأتها أحذية الرجال الغرباء .. »[١] . أي وقت يقصد ؟ فقد تعرضت دمشق - بخاصة - إلى ويلات الحروب والغزو منذ قديم الزمان ، وكأن زكريا لا يهتم بالزمن التاريخي المحدد بقدر ما يهتم بعرض قضية دمشق المسلوبة عبر العصور ، لأنه يريد أن يوصلنا إلى دمشق الحاضر التي ما فتئت النكبات تتساقط عليها من كل حدب وصوب « ها هي مدينتي متسولة نائمة ، لقد التقيت برجل مذعور أنبأني بأن مدينتي غزاها رجال غرباء »[٢] .

بذلك يلجأ الكاتب إلى إلغاء الزمن ، وجعله زماناً حراً يصلح لأي عام ، وذلك لأن صور المأساة لا تقف عند وقت محدد بل هي أزلية بنشوء الكون ولا يمكن للحاضر أن يورث إلا الشقاء والويلات ، فلا يدري الفرد أين المفر ، ولا يكون المفر في كثير من الأحيان - إلا نحو الحلم ، فالحلم هو انبعاث الماضي ، واستمرار له والحاضر استمرار للماضي نحو المستقبل يقول « وعدت أحلم بالرحيل إلى مدينة شنقت الجوع والكآبة والضجر »[٣] .

ويمكننا أن نختار قصة البستان نموذجاً لحضور الأزمنة الثلاثة فيها ، فسميحة كانت في الأيام القديمة سمكة تحيا في البحار .. ويوم التقى بها سليمان كانت قد أمست امرأة جميلة ، وكان سليمان يهتف : « أيها السادة فمها وطني » بعد ذلك قفز زكريا بنا نحو المستقبل لأنه الأكثر ألفة وانسجاماً مع الماضي . قالت سميحة :

- لا شيء أجمل من بيت في بستان .
- قال سليمان : عندما نتزوج سنحيا في بستان .
- ستزرعه ورداً .
- سأرتدي ثياب ذلاحة ... »[٤] .

---

(١) رحيل إلى البحر ، ص ٣٤ .

(٢) ابتسم يا وجهها المتعب ، ص ٥١ .

(٣) رجل من دمشق ، ص ٦٩ .

(٤) البستان ، ص ١٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبينما هما يتناجيان في ذلك البستان قفز الحاضر إليهما ليغتال المستقبل بأحلامه والماضي برقته ، فاغتصبت سميحة وفرحتيا على يد (رجال) وضاع الحلم «إذ كانت الشمس في تلك اللحظة حمراء تجنح للأفول فالليل الأسود آت»[١] .

فغالباً ما يوحي المستقبل بالأمل والتفاؤل ، لكن هل يسمح الحاضر بنفاذ أحلام المستقبل وتحقيقها ؟ ها هي رندا تحلم مع الطفل طلال لو أنها وردة فتقول : « سأنبت فوق قمة جبل لا يستطيع بلوغها أي إنسان » ، لكن الحاضر يأتي ليدق الأرض جلبة بقدوم رجال غرباء ، ومعهم رجل مقيَّد ، فيقتلونه دون رحمة ، عندها يرتجف كل من طلال ورندا ، ويتحولان إلى صخرة مع أحلامها الجميلة [٢] ، فلربما أنه بكونهما صخرة (جماد) أفضل من العيش الذي يقتل إنسانيتهما شيئاً فشيئاً . كما رحلت الغابات بعيداً عن النمر المسجون إذ كان في الماضي رمزاً للمنعة والقوة ، إلا أن الحاضر جاء ليفقده كبرياءه ويتحول إلى حيوان يأكل الحشائش بدل اللحم [٣] .

بذلك جاء الزمن مدمراً لا يرحم وهو السبب في ضياع الفرد ، وقد امتاز بناء زكريا الزمني بالنهايات المفتوحة ، فلم يتدخل بسيرها ، لأن بشاعة الواقع لا تترك بصيص أمل واحداً للمستقبل ، فالحاضر يذكره ببعد الماضي عنه ، ونأي المستقبل .

يتلاعب زكريا بالتتابع الزمني للأحداث من حيث التقديم والتأخير ، وذلك حتى يحقق نوعاً من التأثير الفني على القارىء ، فعمد إلى إلغاء الوحدة الزمنية المتسلسلة في معظم الأعمال ، ولا يوجد تسلسل زمني تقليدي . فجاء الزمن القصصي هابطاً تارة - بلا خصوصية - ويعتمد على أسلوب الاسترجاع على الصعيد السردي ، فيبدأ - أحياناً - من نهاية القصة ، ثم يأخذ الزمن بالتراجع ليكشف عن حيثياتها .

ونستطيع أن نأخذ مثالاً على ذلك قصة " الابتسامة " [٤] . فيبدأ زكريا باسترجاع الأحداث من النقطة التي انتهت عندها ، إذ يُقاد البطل إلى ساحة الإعدام ويصرخ مذعوراً ،

---

(١) نفسها ، ص ١٧ .

(٢) الشجرة الخضراء ، ص ٤٧ .

(٣) النمر في اليوم العاشر ، ص ٥٨ .

(٤) الابتسامة ، ص ٨١ - ٨٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثم ينتقل الزمن بنا نحو الماضي حيث البطل طفل صغير ينادي أمه التي ألفاها عارية تحت رجل غريب ، عندها يغادر البيت مسرعاً قاصداً مرّة أخرى ساحة الإعدام (الحاضر) ، فعلى الرغم من قصر هذه القصة إلا أنها تعبر عن مأساة الفرد الذي يخدع بأطهر نموذج في الوجود "الأم" عندها لا يجد مناصاً من الموت . وفي قصة " الزهرة " نموذج آخر يعبر فيه زكريا من خلال أسلوب الاسترجاع عن مأساة الحاضر وشراسته أمام الماضي الذي يُعَدّ الهفوة خطيئة لا تُغتفر في حين أن الحاضر بات يمارس الخطايا بأسلوب بشع منفر . وتمتد اليد الخشنة المدفونة في التراب، وقد تاقت إلى الشمس والمطر والسماء ، عندها تتذكر اليد الخشنة المرأة التي تملك جسداً من نجوم، ويستمر التذكر والتداعي حتى تستيقظ على صفعة الماضي، فقد كانت اليد الخشنة في يوم ما لشاب عاشق مارس الحب مع محبوبته التي لا يستبدلها بكنوز العالم، إلا أن السكاكين طاردته لأنه انتهك الحرمات (تقاليد) . ويجيء الحاضر تساق فتاة صغيرة وأمها بصحبة عدد من الرجال لممارسة الرذيلة ببساطة ويسر وكأن الزمن قد استكثر حباً طاهراً بين عاشقين ، وها هو الآن يبيح المحذورات وينتهك الطفولة .

وعمل زكريا على إلغاء ترتيب جدول الأحداث، فيما بينها ، فما عاد لها صفة واضحة . فيبقى موازياً للحدث القصصي ، وفجأة ينقل القارىء إلى شركة أخرى ، ويقطع -بذلك- حركة الصعود والهبوط في الحدث ففي «يا أيها الكرز المنسي» تتراوح الأحداث بين شهيق أهل الضيعة المندهشة إثر سماعها أن عمر القاسم صار وزيراً ليعود السارد بنا إلى عمر المعلم البسيط الذي يعين بضيعة نائية ، وتبقى تتراوح الأحداث بين الماضي (عمر المعلم) ، والحاضر (الوزير) ، ومن خلال هذه المراوحة تتكشف لنا أحداث القصة بأسلوب جميل .

ويتضح لنا الزمان الذي يفصح عن الشخصية ويبين أثر القمع والكبت عليها ، كما جاء في قصة " البدوي " إذ عاش يوسف الزمن الماضي (الذكريات) التي تظهر على شكل التداعي الحر مع زوجة أخيه فطمة التي أحبها واختلى بها ، كما عاش زمن الماضي (الأمس) عندما حضر جنازة فتاة القبر والتي بات يحلم بها كما لو كانت حيّة ، وعاش أيضاً الزمن الحاضر اليوم (مع سميرة التي أحبها) ، وتستمر المراوحة في الأزمان حتى تتفجر بواطن الزمن النفسي السابقة في حاضره وتؤدي به إلى اغتصاب سميرة والهرب (نهايته في الحاضر) . فبحلول الزمن النفسي مكان الزمن التقليدي تتكشف حقيقة العالم الداخلي للشخوص وتبرر سلوكاتهم .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من المعروف أن الزمن الماضي بحاجة إلى الزمن الحاضر ، والعكس صحيح وذلك لأن الماضي بحاجة إلى الحاضر كي يحرر نفسه من ركام الأوهام التي تحجب حقيقته ، والحاضر بحاجة إلى الماضي كي يمتلك الحكمة التي بدونها قد يضع قدراته في خدمة الدمار ، إلا أننا نجد زكريا يتكىء على الماضي كي يزيد من إدانة الواقع الممتد عبر الماضي والحاضر ، ولأنه لا يريد أن يمتلك أبطاله مثل هذه الحكمة حاول في أكثر من موضع - أن يضع قدراتهم في خدمة الدمار كما في " النبالم " و " الطائر " و " الشنفرى " . الذين يطمحون لاختراع قنبلة نووية تحط على العالم وتدمره ، كي تشرق الشمس على الأنقاض ، وكأنه يتعجل المستقبل الذي يأبى أن يحلّ إلا على دمار .

وأبطال زكريا لا يرتبطون بأي مستوى من مستويات الزمن وذلك لشعورهم القاتل بالاغتراب ، ولإحساسهم القوي بضعف الإنسان أمام قوة السلطات المختلفة (الفرد مقابل المجموع) . فلا يتمنى عودة الماضي كما لا يتمنى البقاء في الحاضر في حين أن المستقبل لا يتحقق بدون السابقين .

لقد عمد زكريا إلى فن التلخيص الذي يعد من أهم عناصر تقنية السرد في العمل الفني، فقد اختصر - في بعض - قصصه فترة زمنية طويلة بمساحة صغيرة جداً ، لا تتجاوز عدة أسطر وقد كثر هذا النمط في مجموعته الأخيرة النمور في اليوم العاشر . ففي قصة " الأعداء - البداية " يقول « نفخ الشرطي في صفارته ... فبزغت توأ شمس الصباح . وأضاءت شوارع المدينة بنور أصفر كخشب مشنقة عجوز ، وعندئذ أفاق الناس من نومهم آسفين عابسي الوجوه »[١] . فبمجرد نفخ الشرطي في صفارته (الماضي) يظهر امتداد المأساة - نحو الحاضر - على الشمس (الكون) والشوارع (العالم الحيوي) والناس . بذلك تجسد هذه السطور مأساة البشرية الرازحة تحت سطوة الشرطة ورجالها ، وكأن السلطة أضحت آله مسيطراً على الكون وظواهره .

لذا نستطيع القول إن الزمن القصصي - غالباً - لا يتجاوز لحظة زمنية مدتها بمقدار نزهة سليمان وسميحة في البستان ، إلا أنه على مستوى تاريخية الحدث يمتد ليشمل زمناً طويلاً منذ أن كانت سيحة سمكة تحيا في البحار .

---

(١) الأعداء - البداية . ص ٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخـــاتمـــة

وبعـــد :

فقد كانت هذه الدراسة محاولة لإلقاء الضوء على القاص السوري زكريا تامر ، على اعتبار أنه واحد من أهم كتّاب القصة القصيرة في الستينات والذي قيل فيه أنه قمة من قمم الاتجاه التعبيري . هذا وقد خلصت الدراسة الى جملة من النتائج أهمها :

لقد أضاءت الدراسة جوانب من حياة القاص ، من خلال تتبعها في مجموع الدراسات والمقالات المختلفة .

كما بينت الدراسة أن مجموعات زكريا القصصية تسير في خط واحد هو انسحاق الفرد (المثقف العربي) وتضاؤله ، وانهزاميته أمام قوى قاهرة تتمثل بسيطرة المجتمع بعاداته ، وتقاليده البالية ، وطبقاته المتباينة ، وسلطة الأب ، والقدر ، والشرطة ، ورجال الدين ، والطبيعة وغيرها من مظاهر القمع .

فقد تعمق الشعور بالاغتراب عن الذات ، وفقدان ماهية الوجودفي مجموعته الأولى « صهيل الجواد الأبيض - ١٩٦٠ » ، فركز على تفتّت الفرد ، وهروبه من مواجهة القوى المختلفة ، بانغلاقه على نفسه وإقفال أبواب الحوار الخارجي مقتصراً على علاقته مع ذاته . كل ذلك يأتي في ظل قسوة الظروف المعيشية المتمثلة بالعطش إلى الخبز ، والحرية ، والجنس معبراً عنها باللجوء إلى عالم الكوابيس ، والأحلام ، واللامعقول المرعب .

وينسحب لهاث الإنسان المقهور (الشخصية المحورية) على مجموعته الثانية « ربيع في الرماد - ١٩٦٣ » في البحث عن الثلاثي المفقود (الخبز ، والجنس ، والحرية) مع الميل إلى استخدام ضمير الغائب بدل ضمير المتكلم المستخدم في المجموعة الأولى ، والتركيز على جو الرعب ، والظلم ، والتعذيب ، الذي يكشف عن حلوله بالفرد دون ذنب مسبق سوى تهمة الوجود ، ملقين الضوء على أثر الفلسفات الأجنبية ، ودورها في بلورة رؤية القاص ، وبخاصة مجموعة من أعمال فرانز كافكا ، التي يستسلم الفرد فيها - بسلبية مبررة - للقوى السابقة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتستمر الشخصية المستلبة في السير بجو من الكوابيس والأحلام ، وتداخل الأزمان حتى مجموعة « الرعد - ١٩٧٠ » فيخرج البطل المأزوم من حدود نفسه إلى العالم الخارجي ، ويقترب من الواقع المسبوغ بالرمز ، كما يظهر استسلامه بوضوح دون رغبة في المقاومة ، حتى وإن فكر في المقاومة فإنه ينتهي الى الموت .

ويظهر جلياً الانفتاح على المجتمع من خلال إقامة حوارات خارجية مع أفراده دون الإيغال في الرمز ، وعالم الخيال ، والكوابيس في مجموعة « دمشق الحرائق - ١٩٧٣ » لذا يركز على سلطة العادات ، والأفكار ، والقيم البالية ، وسيطرة الجهل ، والاهتمام بالقشور في مواجهة الفرد . وينتد العالم في المجموعة الأخيرة « النمور في اليوم العاشر - ١٩٧٨ » ليصل بالفرد المقهور أدنى درجات الذل والامتهان ، فيقوم بترويضه وتحويله من حال الى حال (سادي ، عدواني ، يبوء مواء القطط ، ...) .

حدث كل ذلك في ظل مدينة معقدة ، عاش الفرد في قعرها ، تاركاً وراءه حي الفقراء - رمز البساطة في كثير من الأحيان - لعله يجد ضالته (معنى وجوده) فيها .

لقد تفرد طرح زكريا تامر في عقد الستينات حتى أصبح علامة واضحة على طريقة القص الحديثة ، فأفاد من الاتجاهات والمذاهب المختلفة ، ولم ينغلق على الشكل البنائي التقليدي .

كما لم لكن هناك صيغ جاهزة مشكلة ، وجاهزة أمامه ، لذا عمد إلى التجريب في سبيل صياغة تجربته القصصية ، فأزال الحدود بين الأجناس الأدبية ، حتى وجدنا في القصة القصيرة شيئاً من الشعر والأسطورة ، والتكثيف الرمزي ، مدركاً أهمية التراث في بناء تجربته القصصية التي انطلقت من عناصر ذاتية تتعلق بثقافته ورؤياه التي تعبر عن وعي جمعي بصيغة فردية . وكانت لغته مليئة بالحدة والتوتر ، عاكسة نفسية الأبطال المهزومين فامتازت بالإيحاء والانفعالية الشعرية ، والغرائبية المجردة التي تتكئ على مفردات الحلم والكوابيس بتوترها ولا معقوليتها . وقد عبر عن ذلك من خلال الحوار الداخلي (المنولوج) وتيار الوعي .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كما أنه اعتمد في بنائه التجريبي على تداخل الزمان الذي يوحي بزمن الغربة ، والعزلة ، في حركة حرّة تكاد لا تنتمي لزمن محدد ، ويكني أنها تدين الزمن الحاضر المدمر الذي لا يرحم .

متجاوزاً قيمة المكان كإطار جغرافي ، ليدخله في جدلية مع الأشخاص ، ويعكس نفسايتهم ، فمجرد حركة البطل بين المكان المفارق للذات (الشوارع العريضة) والمكان الموافق للذات (الشوارع الضيقة غالباً) دليل على نهاية الفرد ، واغترابه ، مع عدم إغفال المكانة التي حظيت بها دمشق المستباحة في نفسية أبطال زكريا .

بذلك نكتفي بالقول إن زكريا تامر واحد من أهم روّاد القصة التعبيرية الحديثة ، الذين مهّدوا الطريق أمام جيل السبعينات والثمانينات لخوض العالم الداخلي (اللاشعور) ، ورصد انفعالاته .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ا - المصادر

★ **المجموعات القصصية الخمسة للقاص زكريا تامر :**

١ - دمشق الحرائق ، ط١ ، اتحاد الكتّاب العرب ، ١٩٧٣م .

٢ - ربيع في الرماد ، ط٢ ، مكتبة النوري ، دمشق ، ١٩٧٨م .

٣ - الرعد ، ط٢ ، مكتبة النوري ، دمشق ، ١٩٧٨م .

٤ - صهيل الجواد الأبيض ، ط١ ، دار مجلة شعر ، بيروت ، ١٩٦٠م .

٥ - النمور في اليوم العاشر ، ط٢ ، دار الآداب ، بيروت ، ١٩٨١م .

★ **مجموع المقالات التي نشرت في الدوريات المختلفة حسب تاريخ الصدور:**

أ - مجلة التضامن / اللندنية :

١- اقتصادنا سليم ولن نستورد قتلة ، ع ١ ، ١٩٨٣م .

٢- الطبل محلي ، وهديل الحمامة مستورد ، ع ٢ ، ١٩٨٣م .

٣- الذئاب طابور خامس ، ع ٣ ، ١٩٨٣م .

٤- كما تكونوا تكون صحافتكم ، ع ١٣ ، ١٩٨٣م .

٥- إذا نمنا قتلنا (الانقلاب المسموح به) ع ٤٢ ، ١٩٨٤م .

٦- يوم صرنا سياحاً في بلادنا ، ع ٦٥ ، ١٩٨٤م .

٧- ماذا قال عباس بن فرناس ، ع ١٠ ، ١٩٨٥م .

٨- منامات شريبة الأطوار ، ع ٢١٢ ، ١٩٨٧م .

٩- ليس بوزير ولا بشاعر ، ع ٢٣٢ ، ١٩٨٧م .

١٠- الأرجوحة ، ع ٢٤٨ ، ١٩٨٨م .

ب - مجلة الدوحة / القطرية :

١- خواطر تسر الخاطر (الورق الأبيض يدافع عن حياته) ، ع ٩٣ ، ١٩٨٣م .

٢- خواطر تسر الخاطر ، من حابى خصمه غلب ، ع ٩٥ ، ١٩٨٣م .

٣- مَن لم يركب الأهوال لم ينل الآمال ، ع ١٠٩ ، ١٩٨٥م

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٤- خواطر " أبو حيان التوحيدي يحرق كتبه " ، ع ١١٦ ، ١٩٨٥م .
٥- خواطر " ابن فضلان " ، ع ١١٨ ، ١٩٨٥م .
٦- خواطر " الشوكيات " ، ع ١٢٣ ، ١٩٨٦م .
٧- خواطر " الليل ليل والنهار ليل" - الفوائد الخفية للمؤتمرات الأدبية ، ع ١٢٤ ، ١٩٨٦م .
٨- خواطر تسر الخاطر ، " الكواكبي الجديد" ، ع ١٢٦ ، ١٩٨٦م .
٩- خواطر تسر الخاطر ، "ماذا جرى للمتنبي في رحلاته" ، ع ١٢٧ ، ١٩٨٦م .

جـ - مجلة المعرفة السورية :

١- عطشان يا صبايا (عرض وتحليل) ، ع ٦ ، ١٩٦٢م .
٢- عرض وتحليل قصص عادل أبو شنب ، ع ١٠ ، ١٩٦٢م .
٣- دور النقد في التغيير ، ع ٢١٠ ، ١٩٧٩م .
٤- الأطفال والمستقبل ، ع ٢١٤ - ٢١٥ ، ١٩٧٩م - ١٩٨٠م .

د - مجلة الموقف الأدبي / السورية :

الكلمة السلاح - الكلمة الجارية ، ع ٣ ، ١٩٧٣م .

هـ - مجلة الناقد / اللندنية :

قال الملك لوزيره ، ع ١٠ ، ١٩٨٩م .

★ **الجرائد**

- جريدة القدس العربي / اللندنية .

الصحافة المتعطرة، ع ١٠٩٨، ٢١/٢٢/تشرين ثاني، ١٩٩٢م ، الصفحة الأخيرة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٣ - المراجـــع

١- أبتر . ت . ي ، أدب الفنتازيا (مدخل إلى الواقع) ترجمة : صبار السعدون ، دار المأمون ، بغداد ، ١٩٨٩م .

٢- إبراهيم السعافين، تطور الرواية العربية الحديثة في بلاد الشام (١٨٧٠م -١٩٦٧)، دار البشير ، بغداد ، ١٩٨٠م .

- المسرحية العربية الحديثة والتراث ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٩٠م .

٣- إحسان عباس ، اتجاهات الشعر العربي المعاصر ، ط٢ ، دار الشروق ، عمّان ، ١٩٩٢م .

٤- أحمد محمد عطية ، فن الرجل الصغير (في القصة العربية القصيرة) ، اتحاد الكتاب ، دمشق ، ١٩٧٧م .

٥- أديب عزت ، وإسماعيل عامود ، أعضاء اتحاد الكتّاب العرب في القطر السوري والوطن العربي ، ط٢ ، دمشق ، ١٩٨٤م .

٦- ألبيريس . ر . م ، الاتجاهات الأدبية في القرن العشرين ، ترجمة : جورج طرابيشي، ط١ ، منشورات عويدات ، بيروت ، ١٩٦٥م .

٧- بديعة أمين ، هل ينبغي إحراق كافكا ؟ ، ط١ ، المؤسسة العربية للدراسات ، دار المهد ، بيروت ١٩٨٣م .

٨- بورنوف . رولان ، وأوئيليه ريال ، عالم الرواية ، ترجمة : نهار التكرلي ، ط١ ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، ١٩٩١م .

٩- تيغيم . فيليب فان ، المذاهب الأدبية الكبرى في فرنسا ، ترجمة : فريد أنطونيوس ، ط٣ ، منشورات عويدات ، بيروت ، ١٩٨٣م .

١٠- جرييه . الآن روب ، نحو رواية جديدة ، ترجمة : مصطفى إبراهيم ، دار المعارف ، مصر ، (د . ت) .

١١- جلال يحيى . المجمل في تاريخ مصر الحديثة ، المكتب الجامعي ، (د . ت) .

١٢- حسام الخطيب ، سبل المؤثرات الأجنبية ، وأشكالها في القصة السورية الحديثة ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٣م .

- القصة القصيرة في سورية ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٨٢م .

- محاضرات في " تطور الأدب الأوروبي " ، ونشأة مذاهبه واتجاهاته النقدية ، جامعة دمشق ، ١٩٧٥م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١٣- حسن بحراوي ، بنية الشكل الروائي ، ط١ ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ١٩٩٠م .
١٤- حسين القباني ، فن كتابة القصة ، ط٢ ، مكتبة المحتسب ، عمّان ، ١٩٧٤م .
١٥- حنا مينة ، كيف حملت القلم ، ط١ ، دار الآداب ، بيروت ، ١٩٨٦م .
١٦- خالد القشطيني ، الساقطة المتسردة ، شخصية البغي في الأدب التقدمي ، ط١ ، المؤسسة العربية للدراسات ، ١٩٨٠م .
١٧- رياض عصمت ، الصوت والصدى (دراسة في القصة السورية الحديثة) دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٧٩م .
١٨- سهيل إدريس ، محاضرات عن القصة في لبنان ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٥٧م .
١٩- سيزا قاسم ، بناء الرواية (دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ) ط١ ، دار التنوير ، بيروت ، ١٩٨٥م .
٢٠- شاكر مصطفى ، محاضرات عن القصة السورية ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٥٨م .
٢١- شكري عياد ، القصة القصيرة في مصر (دراسة في تأصيل فن أدبي) معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٦٧م .
٢٢- عبد الإله أبو عباش ، أزمة المدينة العربية ، ط١ ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، ١٩٨٠م .
٢٣- عبد الرحمن الكواكبي ، طبائع الاستبداد ، ومصارع الاستعباد ، دار النفائس ، بيروت ، ١٩٨٤م .
٢٤- عبد الرزاق عيد ، العالم القصصي لزكريا تامر (وحدة البنية الذهنية والفنية في تمزقها المطلق) ، ط١ ، دار الفارابي ، ١٩٨٩م .
٢٥- عبد الغفار مكاوي ، التعبيرية في الشعر والقصة والمسرح ، الهيئة المصرية العامة ، ١٩٧١م .
٢٦- عدنان بن ذريل ، أدب القصة في سورية ، دار الفن الحديث العالمي ، دمشق ، (د . ت) .
٢٧- عز الدين إسماعيل ، الشعر العربي المعاصر ، (قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية) ، ط٣ ، دار الفكر ، (د . ت) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢٨- علي عشري زايد ، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر ، ط١ ، الشركة العامة للنشر والتوزيع ، ١٩٧٨م .
٢٩- عمر الدقاق . تاريخ الأدب في سورية ، ط٢ ، جامعة حلب ، ١٩٧٩م .
٣٠- فاولي . والاس ، عصر السريالية ، ترجمة : خالدة سعيد ، منشورات نزار قباني ، بيروت ، ١٩٦٧م .
٣١- فرويد . سيجموند ، حياتي والتحليل النفسي ، ترجمة مصطفى زبور ، ط٣ ، دار المعارف ، مصر (د . ت) .
٣٢- فوتو . برناردي ، عالم القصة ، ترجمة : محمد هدارة ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٦٩م .
٣٣- فورستر . أ . م ، أركان القصة ، ترجمة : كمال عيّاد جاد ، دار الكرنك ، القاهرة ، ١٩٦٠م .
٣٤- كافكا . فرانز ، تحريات كلب ، نقلاً عن بديعة أمين ، هل ينبغي إحراق كافكا ؟
- الجحر . نقلاً عن بديعة أمين .
- راكب الجردل ، نقلاً عن أحمد عصام الدين ، القصة الوجودية عند كافكا ، مجلة القصة ، ع ٢٠ ، ١٩٦٥م .
- القضية . ترجمة : مصطفى ماهر، دار الكتاب العربي ، القاهرة، (د . ت).
- المسخ ، ترجمة : منير بعلبكي ، ط١ ، مكتبة النهضة ، بيروت ، ١٩٥٧م .
٣٥- كرانستون . موريس ، سارتر بين الفلسفة والأدب ، ترجمة : مجاهد مجاهد ، الهيئة المصرية العامة ، ١٩٨١م .
٣٦- كروزيه . موريس ، تاريخ الحضارات العام (العهد المعاصر) ترجمة : يوسف داغر وآخرين ، ط١ ، منشورات عويدات ، بيروت ، ١٩٧٠م .
٣٧- لوبوك . بيرسي ، صنعة الرواية ، ترجمة : عبد الستّار جواد ، دار الرشيد ، بغداد ، ١٩٨١م .
٣٨- لويس معلوف ، المنجد في اللغة والأدب والعلوم ، ط٢٢ ، دار المشرق ، بيروت (د . ت) .
٣٩- مأمون فريز جرار ، الغزو المغولي ، أحداث وأشعار ، ط١ ، دار البشير ، ١٩٨٤م .
٤٠- محمد كامل الخطيب ، السهم والدائرة ، دار الفارابي ، بيروت ، ١٩٧٩م .
٤١- محمد يوسف نجم ، فن القصة ، دار الثقافة ، بيروت ، (د . ت) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٤٢- محمود السمرة ، في النقد الأدبي ، ط١ ، الدار المتحدة ، ١٩٧٤م .
٤٣- ابن منظور ، لسان العرب ، دار صادر ، بيروت .
٤٤- موير . أدوين ، بناء الرواية ، ترجمة : إبراهيم الصيرفي ، الدار المصرية للتأليف ، (د . ت) .
٤٥- نبيل راغب ، المذاهب الأدبية من الكلاسيكية إلى العبثية، مكتبة مصر، (د . ت).
٤٦- نبيل رمزي ، الاغتراب وأزمة الإنسان المعاصر ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٨٨م .
٤٧- نبيل سليمان، وبو علي ياسين، الأيدلوجيا والأدب في سورية (١٩٦٧م -١٩٧٣م)، ط١ ، ابن خلدون ، بيروت ، ١٩٧٤م .
٤٨- نبيلة إبراهيم ، نقد الرواية ، النادي الأدبي ، الرياض ، ١٩٨٠م .
٤٩- نعيم اليافي ، التطور الفني لشكل القصة القصيرة في الأدب الشامي (سورية ، لبنان ، الأردن ، فلسطين) اتحاد الكتّاب العرب ، ١٩٨٢م .
٥٠- همفري . روبرت ، تيار الوعي في الرواية الحديثة ، ترجمة : محمود الربيعي ، ط٢ ، دار المعارف ، مصر ، (د . ت) .
٥١- يوسف نوفل ، قضايا الفن القصصي ، ط١ ، (د . ن) ، ١٩٧٧م .
٥٢- دون تحقيق ، ألف ليلة وليلة ، (مج٣) ، دار الهدى الوطنية ، بيروت (د . ت).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٣ - الدوريـــات

أ - مجلة الآداب :

١- سمير فريد ، قرأت في العدد الماضي من الآداب ، ع ٥ ، ١٩٦٦م .

٢- شاكر نوري ، مشكلة الاغتراب في الأدب والفن ، ع ٨ - ٩ ، ١٩٧٩م .

٣- صبري حافظ ، مسافر في عالم مضطرب ، ع ٩ ، ١٩٧٣م .

٤- صدقي إسماعيل ، قرأت في العدد الماضي من الآداب ، ع ٩ ، ١٩٥٩م .

٥- فاضل السباعي ، قرأت في العدد الماضي من الآداب ، ع ٩ ، ١٩٦٢م .

٦- نازك الملائكة ، قرأت في العدد الماضي من الآداب ، ع ١٢ ، ١٩٥٩م .

ب - مجلة الأسبوع الثقافي :

- ماهر شنيق ، الجنس في القصة العربية المعاصرة ، ع ١٠٤ ، ١٩٧٥م .

جـ - الأقـــلام :

١- إبراهيم السعافين ، لغة السفينة ، ع ٢ ، ١٩٨٩م .

٢- اعتدال عثمان ، تحولات القص في أدب الثمانينات ، ع ٦ ، ١٩٨٩م .

د - أوراق :

- هالة سمتوق ، ثقافة الطفل - تغريب في دائرة الطاعة ، ع ٨ ، ١٩٨٤م .

هـ - البـــيان :

- إدوار الخراط ، السريالية في الأدب ، ع ١٠٦ ، ١٩٧٥م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

و - تراث الإنسانية :

- مصطفى ماهر ، القضية لكافكا ، مج ١٥ ، ع ١١ .

ز - التضامن :

- صفحة المحرر ، أوراق ، ع ٢ ، ١٩٨٣م .

ح - الحياة الثقافية :

- ليلى درغرث، المكان والزمان، في يوميات نائب في الأرياف، ع ٥٨، ١٩٩٠.

ط - مجلة دراسات / الجامعة الأردنية :

- سمير قطامي ، أزمة الإنسان في قصص زكريا تامر، مج ١٠، ع ١، ١٩٨٣م.

ي - دراسات اشتراكية / سورية :

- غالب هلسا ، دلالة المكان في قصص زكريا تامر ، ع ٤ ، الثقافي ، ١٩٨٩م.

ك - عالم الفكر :

- إبراهيم محمود ، حول الاغتراب الكافكاوي - رواية المسخ نموذجاً ، مج ١٥ ، ع ٢ ، ١٩٨٤م .

ل - فصول :

- نعيم عطية ، مؤثرات أوروبية في القصة القصيرة في السبعينات ، مج ٢ ، ع ٤ ، ١٩٨٢م .

م - المأثورات الشعبية :

- سيد حامد ، تحديد مفهوم الأدب الشعبي ، ع ٣ ، ١٩٨٦م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ن - **المعرفة/** السورية :

١- رياض عصمت ، همسوم زكريا تامر ، ع ١٨٩ ،١٩٧٧م .

٢- محيي الدين صبحي ، ظواهر مكانية جديدة في تغيير الحساسيات الأدبية في السبعينات ، ع ١٣٥ ، ١٩٧٣م .

- مقابلة مع زكريا تامر ، ع ١٢٦ ،١٩٧٢م .

س - **مجلة الموقف الأدبي :**

١. سليمان زيدية، مختارات قصصية سورية نقلت إلى الروسية، ع ٩٢، ١٩٧٨م.

٢. ناديا خوست ، ملامح واقعية في قصص زكريا تامر ، ع ٨٥ ، ١٩٧٨م .

٣. هيئة التحرير ، استفتاء حول واقع القصة وقضاياها ، ع ١٠ ، ١٩٧٤م .

٤. يوسف اليوسف ، القصة الجديدة في سورية ، ع ٧٣ ،٧٤ ،٧٥ ، ١٩٧٧م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٤ - الرسائل الجامعية

١. إيمان القاضي ، السمات النفسية ، والفنية للرواية النسوية في بلاد الشام (١٩٥٠م - ١٩٨٥م) ، ر . ج ، جامعة دمشق ، ١٩٨٩م .

٢. زهير عبيدات ، صورة المدينة في الشعر العربي الحديث ، ر . ج ، جامعة اليرموك ، ١٩٨٧م .

٣. سحر السبرقي ، حركة التأليف الأدبي واللغوي في القطر السوري منذ مرحلة الاستقلال حتى منتصف السبعينات ، ر . ج ، جامعة دمشق ، ١٩٨١م .

٤. محمود الأطرش ، اتجاهات القصة في سورية بعد الحرب العالمية الثانية ، ر . ج ، جامعة القديس يوسف ، بيروت ، ١٩٨٠م .

٥. مها عوض الله ، المكان في الرواية الفلسطينية ، ر. ج ، جامعة اليرموك ، ١٩٩١م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

-٥/١٥٠

حققوا في نيل وسيلة واحدة فقط، ومازالت هناك وسائل كثيرة كفيلة بتحقيق ما يصبون اليه. فاللص والمواعي يشؤون مهنته حين يقتحم بيتا ما ولا يجد فيه ثمينا يسرقه، لا يقنط اذ يعرف ان هناك بيوتا اخرى باستطاعته السطو عليها والعثور فيها على غنيمة. وبذا فان السياسي العربي الذي لا يظفر بمنصب يسب به، لا ينتحر، بل يظل مستمرا في ممارسة السياسة، منتظرا ان ينتحر شعبه.

الدجاج العربي

تظن فرنسا موطن الابداع والابتكار والتجديد، ففي شوارع ثلاث مدن فرنسية، اطلق مزارعون ثلاثين الف دجاجة احتجاجا على السياسة الزراعية للحكومة الفرنسية. قائلين انهم فضلوا ذبحها الف مرة بعد ان عجزوا عن اطعامها، وينبغي [illegible] المهمة بدلا منهم.

وسرعان فقراء البلاد العربية هؤلاء المزارعين الفرنسيين، واطلقوا في الشوارع ما يملكون من اولاد بحجة انهم يجاهدون ليل نهار دون ان ينجحوا في تأمين القوت اليومي الضروري لهم، فمن المؤكد ان الشوارع ستكتظ بهم الى حد ان امطار الشتاء ميما هطلت غزيرة فلن تصل قطرة منها الى الارض. ومن المؤكد ايضا ان بعض [illegible] من العرب سيرحب بما سيحدث، وتصوره جيدا على انه تظاهرات شعبية ضخمة تطيح بنظم بائدة الجيل الحديد بغية التعبير عن حبه وتقديره وعمله لاولي امره، ولن يجرؤ اي اب على تكذيب ما قالته جهزة الاعلام، فالمواطن الصالح يكذب ما يعاني ويصدق الاذاعات والجرائد والخطب.

والمواطنون العرب في معظم اقطارهم حريصون على ان يكونوا صالحين، فالعنق الاعزل لا يلام اذا تهرب من مواجهة سكين عطشى الى الدم.

الكفاح في سبيل الاستعمار

لما كانت الاخلاق الحميدة هي التي تصول وتجول في الميدان في هذه المرحلة البديعة من حياة العرب، فمن الضروري اذاً بدء الكلام بالتعريف بالخمارة.

الخمارة يأبها القراء الذين لا يشربون سوى الماء والحليب والبيبسي كولا وعصير الفواكه ودماء الاعداء هي مكان يقدم الخمور في كؤوس، ويقصدها من يرغب في احتسائها، فيقعد على كرسي وراء منضدة، ويطلب من الجرسون ما يشاء من انواع الخمور، فاذا كان يسارياً اختار الويسكي الاسكتلندي، اما اذا كان يمينياً فانه يختار وفق ما في محفظته من مال.

وفي بعض المدن العربية، توجد مطاعم عربية ولغة عربية ورقص عربي وسياسة عربية، وتوجد ايضا خمارات عربية. وواحدة من هذه الخمارات يملكها مواطن اسمه الخواجة ميشيل. والخواجة ميشيل ليس بائعاً للخمر فقط بل هو سكير من الطراز الاول، فاذا شرب واحد من رواد خمارته كأساً، شرب هو كأسين.

وللخواجة ميشيل ايديولوجية خاصة بشرب الخمر وآدابه وتقاليده، فهو ينظر بازدراء الى من يحتسي الخمرة نهاراً، ويقول: «الليل وحده فقط خلق للسكر وللتشاجر مع الزوجات. اما النهار فيجب ان يكرس لتهديم الوطن باسم البناء».

وحين يسكر الخواجة ميشيل ويصبح ما ينساب في شرايينه ليس دماً بل خمراً، يصبح متسائلا بغضب: «الا يوجد في البلد رجال يجرؤون

الاستعمار على الرجوع الينا؟».

والخواجة ميشيل الآن تائب عن شرب الخمر مكتفياً ببيعه، بعد ان نال امنيته التبشيرية بالمعجزة، فها هي ذي الارض العربية مكتظة برجال اشداء يكافحون ليل نهار لاعادة الاستعمار اليها، وكفاحهم ليس بالمخفق بل يحققون النصر تلو النصر، وسيحرزون المزيد من الانتصارات اذا ظل الناس نياماً تاركين للذئاب حراسة خرافهم.

الوطن العربي غابة

كان النمر قاعداً مع ابنه الصغير تحت اغصان شجرة من أشجار الغابة الفسيحة الأرجاء، فدنا منه الحمار، وقال له متسائلا بخوف: «أتأذن لي بالتكلم معك؟».

قال النمر وهو يتثاءب: «تكلم، فالقوانين تكفل لكل مواطن حرية الكلام».

قال الحمار: «أنا تجولت في الغابة ولم اترك مكاناً فيها لم أزره وقابلت كل من يحيا فيها...».

فقاطعه النمر قائلا بنزق: «أتريد ان تخبرني انك حمار سائح؟!».

قال الحمار وقد تعاظم خوفه: «كل ما أبغيه هو ان أنقل اليك رأيي بك».

قال النمر بسخرية: «هيا تكرم باسماعي رأيك بي فانا سأصاب بالزكام اذا لم اسمعه».

قال الحمار: «ما سأقوله لك ليس نفاقاً ولا مجاملة ولا رياء بل هو الحقيقة وحدها ولا أبغي من قولها لا مكسباً ولا مغنماً».

قال النمر بسأم: «قل ما تريد بايجاز ولا تتحدث كالادباء العرب حين يستخدمون مليون كلمة ليقولوا فقط إن السماء زرقاء».

قال الحمار: «ما أبغي قوله هو أنك الأقوى والأشجع ولا أحد في الغابة يصارعك ويستحق ان يقارن حتى بذيلك، ولذا فأنا معجب بك اعجاباً أعجز عن وصفه».

ما ان سمع النمر ماقاله الحمار حتى غضب غضباً شديداً، ووثب عليه وثبة صاروخية طرحته ارضاً وأهلكته.

تعجب ابن النمر، وقال لأبيه: «لم يقل الحمار سوى الكلام الحسن، ولم يفعل ما يستحق ان ينتهي هذه النهاية السيئة!».

قال النمر حانقاً مؤنباً: «لم تكن صغير السن، صغير العقل، لادركت ان اعجاب حمار بنمر عار، لا يمحوه إلا الدم».

وصمت النمر لحظات مفكراً، ثم قال لابنه بوقار: «فتعلم يابني ان النمر الجدير حقاً بالاعجاب هو ذاك الذي تعجب به نمور مثله لا الحمير».

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(٢)

بقلم: زكريا تامر

مدرسة عربية لجنرالات بريطانيا

الجنرال الذي كان قائد الاسطول البحري البريطاني في حرب الفوكلند، اقسم على الاستقالة من منصبه غير آبه للنتائج، معتقدا ان ايجاد عمل آخر له ليس بالمشكلة العسيرة. فلما به بعد الاستقالة يكتشف انه كان مخطئا خطأ فادحا. فالواقع الحياتي ليس كما اعتقد، وبات يعاني ازمة الحصول على عمل ومسكن حتى انه اضطر الى تسجيل اسمه في قوائم العاطلين عن العمل. وهي قوائم طويلة تضم اكثر من ثلاثة ملايين شخص.

وقد حكى هذا الجنرال لجريدة بريطانية عن احواله، فقال انه بحاجة ماسة الى العمل لدفع نفقات دراسة اولاده الثلاثة الذين لا يتجاوز عمر اكبرهم ١٥ سنة.

وهذه النهاية القاسية المرة للجنرال البريطاني، لو بلغت مسامع بعض الجنرالات العرب لضحكوا طويلا وسخروا منه وتهموه بثقة بالغباوة. فلو كان مثلهم جنرالا عربيا واستقال من منصبه لما عانى اي مشكلة حقيقية. فالجنرال هو جنرال وليس مجرد مواطن عادي. ومن كان جنرالا ينبغي له ان يتحلى بذكاء يمكنه من استثمار منصبه خير استثمار، فيصول ويجول في شتى البلدين غير الحربية، ويبيع ويشتري، ويشارك في الصفقات التجارية والسياسية، ويحول جنوده الى لصوص وقطاع طرق ومهربين مهرة اشاوس يعترف الخصم قبل الصديق بمستواهم القتالي. فاذا حل يوم تركه الجيش لسبب من الاسباب، لم يواجه الا مشكلة واحدة: أيضع امواله في البنوك ام يستثمرها في مشاريع؟

وهذا الجنرال العربي ينظر اليه على انه البطل المهاب ومفخرة البلاد ومنقذ الاوطان ومحرر الاراضي السليبة مع ان سجله يثبت انه هزم في أي معركة خاضها، واخفق في تحقيق انتصار واحد في مشاجرة مع بائع خضراوات او جرسون ملهى، ولم يصب يوما بجرح حتى وهو يحلق ذقنه.

اما هزائمه تلك فهي ليست هزائم كما يروج الحاقدون المغرضون بل هي انتصارات جليلة. والدليل هو ان العدو كان يريد احتلال ثلاث مدن فتصدى الجنرال له ولم يمكنه الا من احتلال مدينتين فقط، ولذا فمن حقه الحصول على التكريم المعنوي والمادي وافتتاح مدرسة حضانة للجنرالات البريطانيين.

من سيختفي: الورد أم الشوك؟

ابتكرت حكايات الف ليلة وليلة طاقية الاخفاء السحرية، فمن كان حسن الحظ وامتلكها تتيح له التواري عن الانظار، وفعل ما يشاء دون ان يراه أحد.

وظل امتلاك تلك الطاقية السحرية املا جميلا يتحقق في الحكايات ولا يتحقق على ارض الواقع.

ولكن ثمة مبدعين فرنسيين محبين للتطوير، طمحوا الى اضافة جديد الى ما جاءت به حكايات الف ليلة وليلة، فابتكروا خيالهم غرفة للاخفاء لا طاقية، ثم جسدوا ما ابتكروه في فيلم سينمائي قصير يروي الحكاية الغريبة التالية: رجل وامرأة متزوجان يحتلان في سيارة اجرة الى فندق، ويدخلان الى الفندق حاملين حقيبتيهما، وهناك يتسلمان مفتاح غرفتهما، ويحمل احد العاملين في الفندق حقيبتيهما ويوصلهما الى غرفتهما.

وما ان يدخلا اليها حتى تسارع الزوجة الى اخراج ثيابها من حقيبتها ووضعها في الخزانة بينما الزوج يتفحص الغرفة. فاذا هي صغيرة تشتمل على سريرين ضيقين وخزانة وحمام. ثم يفتح حقيبته ويخرج منها علبة تحتوي ادوات الحلاقة وفرشاة الاسنان، ويذهب الى الحمام.

ويضع العلبة على رف، ثم يخرج من الغرفة مقصا صغيرا، ويعود الى الغرفة، ويقلم احد اظافره. فيسقط المقص على الارض، فينحني ويبحث عنه بحثا دقيقا، فلا يعثر عليه، فيدهش، ولكن دهشته سرعان ما تزداد حين يتنبه الى ان حقيبة ثيابه قد اختفت، فيتجمد لحظات مذهولا. ويبلغ سمعه ضجيج غريب آت من خارج الغرفة، فيفتح الباب، ويطل برأسه مستطلعا، فيجد خادما بكنس الممر بمكنسة كهربائية، فيغلق الباب، ويستدير، ليجد زوجته وحقيبتيها وثيابها المعلقة في الخزانة، فيبادر الى الاتصال تليفونيا بموظف الاستعلامات في الفندق، ويطلب اليه الحضور توا الى الغرفة. فينفذ موظف الاستعلامات طلبه، ويقصد الغرفة، ويقرع بابها، ثم يدخل اليها، فاذا الغرفة خاوية ولا أحد فيها، فيقف لحظات مستغربا، ثم يهم بالخروج، ولكنه يتوقف اذ يلمح مقصا صغيرا ارضية الغرفة، فينحني ويتناوله ويتأمله مليا، ثم يضعه في جيبه ويغادر الغرفة، لينتهي الفيلم.

فلو امتلك العرب مثل هذه الغرفة الغريبة الطريفة التي يختفي فيها كل شيء، فماذا سيضعون فيها كي يختفي ويزول من حياتهم؟

من البديهي انهم لن يضعوا فيها ما كان سببا لفرحهم الغادر بل سيضعون فيها ما هو سبب بؤسهم وتعاستهم وذلهم.

ولو اجري استفتاء حقيقي يكشف عن الاستفتاءات الشائعة المعتادة والتي تتصف بأن نتائجها معروفة قبل اجرائها، فلا شك ان المشاركين فيه سيكشف آراؤهم حول ما يرشحونه للاختفاء من حياتهم، ولكنهم سيجمعون على ان عددا من حكامهم العرب يجب ان يدخل هذه الغرفة ولا يخرج منها. واجماعهم هذا يعبر عن رأيه الخفي غير الحسن في حكامهم، ولكن الواعين منهم لن يستسلموا لأي تفاؤل. فهم يعرفون جيدا خبرة حكامهم العريقة في الحفاظ على بقائهم. فقد يدخلون تلك الغرفة السحرية، فتختفي الغرفة والفندق والعاملون فيه، ويبقى الحكام.

لماذا نرى الذبابة ولا نرى الجمل؟

قال اسكندر ريكونكوف المدعي العام السوفياتي في مقال له انه فزع بسبب غياب الامن والنظام في بعض اجزاء البلاد، وان السير في الشوارع ليلا بات محفوفا بالمخاطر نتيجة لنشاط المجرمين الذين صاروا يحكمون بعض المدن في الليل. فسارعت احدى الصحف العربية الى نشر اقواله في صفحتها الاولى وابرزتها كأنها فضيحة القرن العشرين او كأنها نبأ احتلال القوات الاميركية لموسكو وزحفها نحو لينينغراد، او كأنها اعترافات لبريجنيف باردو بأنها اعتنقت الدين الاسلامي وتزوجت من ماسح احذية عربي. وتجاهلت الصحيفة عن عمد او عن سذاجة الفضيحة الاكبر والاخطر التي يتكرر حدوثها يوميا في الحياة العربية.

ففي كل مجتمع بشري لا بد من وجود اشرار

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٥/١٥٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الجبار، ولكن الانتحار اذا خالفوا القوانين المعمول بها طاردتهم السلطات المختصة المسؤولة بغير هوادة واعتقلتهم وقدمتهم الى المحاكم لينالوا جزاءهم العادل.

هذا المجتمع العربي فهو يختلف اختلافا بينا، فكان قتلة الاتحاد السوفياتي ولصوصه يسامرون الليل مسرحا لنشاطهم فان اشباههم في البلاد العربية يمارسون اعمالهم في الليل والنهار وهم مطمئنين.

واذا كان المجرم في الاتحاد السوفياتي هو قاتل وسارق ومغتصب، فهناك في البلاد العربية من يقتل ويسرق ويغتصب ولا يطارد بل هو الذي يطارد ويبتغي ارفع المناصب، فالى متى نقلد الجعل في الذبابة على ظهور غيرها ولا نرى ما على ظهورنا من كوارث ومصائب لها اسماء شتى وجلية؟

الطبل محلي وهديل الحمامة مستورد

ان عدد من الشعراء العرب المشهورين بالتزامهم بالايديولوجية الاشتراكية العلمية، كتب في احدى قصائده ما يقنع ان المقاتلين الفلسطينيين اللبنانيين لم يصمدوا ببطولة في وجه العدو الصهيوني الا ليبرهنوا على انهم يطبقون بحماسة الآراء والافكار التي سبق له ان بثها في قصائده التي نظمها قبل سنوات، فهل الشعر العربي الملتزم مازال مؤثرا في حياة الناس وسلوكهم الى هذا الحد؟

واذا كان الجواب ايجابيا، فلماذا لا يزال التخلف يسود في البلاد العربية ويزداد قوة يوما بعد يوم بالرغم مما نرى من الانصار والاعوان والاتباع؟

وما كتبه هذا الشاعر ذكرني بزيارة لي لبلد من بلدان العالم الاشتراكي، قابلت فيها كثيرا من ادبائه المعروفين، وكان من بينهم شاعرة قدمت الي على انها مشهورة جدا واشعارها تحظى بحب عظيم من الناس العاديين كما تحظى بتقريظ النقاد المختصين. تأملت الشاعرة بفضول، فاذا هي انثى ضخمة جميلة جدا. وجديرة بأن تصبح مشهورة حتى اذا لم تنظم اي اشعار.

وقد علمت انها مقتنعة تماما كاملا من قبل النظام الحاكم في بلدها، سارعت الى سؤالها عن طريق المترجم «هل استطاع النظام الحاكم في بلدك ان يصنع السعادة للانسان؟».

فحملقت الشاعرة الي كأنها لم تفهم سؤالي. فطلبت من المترجم ان يكرر سؤالي. ففعل، فنظرت الشاعرة باستنكار مهذب كأني اتهمتها بغير لائق انها عميلة للمخابرات الاميركية، ثم قالت متسائلة بدهشة: «ما علاقة انظمة الحكم بسعادة الانسان؟ نظام الحكم الصالح يكفل للناس حريتهم ويحسن اوضاعهم المعيشية. اما اذا كان الناس حزانى اوسعداء فهذا شأن من شؤون حياتهم الخاصة».

وروت الشاعرة لي كيف انها مرت بأيام كانت تسير في الشتاء في الشوارع بحذاء مثقوب يتسرب منه الماء الى قدميها، ولكنها كانت اسعد انسانة على سطح الارض لأنها كانت تتابط ذراع رجل تحبه ويحبها، ثم مرت بها ايام ظفرت فيها بالمال والجوائز والتكريم والمجد الادبي ولكنها كانت لحظة تضع رأسها على الوسادة ليلا تبكي وهي تحس ان لا احد في الدنيا يفوقها بؤسا.

ثم تحدثت الشاعرة مطولا عن آرائها في الحياة والادب ودوره وعن شعرها. فلم تقل ان شعرها يحرر بلادها من الرجعية، ولم تقل انه هزم الامبريالية.

ان التزام الاديب بمشكلات وطنه امر مطلوب ومهم وضروري. كما ان ثقة الاديب بنفسه صفة حسنة ولا بد من توفرها ليستمر في العطاء والتطور، ولكنها حين تتضخم تتحول الى مرض يحتاج الى علاج عاجل من اطباء مختصين. ولا تنفع آنذاك عصا النقاد مهما كانت قاسية.

موعظة المسمار

يقال ان فضوليين سألوا المسمار في غابر الازمان: «كيف تستطيع ان تنفذ في جدار من حجر؟».

فقال المسمار: «ستعرفون الجواب اذا نظرتم الى المطرقة التي تنهال علي».

اما المسمار في المرحلة الحالية، اذا ما التقى بفضوليين، وسألوه السؤال نفسه، فانه لن يجاوب جوابه القديم ذاته، بل سيقول: «لو لم يكن الجدار ضعيفا واهنا لما استطعت اختراقه».

فدائيو سويسرا

الكلاب الشاردة في الشوارع العربية كفت عن النباح والتشاجر لحظة علمت بما جرى، وتهامست باستغراب: «يا له من خبر مثير!».

والقمر قال للنجوم: «هذا خبر لا يصدق».

والضفادع في الانهار امتنعت عن النقيق ودهشت اشد الدهشة عندما نمي اليها ذلك الخبر الهائل إن ثريا عربيا اقام في سويسرا حفلا بمناسبة عيد ميلاد ابنته. واشترى للحفل ازهارا بمبلغ قدره ٢٥ الف جنيه سترليني.

اما الضاحك الباكي فقد قرأ الخبر برأس منكس، وتذكر الفقراء العرب الناقمين على العلم لعدم نجاحه حتى الآن في اختراع ما من شأنه ان يجعلهم يستغنون عن الطعام، فيتحررون من قيود ترغمهم المعد الخاوية على الخضوع لها.

ولقد تخيل الضاحك الباكي انه التقى بذلك الثري العربي، وألقى على مسامعه خطبة وطنية حماسية تحث على دعم العمل الفدائي بالأرواح والأموال، فتأثر ذلك الثري تأثرا بالغا، وأوشك ان ينتحب ويلطم الخدود تعاطفا، ثم اعلن انه مستعد لطبع موجز لخطبة الضاحك الباكي على نفقته وتوزيعها مجانا على الفدائيين وأسر الشهداء منهم.

فابتسم الضاحك الباكي مقتنعا ان يوم استعادة العرب للاندلس لم يعد بالثاني.

عثرة لسان أم عثرة قدم؟

الاديب المصري المعروف الدكتور يوسف ادريس، يكتب حاليا في احدى المجلات مقالات مسلسلة تركز على امرين، الامر الاول: انطباعاته وافكاره حول اسرائيل واهدافها التوسعية وغزوها للبنان وخطتها السرية للسيطرة على العالم بأسره. اما الامر الثاني فهو وصف المتاعب التي عاناها في اثناء سفره الى واشنطن لمداواة عين ابنه المصابة بانفصال الشبكية.

وقد قال ان المستشفى الاميركي طلب اليه دفع مبلغ ثلاثة آلاف دولار كتأمين، ولم يكن المبلغ معه.

وقوله هذا غريب للغاية. فيوسف ادريس طبيب وله خبرة غير عادية بشؤون المستشفيات الاجنبية وانظمتها، وما طلبه المستشفى الاميركي هو أمر عادي، ولا يمكن اعتباره مؤامرة رجعية ضد اديب تقدمي، بل ان المبلغ المطلوب كتأمين ليس بالمبلغ الكبير اذا ما قورن بما تطلبه مستشفيات اخرى اوروبية، فمستشفيات لندن تطلب من المريض الراغب في المداواة دفع تأمين لا يقل عن ستة آلاف دولار، وهذا التأمين ارتفع في الآونة الاخيرة الى عشرة آلاف دولار.

واي سائح اذا اراد السفر الى خارج بلاده للمداواة، يسأل ويستفسر ويستعد ولا يركب الطائرة الا بعد ان يحمل معه ما يحتاج اليه من نقود. فهل ذهب يوسف ادريس الى واشنطن خاوي الجيوب معتمدا على الكرم الاميركي فبوغت بمخل وعدم تقدير للادب التقدمي والادباء التقدميين؟

ولكن القراء لم يباغتوا بالموقف الاميركي بل بوغتوا بموقف اديبهم.

٥/١٥٢

الطاووس

(٣)

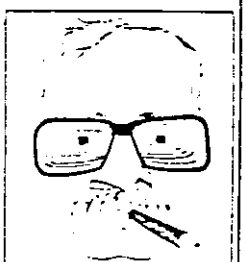

بقلم: زكريا تامر

غاب شهرين ثم جاء بكلبين

في يوم من ايام سنة ١٩٨٣، التقى حمار بطاووس، وتحدث معه مطولا. فاذا الطاووس متواضع وبديع بعيد عن الغرور. فدهش الحمار، وقال للطاووس بلهجة مفعمة بالاعجاب والاحترام: «قل بانني لست من المنافقين المتملقين. ولكن صفاتك رائعة الى حد انها تدحض كل ما يقال عن الطواويس».

قال الطاووس: «وماذا يقال عن الطواويس؟».

قال الحمار: «الا تعرف؟ يقال عن الطواويس انها مغرورة متعجرفة متكبرة انانية».

قال الطاووس برصانة: «ما يقال ليس كذبا».

قال الحمار: «اذن هل يمكن اعتبارك حالة استثنائية وطاووسا ذا اخلاق مختلفة عن اخلاق بقية الطواويس؟».

قال الطاووس متمتما باستغراب: «ومن قال لك اني طاووس؟ انا لست طاووسا».

قال الحمار: «هل تطلب مني ان اكذب ما تشاهده عيناي؟».

قال الطاووس: «انا الآن طاووس، ولكني لست طاووسا».

قال الحمار بصراحة: «هذا كلام غير مفهوم. ويذكرني بزعماء عرب يقولون انهم عرباً ولكنهم ليسوا عرباً».

قال الطاووس: «يحق لك الا تفهم ما قلته لانه يحتاج الى قليل من الشرح».

قال الحمار: «هيا اسمعني شرحك الذي اصبحت متلهفا على سماعه اشد اللهفة».

قال الطاووس: «انا لم اولد طاووسا بل ولدت ديكا. وعشت طول حياتي ديكا غزا قلوب مئات العذارى من الدجاج».

قال الحمار: «انا لا اصدق ما تسمعه اذناي. ولا بد انك تمزح».

قال الطاووس: «بل صدق. واستعد لسماع المزيد مما لا يصدق».

قال الحمار: «كيف صرت طاووسا؟ هل اجريت لك عملية تجميل؟».

قال الطاووس: «لا. انا لم ادخل يوما الى عيادة طبيب. ولم ازرت طبيبا لكنت منذ سنين عظاما».

قال الحمار: «هذا الجواب يجعلني احتار اكثر».

قال الطاووس: «لا داعي الى الحيرة. لقد تحولت من ديك الى طاووس اثناء قراءتي لمقال منشور في مجلة عربية».

قال الحمار: «وهل من المعقول ان يؤثر مقال واحد مثل هذا التأثير الغريب؟».

قال الطاووس: «ولكن المقال لم يكن مقالا عاديا بل ان كاتبه قال في مطلعه انه لا يعتقد بوجود خلافات بين الحكومات العربية حاليا».

قال الحمار: «ولكن الحكومات العربية مختلفة الى حد انها لو كانت تمتلك قنابل نووية لاستحالت المدن والقرى العربية الى خرائب وانقاض ومقابر».

قال الطاووس: «هذا رأي غير صحيح. فالحكومات العربية تتصنع انها مختلفة كي تخدع العدو الصهيوني، فيشن الهجوم عليها، معتقدا انها ضعيفة بسبب تفرقها وخلافاتها، فتباغته انها جبهة واحدة وصفوف متراصة متلاحمة».

قال الحمار: «انت ابتعدت عن لب الموضوع، ولم تخبرني كيف صرت طاووسا».

قال الطاووس: «ما ان قرأت المقال حتى اقتنعت بما جاء فيه، وطغى عني الزهو والفرح الى حد انني تحولت من ديك الى طاووس».

قال الحمار بعد تفكير قصير وبصوت خانق: «هذا الكاتب يستحق ان يقدم الى المحكمة ليحاكم بتهمة الخيانة العظمى».

قال الطاووس متسائلا باستنكار: «ولماذا يحاكم؟ هل قول الحقيقة خيانة عظمى؟».

قال الحمار بنزق: «انه يستحق المحاكمة والاعدام شنقا لانه افشى سرا من اخطر الاسرار الحربية».

قال الطاووس: «عن اي سر تتحدث؟».

قال الحمار: «انا اتحدث بالطبع عن الاعداد الصهيونية».

ومن المعروف ان بعضهم يتقن اللغة العربية اكثر من اعظم الادباء العرب الجدد. وما ان يطلع على مقال هذا الكاتب حتى يسارع الى ايلاغ رؤسائه الى ما ورد فيه، فيعلمون ان ثمة فخا منصوبا لهم بذكاء ومكر، ويبادرون الى اعداد خطط جديدة تكفل لهم الانتصار».

فكر الطاووس لحظات واجما، ثم قال للحمار: «يخيل لي ان ما قلته ليس مخطئا».

وعاود الطاووس التفكير من جديد، فآمن ان كاتب المقال قد ارتكب خطأ وطنيا لا يغتفر، وكف عن الاعجاب به، فاذا هو يتبدل. ويعود ديكا طائشا يطارد الدجاجات بغير خجل، ويتحرش بهن تحرشا منافيا للحشمة والفضيلة، ومعاديا للاخلاق الحميدة

بارد كالانكليز

يُتهم الانكليز بالبرود، وقد شاعت هذه التهمة عالميا، وباتت مادة للتندر والهزء حتى ان الثرثارين يريد ان تسخر من عدوها الماء تقول له «انت كالانكليز».

فهل هذه التهمة حقيقية ام انها مجرد شائعة رائجة؟

ولعل وقائع الحادثة التالية تساهم في ايضاح الجواب المنشود.

اشترى مواطن انكليزي من احد محلات التجزئة الشهيرة جهاز تلفزيون مكفولا مدة سنة. فلما اراد اخذه الى بيته حتى يوقت به بلا صوت ولا صورة، فاعاده الى المحل الذي اصلح جهاز التلفزيون، ثم اعاده الى صاحبه.

وبعد ايام قليلة، اعاد المشتاري جهاز التلفزيون الى المحل لاجراء تصليح آخر.

وتكرر الامر الى حد ان المشتري الانكليزي نفد صبره وغضب، واقدم على تحطيم واجهة المحل الزجاجية احتجاجا. وكانت واجهة طويلة عريضة، غالية الثمن ويتطلب استبدالها عملا يستمر اياما.

وما فعله هذا المواطن الانكليزي المتهم بالبرود اذا قورن بما يفعله بعض العرب اليوم يقتضي المبادرة الى اجراء تصحيح عاجل لا بد منه لكل من سعى لطلب الحقيقة.

العرب يخدعون، ويكتشفون انهم مخدوعون، فلا يغضبون.

ويهانون فلا يغضبون.

تحتل ديارهم، فيثرثرون باصوات خافتة او عالية، ولا يغضبون.

يباعون بابخس الاسعار، فلا يغضبون.

يبيعون الايدي، ولا يدعون عليها بالكسر.

يؤكلون يوميا، فلا يتنفسون خشية ان تهب شهية آكليهم.

فهل تجرؤ باي صفة من صفات العربي المعاصر او موقف بعض العرب لا سبب له سوى فقدانه الاحساس بالكرامة والكبرياء؟

ماذا قال عباس بن فرناس

ابتسم عباس بن فرناس، وقال لي متسائلا بصوت مرح: «ما بك؟ يخيل لي انك توشك ان تطير بلا اجنحة».

قلت بحماسة: «يحق لي ان اطير فرحا. فقد كنت دائما اتمنى ان التقي بمن كان او من حاول الطيران بجناحين. وها هي امنيتي أعود بها اليوم».

قال عباس بن فرناس: «ولكن محاولتي كانت مخفقة ولا تستحق الاعجاب او المديح».

قلت: «انت جم التواضع او تظلم نفسك. وهذه صفات الرجال العظماء. وانا من المعجبين بك وبشجاعتك. وسيزداد اعجابي بك اذا ما حدثت عن بعض الاسئلة التي لا اجد اجوبة لها مهما فكرت».

قال: «هيا اسأل ما تشاء من الاسئلة، وسأجاوب كأني شاهد يقف في محكمة بعد ان اقسم الا يقول إلا الحق».

قال متسائلا: «لماذا حاولت ان تطير؟».

قال ضاحكا: «الاسباب كثيرة، وقد أموت قبل ان

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تتهي من التحدث عنها».

قلت: «هل اطمح الى ان اطلع على بعضها؟».

قال: «محاول ان تحزره».

قلت: «هل كنت تحسد الطيور واردت منافستها؟».

قال: «ولماذا احسد الطيور خاصة وان لكل طير صياده المسلح ببندقية تقتل؟».

قلت: «لا بد من انك من الذين يكثرون كرها للمشي على القدمين واخترت الاجنحة لتكون بديلا عن القدمين».

قال: «لا لا. في ثلاث هرايات هي المشي ومشاهدة رقص نجوى فؤاد والسامة العرب وحل الغاز الكلمات المتقاطعة».

قلت بحيرة: «اذن ماذا كان هدفك من محاولة الطيران؟».

قال: «ان اهرب من الارض الى الفضاء».

قلت مستغربا: «وهل من المعقول ان تمقت الارض التي يقال عنها إنها المكان المحدد لأن يحيا فيه الانسان ويموت؟».

قال: «انت اخطأت في تأويل كلامي، فانا لا امقت الارض بل امقت الحياة على الارض».

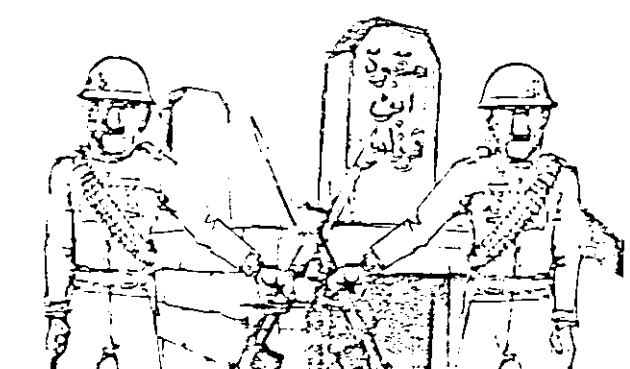

قلت: «ولكن كثيرين من كبار الشعراء اجمعوا في قصائدهم على ان الحياة رائعة وتستحق ان تعاش».

قال: «شعراؤك كاذبون او جهلة او يتجاهلون ما يجري حوله من امور مخجلة تسيء الى كل انسان في عصر يفكر وقلب يحس».

قلت: «ارجو الا تغضب اذا قلت لك بصراحة انك متشائم سوداوي المزاج، تبحر الظلمة ولا تبحر النور».

قال: «حين يصبح البغل حصانا اذا حسب ونسب، وحين تصبح البومة ملكة جمال، فالحياة آنذاك ليست حياة، والعاقل العاقل والحكيم الحكيم والواعي الواعي هو من يتأبط حذاءه ويبادر الى الفرار بعيدا عن الارض».

قلت: «الم تحزن لان محاولتك للطيران اخفقت وادت الى موتك؟».

قال: «الم اشعر بأي حزن. صحيح اني لم انجح في الطيران ولكني نجحت في الفوز بما ابغيه وهو الهرب من الارض والحياة».

قلت نافد الصبر: «الم تشعر بالخوف لحظة وقفت فوق برج عال وهممت ان تقذف بجسمك في الفضاء؟».

قال: «ما احسست به فقط في تلك اللحظة هو اني سجين مدة الف عام ويوشك باب السجن ان يفتح كي اعود حرا».

ولما كنت مواطنا عربيا صالحا وفق مختلف المقاييس الرسمية، فقد اضمحل توا اعجابي بعباس بن فرناس، وحلت محله تظاهرة صاخبة من الاحتقار والغضب والاشمئزاز، وانتهيته بصوت مرتفع بأنه مشاغل، وافكاره وآراؤه لا تخدم الا اعداء الامة والشعب والوطن، فحملق الي مليا، فلمت له: «من الواضح لكل ذي عينين انك تفكر».

قال ساخرا: «وهل التفكير يحتاج الآن الى إذن مسبق من وزارة التموين؟».

قلت متجهم الوجه، صارد النظرات: «وبماذا تفكر؟».

قال: «هذا ملخص ما افكر به. اذا كنت سألتقي باستمرار بأناس مثلك فينبغي لي ان اعاود الطيران مرة اخرى شريطة ان اكون واثقا سلفا بفشل طيراني».

وهم عباس بن فرناس بالسير، فسألته: «الى اين ذاهب؟».

قال: «انا عائد الى قبري».

فابتسمت ابتسامة غامضة، ولم يتمكن عباس بن فرناس من الرجوع الى قبره اذ اعتقل، واعترف في اثناء التحقيق دونما إكراه او ارغام بأنه واحد من الطيور الخامس، وكلف من قبل الاعداء باشاعة البلبلة والتخاذل في صفوف ابناء الشعب الصامدين، فخسر الاعداء عميلا، واحبط هدف من اهدافهم الاستراتيجية بفضل مواطن صالح.

اعتبارات مستمرة ودربي الشعب بلا حارس

اذا كانت الدول العظمى تفخر بما تملكه من اسلحة دمار، فيحق للعرب ان يفخروا بما لديهم من سياسيين. فالسياسيون العرب هم في آن واحد فلاسفة واطفال ابرياء وملائكة بلا اجنحة، ولا غاية لهم في الحياة سوى الاستشهاد في ساحات الوغى دفاعا عما يؤمنون به من مثل عليا ومبادىء سامية. اما السياسيون في القطر الشقيق مالطه فهم مختلفون كالاختلاف بين الحمامة والضبع. وواحد من هؤلاء السياسيين الموصوفين مرموق يتبع له ان يأسر قبضاي فتح فمه في الاونة، وحكى عن ذكرياته لاحدى الجرائد، فقال انه في ايام الدراسة الجامعية كان يهوى لعبة كرة القدم، ويمارسها باشغف وحماسة، ثم اعترف بحزن عميق مؤثر انه لم يكن يعرف كيف يسجل الاهداف، فلماذا هذا الحزن؟ وهل يحق له ان يحزن؟

يحق له ان يحزن اذا تضاءل رصيده في المصارف.

ويحق له ان يحزن اذا لم يتزايد كل اسبوع عدد النساء التي يمتلكها.

ويحق له ان يحزن اذا علم ان كازينوهات القمار فرضت على روادها الا يخسروا كل ليلة مبلغ يتجاوز مئة الف دولار فقط.

ويحق له ان يحزن اذا احس الشعب المكافح، مصمما على تنظيف الاوطان.

اما ان يحزن لانه لم يكن في ايام الشباب يتقن تسجيل الاهداف في مرمى الفريق الخصم فهذا حزن مرفوض ولا مبرر له. فممارسته للعبة كرة القدم قديما ليست سوى مرحلة شرب مؤقتة بينما مرحلة ممارسته للعمل السياسي هي وحدها الحكم عن مواقفه ومكاناته كلاعب لكرة القدم.

وما داء ينظر اليه على انه واحد من القلائل البارعين في تسجيل الاهداف في مرمى الشعب، فلا يحق له ان يحزن البتة على الرغم من ان السماتيركانة في الكرة الارضية لم تحصل على ما يسمح المواطن من ان يحزن. ولكن هذه السماتيركانة محظوظة. وتفتح في تعديل مستمد من الايمان بأن ثمة فارقا كبيرا بين الرابح والخاسر، ومن الظلم ان تكون حقوقهما متساوية. اذ لا يحق للرابح ان يحزن بينما يحق للخاسر ان يحزن ويذرف الدموع ويلطم الخدود، خاصة وان الخاسر انيوه هو الشعب. اما الرابح فهو السياسي الذي ينظر الى الوطن على انه سلعة تباع لكل من امتلك الثمن المطلوب.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢/١٥٥

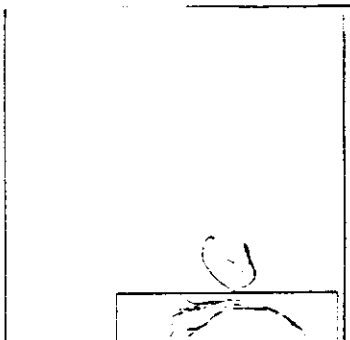

بقلم: زكريا تامر

مسرحية تاكل وتؤكل

سألني ناقد مسرحي: «هل شاهدت مسرحية «الأرز الأرز؟».

قلت: «هذه اول مرة اسمع فيها عن مسرحية بهذا الاسم».

فنظر اليّ بعتاب ولوم، مستهجناً جوابي، فاضطررت الى أن اضيف متسائلا: «هل هي مسرحية مجهولة لشكسبير؟».

قال: «لا».

قلت: «موليير؟».

قال: «لا».

قلت: «إذن هي للحاج سعد الله ونوس؟».

قال: «لا».

قلت: «مادامت المسرحية ليست لواحد من هؤلاء الخالدين الثلاثة فهي بالتأكيد لا تساوي قلامة ظفر».

فتكلم الناقد المسرحي مطولا، مؤكداً انها امتع والذ مسرحية شاهدها في حياته، فطلبت منه ان يلخص لي وقائعها، فوافق، وقال: «ترتفع الستارة عن عشرين ممثلة جميلة، لا يرتدين الا ما خفّ وزنه».

قلت متسائلا بنزق: «إذن هي مسرحية خلاعية؟».

قال الناقد: «لا لا بل هي مسرحية اشتراكية استعراضية هادفة كأن جدانوف نفسه كتبها في ساعة صفاء».

قلت: «إذا كان ما تدعيه صحيحاً فلماذا عري الممثلات؟».

قال: «لكي يتحركن بسهولة وهن يقارعن الاستعمار وأعوان الاستعمار، ثم ان عريهن تعبير عن الازمات الاقتصادية الحتمية التي تعصف بالمجتمعات الرأسمالية».

قلت: «لقد اثرت فضولي، فهيا تابع تلخيصك للمسرحية».

قال: «ترتفع الستارة كما قلت عن ممثلات بلا ممثلين».

قلت: «البداية موفقة».

قال: «تمشي الممثلات على المسرح بوقار وجلال، ويتحلقن حول حلة ضخمة مملوءة بلحوم خراف رضيعة وأرز مطهو بالسمن العربي الاصيل».

قلت: «لا أصدق ما اسمع».

قال: «شقف الممثلات حول الحلة مشدودات القامات، ويرددن كل ما في العالم الثالث من اناشيد حماسية، وحين تهيمن المشاعر الوطنية على المشاهدين، ويصبح كل واحد منهم مستعداً وحده لدحر جيش كامل من الاعداء، تبدأ الممثلات بتوزيع الصحون المملوءة بالأرز واللحم على المشاهدين، وبحركات بالغة الروعة تذكر بلورنس اوليفيه واورسون ويلز وجيمس ماسون وجيمس ستيوارت وجيمس ابو رزق وجيمس بوند».

قلت متحمساً: «هذا شيء خيالي».

قال الناقد: «وحين يشبع المشاهدون وتمتلىء معدهم الى حد الانفجار، تسدل الستارة معلنة انتهاء المسرحية».

قلت: «ألا يوجد حوار في المسرحية؟».

قال: «ولماذا الحوار مادامت المسرحية كلها افعالا؟».

قلت: «قد تكون المسرحية نافعة ومسلية ولكنها ليست هادفة، ولا ارتباط لها بمشكلات واقعنا».

قال الناقد وهو يبتسم هازئا: «بل هي هادفة الى اقصى حد. قل لي لماذا نتهم بالتخلف؟

نحن نتهم بالتخلف لأننا لا نمتلك العقول السليمة. وكيف يتاح لنا امتلاك الأجسام السليمة؟ الجواب طبعاً هو اننا لابد لنا اولا من امتلاك الاجسام السليمة. والمسرحية تعالج مشكلة تخلفنا معالجة جذرية، فهي تغذي الجسم وتقويه كي يمتلك فيما بعد العقل السليم».

فاقسمت ان اشاهد تلك المسرحية غير آبه لأي عواقب، ولكن ينبغي في قبل مشاهدتها ان أصوم أياما حتى انجح فيما بعد في التعبير عن اعجابي بالفن الراقي الملتزم، وبأسلوب لا يستطيع ليذين وستالين وباكونين الا الاقرار بثوريته.

وصافحت الناقد المسرحي شاكرا ومودعا، ولكني بعد مسير قليل، تنبهت الى انني اخطأت خطأ فادحا عندما لم استوضحه عن الأمر المهم التالي: هل تقدم الممثلات السلاعق أم يحتبها المشاهدون معهم من بيوتهم؟

موسى يلقي عصاه

أطفال الزنوج البريطانيين هم زنوج كآبائهم وأمهاتهم.

والضاحك الباكي المقيم بلندن على مضض، يعتزم أن يتكلم بسوء عن هؤلاء الاطفال من دون خشية من أن يتهم بالتمييز العنصري لكون حياته اليومية هي معرض دائم حوال لأسوأ أنواع التمييز العنصري والطبقي والوجودي. ولذا فهو يستطيع ان يقول بثقة تامة إن الذين شاهدهم في لندن من الاطفال الزنوج هم كوارث تمشي على أقدام لا يكفي وجود طفلين منهم في عربة من عربات قطار الانفاق حتى تسود الاتراح، ويصبح هدير القطار زقزقة عصفور صغير مرح طائش اذا ما قورن بالاصوات غير الانسانية الصادرة عن هذين الطفلين، فهما يتحادثان بأصوات عالية كأنهما يتوقان الى ان يسمعها ستالين في قبره على من الاستمتاع بنوم هانىء.

وأصواتهما تلك تتعالى حادة رهيبة ساخطة تفسر سامعها على الاعتقاد أن الصوت البشري ساحر قادر على ان يتحول الى أفعى تلتف حول العنق، وتضغط عليه بلا رحمة حتى يأتي هائم الملذات ومفرق الجماعات.

والضاحك الباكي في مثل هذه الحالة يحملق مستغيثا الى الركاب الانكليز، فيباغت بعيونهم تلتمع فرحا ونشوة كأنهم ينصتون لسيمفونية الريفية لبيتهوفن.

أما إذا شاءت الاقدار ان يركب في ذ لانفاق رجل تدل ثيابه ووجهه على أنه عربي. فإن عيون الركاب الانكليز تراقبه بعداء، فاذا سعل سعلة قصيرة تشبه سعال نملة، تبادلوا نظرات الاشمئزاز والاستنكار، وأوشكوا ان يثبوا عليه ليقذفوا به من شباك القطار، ولكنهم يظلون بلا حراك لأنهم يتذكرون انهم ابناء عالم متقدم ينادي بأن البشر كافة أخوة، ويصممون على مضايقة تاتشر بعدم الاكتفاء باستعادة جزر الفوكلاند.

كما تكونوا تكون صحافتكم

قالت لي واحدة من زوجاتي الاربع (ثلاث وهميات): «الاحظ انك مواظب على قراءة الجرائد اليومية الكويتية».

قلت: «ملاحظتك صحيحة».

قالت: «المسألة مصادفة أم عن قصد؟».

قلت: «بل عن قصد واعجاب».

قالت متسائلة: «والسبب؟».

قلت: «الاسباب كثيرة، ولكن أحدها يكمن في ان هذه الجرائد تنشر يوميا تعليقات سياسية مترجمة عن الجرائد الاجنبية».

قالت: «انت اذن معجب بتلك التعليقات؟».

قلت: «لا لا. المسألة ليست بهذه البساطة وأعقد مما تتصورين، فهذه التعليقات المترجمة تنشر نفسها ركيكة مشوهة في بعض المجلات العربية الراقية جدا عن انها من تأليف محرريه ومحلل صحفي خطير».

قالت زوجتي: «ولماذا لا تكون انه حسنة هي السارقة؟».

قلت: «لأن الجرائد الاجنبية تنشر نفسها في المجلات العربية».

فنظرت اليّ زوجتي ساخرة، وقالت: «أنسيت ما قاله الاجانب عن جواسيس وأجهزة علمية متطورة قبل ان يسخروا من العرب ويسطوا على أفكار الصحفيين العرب قبل ان يكتبوها وينشروها؟».

فالتمعت بوجنة نظر زوجتي، فخمنت ان الجرائد

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٥/١٥٦

كويتية قارئا واعيا، وربحت بعض المحلات مربية قارئا يتبعه الخروف.

ـ اثنا باق وهذا البرهان من كتبه

عبية تحكي عن احوالها في اياد سلطان جائر:

ضرقنا مخوفة، ومساكننا منزولة، وضياعنا ـية، ونعمتنا مسلوبة، وحريمنا مستباح، ونقدنا ـ، وخراجنا مضاعف، ومعاملتنا سيئة، ـديدنا متفرعس، وشرطينا منحرف، ومساجدنا ـة، ومارستاناتنا خاوية، واعداؤنا مستكلبة، ـت سخينة، وصدورنا مغيظة، وبليتنا متصلة، ـعدوه».

ـ تتخيل انها قالت لسلطانها:

ـم لا نخوض في حديثك، ولا نبحث عن غيب ـك، ولم لا نسأل عن دينك ونحلتك وعادتك ـيرتك؟ ولم لا تسمع كل غث وسمين منا، وقد ـواصينا، وسكنت ديارنا، وصادرتنا على ـالنا، وحلت بيننا وبين ضياعنا، وقاسمتنا ـيتنا، وانسيتنا رفاغة العيش وطيب الحياة ـية القلب؟

ـ لا نقف على حقيقة حالك في ليلك ونهارك ـحنا متعلقة بك، وخيراتنا متوقعة من جهتك، ـهرتنا ملحوظة بتدبيرك، ومساءتنا مصروفة ـامت، وتظلمنا مرفوع بعزك، ورفاهيتنا حاصلة ـ نظرك وجميل اعتقادك وشائع رحمتك وبليغ ـك؟».

قال المعتضد ردا على نصيحة وزيره:

الخليفة المعتضد ان اناسا يجتمعون ـون بسوء عن حكمه، فاستاء منهم، ودعا ـبيد الله بن سليمان، وسأله: «ما الدواء؟».

ـوزير: «تتقدم بأخذهم وصلب بعضهم ـ بعضهم وتمزيق بعضهم، فان العقوبة اذا ـ كان الهول أشد، والهيبة أفشا، والزجر

المعتضد: «لقد عصيت الله بهذا الرأي، ـى قسوة القلب وقلة الرحمة وبئس الطينة ـ الديانة. أما تعلم ان الرعية وديعة الله عند ـا، وان الله يسائله عنها كيف سستها؟ الا ـ أحداً من الرعية لا يقول ما يقول الا لظلم حق جاره، وداهية نالته أونالت صاحبا له؟ تعمل بالجهل ينفع، والعذر به يسع؟ لا ترى ما رأيت، ولا الصواب ما ذكرت».

من يقتل بأمر ويطاع

ـر هو اسم مدينة المانية صغيرة جميلة. ـ رائعة نظمت تمجيداً للحياة الانسانية ـديعة، الخالية من الشرور.

اشتهرت فايمار عالميا لكونها مسقط رأس ـب المانيا العظيم وبيته فيها تحول الى متحف يزوره يوميا عشاق أدبه الآتون من شتى ارجاء العالم. وفايمار حديرة بالاعجاب والتبجيل، ولكنك اذا امتدحتها أمام المانى عجوز واع مطلع على خفايا تاريخ بلاده، فانه يوافق على مديحك.

ولكنك ستلمح في عينيه نظرة ما كئيبة واجمة ترتسم على الاحساس بأنك اخطأت إذ امتدحت ما هو غير جدير بالمديح، فاذا حاولت معرفة السبب فانك لن تعلم به إلا إذا كنت لحوحا عنيدا، وعندئذ سيقال لك إن سكان فايمار في اثناء الحكم النازي اختاروا الحفاظ على حياتهم المترفة الوديعة الهادئة، متجاهلين معتقل بوخنوالد القريب من مدينتهم، والذي أعدم فيه آلاف الاشخاص في أفران الغاز

سيقول لك ذلك الالماني بأنه ان جرائم بشعة كانت ترتكب يوميا بالقرب من سكان فايمار المسالمين.

وسيقول لك ذلك الالماني ايضا ان سكان فايمار كانوا بالتأكيد عاجزين عن ايقاف تلك الجرائم ومنعها، ولكن واجبهم كبشر كان يفرض عليهم في الاقل ان يحزنوا ويتألموا ويتعاطفوا مع الضحايا.

وهذا مالم يفعلوه، وفضلوا تجاهل ما يجري كان هذا التجاهل يلغي وجود القتلة والضحايا

وكثيرة هي المدن العربية التي تقلد فايمار حاليا غير ان تجاهلها لن ينقذها من احكام اعدام صادرة عليها انما قد يؤجل هذه الاحكام فقط. أما الانقاذ الحقيقي فله وسائل أخرى لا علاقة لها بالصمت واغماض العيون والنوم ومطاردة المال وامتداح ابادة شعب على انه تحرير للشعب من أعدائه.

القاتل بريء والقتيل مدان

اشتهرت الدعوة مدري الفوانيت لأربعة اسباب هي:

١ ـ كانت ملكة.

٢ ـ رأسها بترته مقصلة من مقاصل الثورة الفرنسية.

٣ ـ لم تكن مؤمنة بالقومية العربية.

٤ ـ دعت الشعب الى أكل الكاتو مادام جائعا لا يجد خبزا يأكله.

ودعوتها الاخيرة هذه لم تدفن معها بل مازالت حية، غير انها طرأ عليها بعض التعديل والتصحيح، وتبناها من يزعمون انهم مختصون بالقضايا التموينية، وباتوا يدعون المواطنين الى مقاطعة السلعة التي يرتفع ثمنها كوسيلة ضغط على بائعيها ليخفضوا أسعارها.

واذا كانت هذه الدعوة حسنة النيات حقا، واتيح لها التطبيق في البلاد العربية فانها ستثير الكثير من المتاعب والقلاقل والأزمات.

الثياب غالية الاسعار، فاذا قاطع المواطنون بائعي الثياب، وكفوا عن شراء اي ثياب جديدة، فانهم سيجدون انفسهم بعد وقت قصير يمشون في الشوارع عراة، وستضطر السلطات الى مطاردتهم او الى اصدار قانون يعتبر العري عملا اقتصاديا ايجابيا وليس فعلا منافيا للحشمة، كما ان الاقمار الصناعية الاميركية التجسسية ستصور ما يجري، وتساهم في اثارة فضيحة عالمية مدوية تسيء الى سمعة الاخلاق العربية.

والاحذية الحسنة الشكل والمحتوى غالية الاسعار ايضا، واذا قاطع المواطنون بائعيها، ارغموا في يوم لابد من قدومه على السير حفاة الاقدام، وعندئذ قد يتعرض بعضهم للاعتقال بتهمة التسول والتشرد، ولن ينجو بعضهم الآخر من مأزق حرجة، فماذا يحس بعاشق يذهب حافي القدمين الى بيت اهل حبيبته طالب يدها؟

والقبور في المرحلة الراهنة غالية الاسعار، فكيف يستطيع المواطنون اقناع عزرائيل حين يأتي بأن يؤجل عمل اليوم الى غد تصبح فيه القبور رخيصة الاسعار؟

وهكذا فان هذه الدعوة هي ساذجة جدا أو ماكرة جدا لكوننا اذا ما نفذناها فستدعو الجهات المختصة بمكافحة الغلاء في مظهر الحمل الوديع البريء غير المسؤول عن ذلك الذبح الشرس اليومي للمواطنين باسم السياسة الاقتصادية الثروية والاهتمام الجاد بالقضايا التموينية

وهي دعوة ستؤدي في آن واحد الى كوارث للبعض الآخر، الخضروات والخبز والفواكه واللحوم غالية الاسعار، واذا امتنع المواطنون عن شرائها، واعلنوا الصوم، فلن يمر سوى وقت قليل حتى يصبح موتى الوطن العربي اكثر من احيائه.

وحينئذ سيخلد معظم المسؤولين العرب الى النوم نوما عميقا سعيدا لا تعكره الكوابيس المفزعة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

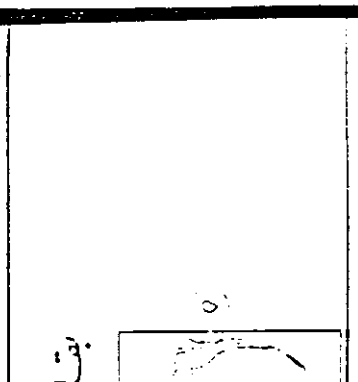

عائدون الى فلسطين سياحا أو قتلى

الريح ساعي بريد

ينتظر المزارعون الشتاء كي تروي أمطاره أراضيهم. تنتظر القطط الشتاء كي تخلد الى الراحة والنوم بجوار المدافئ. تنتظر المباني الشتاء كي تنظف أحجارها. وينتظر المواطنون الشتاء بلهفة كي يطلبوا من ريحه ان تتحول الى ساعي بريد يقول للارض المحتلة: «محنتك باقية، ولن يعود اليك ابناؤك العودة التي تحلمين بها، فالعائدون سيكونون سياحاً أو قتلى».

تعويض للآذان والأيدي

الآذان في الوطن العربي مسكينة مضطهدة مظلومة، فهي قد سمعت منذ أربعين سنة من الكلام عن فلسطين ما يكفي لتحويل نجوى فؤاد الى شيء شبيه بعيدي أمين. لقد سمعت الآذان العربية كلاماً كثيراً متنوعاً مكرساً للاقناع بأن فلسطين عربية، وستحرر وتعود عربية. وفي كل مرة ازداد فيها الكلام حماسة ازدادت مساحة الارض التي تفقد ويستولي العدو عليها، فكأن العدو يعمل وفق الحكمة الشعبية العربية القائلة إن من يسب ويهدد لا يضرب. واليوم بعد ان تكاثرت الأدلة المبرهنة على ان أولي الأمر الاساسيين في العالم قد اتفقوا على ان اسرائيل وجدت لتبقى وتتوسع وتحظى بالدعم المعنوي والمادي، فمن حق الآذان أن تطالب بالتعويض المادي والمعنوي. ولكن اي تعويض ستناله لن ينفع ما دامت أجمل سنوات جيل بأسره قد ضاعت في الاستماع الى هراء أرغمت الأيدي على التصفيق له. وستصفق ايضاً للمزيد منه.

امتحان فلسطيني للعرب

يحق لتلامذة المدارس والجامعات التذمر والاحتجاج، فهم يدخلون الى الامتحان ويخرجون من امتحان ويدخلون الى امتحان حتى باتت حياتهم مملة لا انسانية، مقتصرة على امتحانات تتوالى من غير ان تتيح لهم فرصة لزفير وشهيق. ومادامت المساواة يقال عليها انها سائدة في البلاد العربية، فلماذا لا يمتحن كل من هتف: «أنا عربي»؟ ولماذا لا يجري امتحان يساهم فيه مواطنون يمارسون مهناً متنوعة، وينتمون الى فئات اجتماعية مختلفة على ان يكون موضوع الامتحان يدور حول قضية مصيرية؟ ولتكن تلك القضية قضية فلسطين التي لا تزال حتى هذه الثانية تعد قضية مصيرية على الرغم من تزايد المحاولات الرامية الى اقناع المواطن العربي مادياً ان الوطن ليس أرضاً بل هو حياة تكرس لاسكات صراخ معدة فارغة. ها هي ذي قاعة الامتحانات تفتح ابوابها.. وها هوذا المعلم الموقور يسأل الوافدين اليه سؤالاً واحداً فقط، وهو السؤال التالي: «ماذا تعرفون عن فلسطين». والسبيل المؤدية الى تحريرها؟» وها هي ذي الأجوبة التي اقسمت ان لا تقول الا الحق.

جواب زعيم سبلي خطير الشان، تنبثق من فمه وانفه واذنيه نيران الثورة الدائمة:

– فلسطين هي قلب كل عربي، وستحرر بالتاكيد. وما دامت ستحرر مستقبلاً فيمكن اعتبارها محررة منذ الان، ولكن اجهزة الاعلام مقصرة كالعادة. ولم تبلغ مواطنيها ذلك النبأ السار.

جواب قائد عسكري اشتهر بكونه اسرع من انتضى سكيناً في ملهى:

– تحرير فلسطين وشيك، وسيبدأ من تشيلي وفق خطة حربية سرية تعتمد على مباغتة العدو. فاذا كان العدو قد تأهب لصد هجومنا الذي قد يأتي من الشرق أو من الغرب فإن تأهبه لن ينفعه. فالضربة ستجيء من تشيلي، وستقول كتب التاريخ: كانت ضربة من معلم.

جواب مثقف يساري للغاية ينظر الى ماركس ولينين وستالين وجدانوف على انهم قمامة رجعية:

– لن تتحرر فلسطين الا اذا أدرك الشعب الاهمية التاريخية لتأمين السيارات والفيلات واجمل النساء وافخر انواع الويسكي لطليعته المثقفة الواعية المناضلة.

جواب مثقف يميني يحاول ان يقنع يده اليسرى بان تصبح يمنى:

– فلسطين ستحرر اذا أطعنا تعليمات شرطي المرور، وإذا قاطعنا افلام ناديا الجندي، واذا حولنا اجتماعاتنا الغرامية السرية الى مؤتمرات فكرية ذات توصيات، واذا ساد حياتنا التنظيم الهادف الى تعبئة الطاقات كافة وحشدها. فالزوج الذي يبغي تقبيل جبين زوجته يجب ان يحصل على اذن خطي من جهة رسمية تعنى بالشؤون المالية.

جواب شاعر تقليدي يعتقد ان جده يدعى الخليل بن احمد الفراهيدي:

– اذا الشعب يوماً اراد الحياة، فلا بد أن يستجيب القدر، وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة يدق، ولذا فان فلسطين ستحرر، وسيكون أول قانون تصدره متضمناً مادة تفرض على اصحاب المطاعم كتابة اسماء الاطعمة باللغة الفصحى وبصياغة شعرية ملتزمة بالاوزان والقوافي.

جواب شاعر حديث يؤمن ان القراء اذا فهموا قصيدة من قصائده، فان فهمهم اهانة للحداثة والتجديد والابداع والتطوير والتطور:

– حينما سانتهي من كتابة قصيدتي عن فلسطين، سيعرف العدو والعرب أيضاً متفوقون حضارياً، ويملكون ما هو اكثر بطشاً من القنبلة النووية.

جواب رياضي:

– المسألة بسيطة. محمد علي كلاي سيحرر فلسطين وحده هاتفاً: «الله اكبر»، والمطلوب من

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٥/١٥٨

جامعة الدول العربية التحرك والتحريك خاصة وان كلاي بلا عمل الآن.

جواب مطرب:

– لدينا الاسلحة في حناجرنا، ولكن المسؤولين يمنعون استخدامها على الرغم من انها قادرة على قطف ثمار النصر.

جواب متعهد:

– تحرير فلسطين يحتاج الى اموال لا الى كلام. وانا الآن املك مليوناً واحداً. ومن واجب الوطن ان يجعل المليون مليونين حتى استطيع ان اتبرع بثمن سندقية. اما الملايا لا اتبرع بثمن طائرة. فالأمر يرجع الى قناعتي الايديولوجية بأن المهم في الحرب هو الانسان لا السلاح.

جواب مؤلف مسرحي:

– ستبقى فلسطين محتلة حتى مقدم ذلك اليوم الذي يمنحنا الله فيه موضوعاً آخر للاستثمار وشتم واقعنا المتخلف.

جواب مواطن عادي:

– فلسطين.. فلسطين. يخيل اليّ اني سمعت هذا الاسم كثيراً من قبل، ولكنني لا استطيع ان أحدد إن كان اسماً لفيلم سينمائي أو لنوع من الصابون.

جواب الضاحك الباكي المتصف بالتهذيب الجم والفضول:

– من يكلف الارانب بحراسة حقل جزر، فليكن واثقاً بأن الجزر ضائع لا محالة.

المنام الفلسطيني

يقال إن المنامات وحدها لا تزال في وطن الحكام العرب تتمتع بحريتها، فهي التي تتيح للمواطن ان يفعل ما يشاء من غير ان ينام في مكان مظلم مجهول بعيداً عن اسرته. ولذا فهو يستطيع أن يقابل رؤساء الولايات المتحدة الامريكية، ويوبخهم توبيخاً قاسياً بسبب مواقفهم المؤيدة لكل ما هو معاد للعرب، فيقولون له: «انت مخطىء، فنحن نحب العرب. والدليل هو اننا نعطي اسرائيل الاسلحة البيضاء بينما نمنح العرب الكلام الجميل».

ويستطيع ان يقابل قادة الاتحاد السوفياتي، فيقولون له بوقار وباصوات متهدجة: «تعالوا يا ايها العرب وخذوا ما تشاؤون من السيوف التي تقول حسب التاريخ انكم تجيدون استخدامها، واستعيدوا مجد الاجداد». ويستطيع ان يشاهد مسؤولي اوروبا الغربية يسيرون في تظاهرة ضخمة، هاتفين بحماسة: «نحن مع العرب سواء كانوا سيحررون مقامرين ام عشاقاً مايمين ام آبار نفط». ويحلم ذلك المواطن حين يستيقظ من نومه أن يسأل سؤالاً واحداً فقط، وهو التالي: «اذا كان معظم اولي الامر المسؤولين عن الكرة الارضية مؤازرين للقضايا العربية واصدقاء مخلصين، فهل سيكون مصير تلك القضايا اسوأ لو كانوا أعداءها؟».

لماذا يعيشون

اليوم يوم المؤتمرات..

ولذا فقد عقد عدد من الفلسطينيين المقموعين مؤتمراً متواضعاً، تساءلوا فيه: «ما مبرر استمرارنا في الحياة؟ ولماذا نحيا؟».

قال فلسطيني اول: «نحن نحيا لنأكل».

فقيل له: «اذا كان ما تقوله صحيحاً، فنحن اذن الموتى الذين لا يعلمون انهم موتى».

قال فلسطيني ثان: «نحن نحيا لنصفق تأييداً او اعجاباً بأفعال من يقولون انهم قادتنا».

فقيل له: «ولكن ايدينا لا تصفق لكونها منهمكة في حمايتنا من الذباب الفكري الذي يخطط وينظر».

قال فلسطيني ثالث: «نحن نحيا لنناضل من أجل مستقبل يحمي اطفالنا من الموت».

فقيل له: «النضال المسموح به في المرحلة الراهنة هو النضال الرامي الى اعادة انتخاب رونالد ريغان رئيساً للولايات المتحدة الامريكية».

قال فلسطيني رابع: «نحن نحيا لننصت الى خطب قادتنا وتصريحاتهم».

فقيل له: «ضرب الحبيب الذ من اكل الزبيب».

وتكلم خامس وسادس وسابع وآخرون، فكان كل ما يقولونه يواجه بالرفض والتنديد والاستنكار، ولكن فلسطينياً حافي القدمين منذ ولادته صاح بثقة: «نحن نحيا لأننا لا نملك قبوراً».

فلم يعترض أحد، وساد صمت شبيه ببرقيات التأييد.

ونجح المؤتمر.

وعظ ممل.. ضروري

لا يمر يوم دون أن تتعالى فيه اصوات عربية تستنكر وتحتج على قرار العدو الصهيوني القاضي بجعل مدينة القدس عاصمة أبدية لدولته. ولا ريب في أن الأصوات ستتلاشى شيئاً فشيئاً ليحل محلها العويل والندب ولطم الخدود، وعند ذ لا بد من توجيه السؤال التالي الى الانسان العربي مواطناً وحاكماً: «أين كنت وماذا كنت تفعل يوم كانت القدس تغتال وتسرق؟ هل كنت تهرق دماءك بسخاء فوق تراب الارض المحتلة أم كنت تتجشأ بعد طعام دسم وتتثاءب سأماً ولهفة على نوم طويل عميق؟».

ومن المؤكد ان كل ما تملكه الحياة العربية من طاقات وامكانات لم يكرس بعد من اجل مواجهة العدو. وهناك الكثير من الأدلة التي تبرهن على ان الانسان العربي يملك وجهين: وجه وضاء نبيل يتجسد في مقاتلين غير طامعين في الاوسمة والتماثيل وخطب التمجيد، يندفعون الى ساحة الموت كما يندفع غيرهم لمشاهدة مباراة لكرة القدم او مسرحية لعادل امام. اما الوجه الآخر، فهو قاتم مخجل، يتجلى في حياة يومية وادعة هانئة لا مبالية، تتابع أنباء الوطن العربي وانباء العدو الصهيوني كما تتابع قصة تلفزيونية مسلسلة بوليسية مشوقة، وكأن الوطن يمتلكه آخرون.

ان تجاهل العدو لا يهلك العدو، ولا يبعد اخطاره، ولذا فقد آن للوجه المتفرج اللامبالي ان يضمحل، فالارض العربية التي لا تزال اسيرة في سجن العدو الصهيوني لو كانت تملك فمالتناهى الى سمع كل ذي اذنين صراخها المستغيث الغاضب الزاخر بالتوبيخ. اما محاولة العدو السطو على مدينة القدس فينبغي لها ان لا تتحول الى مناسبة تكال فيها الشتائم لذلك العدو، انما هي انذار بالغ الخطورة يوجهه العدو الينا، ويجب الا تسمعه آذاننا فقط بل ينبغي ان ينفذ الى دمائنا، فيشعل الحرائق في الشرايين، فالحيوان الوديع الاليف حين يهدد الموت حياته يتحول الى وحش ضار، فهل للنائمين الاقتداء به وإلا فلينتظروا المزيد من ضياع المدن العربية.

من صبر ظفر

عبد من عباد الله الناطقين بالخاء والضاد والقاف، صبر وصبر حتى اتى يوم انفجر فيه سأمه كقنبلة نووية.

سئم كل ما في حياته..

سئم التذمر والغضب اللذين فقدا القدرة على زرع الورد في الصحراء..

سئم ما يسمع اذناه..

سئم ما تبصر عيناه..

وسئم اطلاق صرخات الاستغاثة يمنة ويسرة.

وقرر أن ينبذ الجنس البشري، ونفذ قراره دونما تمهل او ابطاء، وقدم طلباً للانتماء الى جنس الدواجن على ان يكون ديكاً. ولما كانت الأدلة كثيرة، وتبرهن على انه كان مواطناً صالحاً وفق شتى المعايير الرسمية، فقد نال الموافقة على طلبه غير أن الموافقة اشترطت ان يكون دجاجة نظراً لكونه لا يملك صفات الديك. وهكذا صار دجاجة، وحصل على ما يبغي من سعادة وطمأنينة واحترام خاصة وانه كان دجاجة كثيرة البيض.

ثم جاء يوم تاريخي ذبح فيه، فلم يحتج او يحزن بل فرح لأن لحمه يبيع بسعر اغلى من سعر لحم الانسان.

وفي اللحظات التي كانت الأسنان والاضراس تطحن لحمه، ظل يفكر بدهشة واستغراب، ويتساءل: «لماذا سعر الدجاج اغلى من سعر لحم الانسان مع ان آكلي لحم الانسان العربي اكثر عدداً من آكلي الدجاج؟».

ولكن سؤاله بقي من غير جواب.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٥/١٦٠

ان تلك الجمعية.

وبعد جدال ساخن مطول، خلصت الكلاب الى إن الصفات المطلوبة هي التالية:

١ـ ان يمشي على اربع.

٢ـ ان ينبح.

٣ـ ان يعض.

ولكن الكلاب المجتمعة ما ان فكرت قليلاً بمنأى عن الحماسة الجوفاء حتى ارتجفت هلعاً، ونبذت نهائياً فكرة تاليف جمعية لها فقد تبين لها ان كثيرين ممن هم ليسوا كلاباً يمشون على اربع وينبحون ويعضون، ويحق لهم الانضمام الى الجمعية. فاذا انضموا اليها اصبحوا اكثرية تقرر ما تشاء وتنفذ ما تشاء، وما على الكلاب الحقيقية الا الطاعة والخضوع لاستغلال لا مثيل له في تاريخ البشرية. وعندئذ ستنبح الكلاب وتعض بينما يحصل غيرها على اللحم والعظم.

القديم الجديد

مذيع في احدى الاذاعات العربية، خاطب مستمعيه ومستمعاته، وتكلم بصوت رقيق حالم، معلناً عن الفقرة التالية، وهي برنامج يحمل اسم «الجديد في الثقافة والفن».

وبعد فاصل موسيقي راقص يذكر بليالي الملاهي وتجوى فؤاد وسهير زكي، ابتدأ المذيع تقديم البرنامج، واستهله، بالقول الآتي:

«قبل عامين، صدر كتاب...».

ثم شرع المذيع طوال المدة المخصصة للبرنامج في استعراض الكتاب الذي يتناول موضوع التنمية الثقافية.

وقد ذلك البرنامج هو بلا ريب مثقف رصين مستقيم زميه صادق امين، فقد كان يستطيع بسهولة ان يقول: «في الآونة الاخيرة، صدر كتاب...»، فينجو من تهمة عرض كتاب قديم، ولكنه احتراماً للحقيقة لم يحاول ان يلجأ الى المناورة والغش والخداع والمناورة، بل نبه بوقار في البداية على أن الكتاب صدر قبل عامين مع ان برنامجه مكرس للجديد في عالم الثقافة والفن. واحترام الحقيقة كي يكون شاملا غير منقوص يقتضي اجراء تعديل طفيف، وهو تغيير اسم البرنامج فيصبح اسمه «الجديد في الثقافة والفن قبل عامين».

ولابد من ان الحقيقة آنذاك ستثير اعجاباً بالمعجبين بها من المثقفين قبل عامين.

الادب قاتلاً

تلاقى مصادفة ناقد فاشل وشاعر فاشل وقصاص فاشل، وبما كانوا من مالكي الالسنة فقد تكلموا، واجروا فيما بينهم ما يشبه المحادثات بين الدول الكبرى، واكتشفوا فجاة انهم رفاق درب واحد. وان القمم الادبية التي تاثروا بها متشابهة، فالناقد معجب بهتلر ويقلده، والشاعر معجب بموسوليني ويقلده، والقصاص معجب بتيمورلنك ويقلده، ورأوا ان نهجهم رائع صالح اذ سيتيح لهم احتلال العالم الادبي والهيمنة على كراسيه الامامية كافة، ولكنهم اثروا تناسي ان هتلر انتحر، وموسوليني شنق، وتيمورلنك غرق في بحار الدماء التي اهرقها.

واذا كان الناقد والشاعر والقصاص قد نجحوا في الهرب من هذه الحقائق، فان قراءهم الابرياء لم يتمكنوا من الهرب من سيطرتها وتاثيرها، فقراء الناقد يفكرون باستمرار في الانتحار، وقراء الشاعر يبحثون عن بشنقهم تماما، قراء القصاص فقد كتبوا وصاياهم وتلفعوا بالاكفان خلاصاً من عويل ضحايا لم يشاركوا في تبجحها.

سلام العقارب

في قديم الزمان عثر رجل على عقرب في احدى غرف بيته، فلم يسارع الى قتلها، انما تفاوض معها، واتفقا على العيش معاً بسلام، فلا يحاول الواحد ان يعتدي على الآخر.

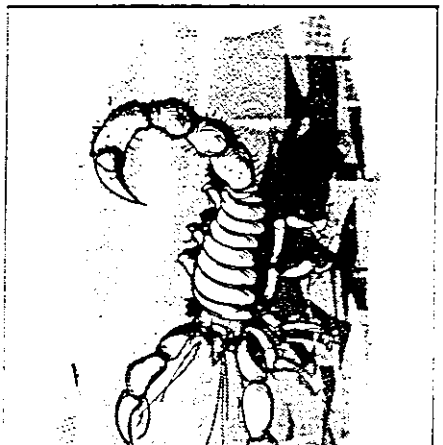

ولما نمي الى سمع اصدقائه نبأ ما فعله مع العقرب، بادروا الى مقابلته، مستنكرين، موبخين، ناصحين، محذرين، فلم يأبه لهم، وابتسم ابتسامة متسامحة مشفقة، وقال: «انا لست مثلكم. انا رجل مسالم يكره العنف ويكره اراقة الدماء».

فحاول اصدقاؤه اقناعه بخطأ ما فعله مستخدمين شتى الاساليب، ولكنهم اخفقوا، فتركوه آسفين واثقين بانه سيهلك مسموماً في يوم قريب، ولم يكونوا بالمخطئين اذ مات بعد ايام مسموماً، وامتلكت العقرب بيته، والفت كتباً مكرسة لتبيان فوائد السلام.

ودهشت العقرب لان كتبها حظيت بتقريظ مفكرين اجلاء ليسوا من العقارب، وأمنت انها ستمتلك مزيداً من البيوت.

الانقلاب المسموح به

عرفت اقطار عربية عديدة الانقلابات العسكرية، وقالت عنها انها طبيب يداوي بالسم المريض المصاب بالزكام. وقد جاءت اخبار الانقلاب العسكري الذي وقع في نيجيريا لتضيف الى سجل الاتهامات الموجهة الى الوطن العربي تهمة جديدة هي التقصير في مضمار الانقلابات العسكرية مع ان تاريخه المعاصر زاخر بمآثرها، ولكن الوطن العربي تبدل منذ عشرات السنين كان آخر انقلاب هو خاتم الانقلابات، وأمسى هادئاً، اكثر مما ينبغي، وكل شيء فيه عادي.

الظلم عادي.

الاحتلال عادي.

الهوان عادي.

الجوع عادي.

القتل اليومي عادي.

دخان البيوت المحترقة عادي.

ولا شيء جديداً مثيراً.

وقد حرضت هذه الاوضاع بعض المواطنين على الاشتياق الى الانقلابات العسكرية وضوضائها وبلاغاتها الحماسية وخاصة البلاغ رقم واحد الذي يعاهد على تخليص البلاد من احوالها السيئة، فيمضي بها الى احوال اسوأ، واذا الهدف الحقيقي هو الاطاحة بحاكم قد شبع، واحلال محله حاكماً آخر لن يشبع.

فهل سيحقق الوطن العربي رغبة فئة من ابنائه المحبين للاثارة والتشويق، ويحمي سمعته، ويثبت انه ليس بالمقصر، وان دباباته قادرة على اطلاق النار على الصديق والعدو في آن واحد أم انه سيتابع الحفاظ على مسيرته الغامضة التي تؤكد ان موت الحاكم على سريره هو الانقلاب الوحيد المسموح به؟

اذا نمنا استيقظوا

اذا قتل الاخ اخاه، ولم تأسف الام أو تبكي، فان جرائم اخرى اكثر وحشية ستقع لا محالة.

واذا صار البوم مطرباً صارت الخنفساء راقصة.

واذا نام الحراس سرق اللصوص البر والجو والبحر.

واذا نام اللصوص تذمر الحراس من الفقر.

واذا شبع الذين لا يسرقون جاع الذين يسرقون.

واذا كانت القمم للادعياء، فان القاع المظلم للاصيلين.

واذا كان الماء لا يطفيء الحرائق، فان الماء المستخدم ليس ماء، وقد يكون نفطاً.

واذا نمنا قتلنا.

واذا هربنا قتلنا.

واذا سكتنا قتلنا.

واذا ازدادت الفؤوس تضاءل عدد الشجر.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جدنا بردى

بردى، نهر دمشق، العجوز الوقور، الطفل المرح، الجميل، الكريم، الرفيق الذي لا يخون.
بردى صديق الجميع، وصديق الادباء الذين كانوا يلجأون اليه دائما كلما احتاجوا الى موضوع، ولم يخذلهم يوما.
بردى الذي كان منذ ولادته وفي الازمنة كافة مواطنا صالحا وفق مختلف المعايير، يمنح اللون الاخضر من غير ثمن.
بردى الرائع، النبيل، الصابر، الغني، الفقير، والذي لم يغرد يوما راتب ما بهجر بلده ونأسها.
بردى الذي عرف الاف الامجاد من دون ان يستسلم لسيطرة غرور او صلف، وظلت ضفافه وطنا للفرح.
بردى هذا، يواجه اليوم محنة قاسية مواجهة العاجز الاعزل، فهو مجرد نهر، ولا يستطيع الانضمام الى نقابة ما تتولى الدفاع عنه، ولا يتقن الكتابة، فحرم تقديم شكوى خطية تهيل، ولا يمتلك هاتفا يستخدمه في الاتصال بالبرنامج الاذاعي المخصص للانصات لشكاوي بعض المواطنين، ولو امتلك الهاتف واجرى الاتصال للنشود لقيل له بتأنيب: «ايها المواطن.. كف عن المزاح. حتى المجنون يعرف ان النهر لا يتكلم».
وتلك المحنة التي يعانيها بردى لا ترجع اسبابها الى انه يريد ان يتزوج او يطلق، او يريد شهادات عليا يباهي بها الانام، او يريد التسطو على منصب ذي زوجة جميلة وسيارة وتوابعها، بل ان محنة بردى تكمن في رغبته المشروعة في الظهور بمظهر لائق يتفق وماضيه العريق، فلا يضطر الى الخجل كلما نظر اليه مواطن أم سائح اجنبي او عربي، فبردى اليوم لا اكثر من ماء قليل يمشي متعثرا متكاسلا، وقلة مائه تهدده بان يفقد اسم نهر، وان يمنح اسم ساقية.
وما اشد الالم الذي طغى على بردى يوم وقف على ضفته سائح عربي، وقال متسائلا بصوت مفعم بسخرية مرة: «اهذا بردى؟ لقد سمعت عنه حتى ظننت انه نهر».
ثم اضاف قائلا بثقة: «ما سمعته كان بالتأكيد كذبا واعلانات ماجورة».
ولما كان بردى يؤمن بان الصديق وقت الضيق فقد طلب النصح من اصدقاء له يعملون في مهنة مختلفة، وانصت لآرائهم ونصائحهم، وعلق عليها.
أم بلا ابناء: «النهر لا يبكي، ولكنك لو بكيت لازداد ماؤك».
بردى: «الانهار تحزن وتفرح، تبكي وتضحك، ولكن زادي من الدموع نفد وذرفته ايام كان تيمورلنك حياً».
تاجر: «اشتر عدة انهر صغيرة غير معروفة، فتعود نهرا كبيرا غزير المياه ذا مهابة».
بردى: «واي ثمن سأدفعه اذا كنت لا املك سوى الماء؟».
سمسار: «اتحد مع بحر من البحار».
بردى: «اذا اتحد نهر مع بحر، خسر النهر، ولم يتنبه البحر الى انه قد ربح».
شاعر: «ليس لدي الا الكلمات، وكل ما استطيعه هو ان امدحك وامجدك، واهجو بقية الانهار واقلل من مكانتها».
بردى: «وهل هجاؤك لغيري من الانهار سيجعلني افضل منها؟».
عصفور: «العصافير مستعدة للامتناع عن الشرب من ماءك كي لا ينقص».
بردى: «هذا كلام لا احب سماعه، فمن اعتاد ان يعطي الكثير يهان اذا اضطر الى اعطاء القليل».
مليونير: «لا يحق لك التذمر والشكوى، فاذنب ذنبك لانك ظللت تهب ماءك ثمن هب ودب بلا ثمن حتى اوشكت ان تفلس».
بردى: «نهر لا يهب ماءه للجميع هو مراب مطرق بالبغض».
المفكر: «اعقد اتفاقية صداقة مع الشتاء، تنصر على ان باتي دائما كثير المطر والثلج».
بردى: «ولكن الصيف والشتاء خصمان، فاذا اتفقت مع الشتاء فان الصيف حين يجيء سيحاول الانتقام مني، وستنجح محاولته لان نسمة قادرة على ان تسلبني مائي وتحولني الى مستنقع لا ترتاد الا الضفادع».
خبير دعاية: «الحل يكمن في تنظيم حملة دعاية ناجحة ترغم الناظر الى ملئ القليل على ان يقتنع انه يرى بحرا».
بردى: «لا فائدة في دعاية تنجح في خداع الناس وتخفق في خداعي».
ممثل جامعة الدول العربية: «لا داعي الى القلق، فسنؤلف لجانا ستدرس اوضاعك، وتتخذ القرارات المناسبة».
فبين الخوف والغضب على بردى، وامل بان مصيره سيكون العيش في مأوى للعجزة او التقسيم الى جداول متنازعة، فطلب الا يؤبه له رسميا، فلم ينل مطلبه اي اهتمام بحجة ان الانهار والمواطنين سواسية.
ولم تستمر حيرة الخوف والغضب على بردى اذ سرعان ما طمأن نفسه بان ثمة محبين له حقيقيين اوفياء يجهلهم، وسيبادرون الى نجدته وحمايته، فهل كان اطمئنانه محقا ام انه كان مطاردة سراب؟
الله اعلم.

زكريا تامر

(١)

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حكاية غريبة من بلاد شرقي

١ ـ الملك الجديد

سعل الملك العجوز سعلة مفاجئة. فسقط ارضاً بلا حراك. فتصايح شاعر أعوانه ووزراؤه وحراسه. وهرعوا الى غرفته. فوجدوا انه قد مات. ووجدوا القصر يتحين بحرارة. وكأنه بعد لحظات تيقنوا بأنه مات. فبقت دموعهم فوراً. واختفى حزنهم. وتحدثوا باصوات خفيضة عن فقد الملك العجوز وحلمه وعباءته وسيفه. متسائلين عن ذاك المجهول الذي سيحل محله وفقد لتقلب البلاد.

وبعد سنة ايام. وقفت جموع غفيرة من الرجال في ساحة المدينة. وكان كل واحد منهم راغباً في ان يصبح ملكاً. وقد حدقوا متحفزين الى حماة بيضاء سجينة في قفص ذهبي. وخلفت قفصها بقوة لتحتل فتح باب القفص وطارت الحمامة وحلقت الحمامة في سماء زرقاء. وبدت كمدلول دائم الارتحال. لقد تمنيت ان انحدرت الى أسفل. وحطت على كتف رجل رث الثياب. فتعالت الصيحات المستنكرة الرافضة. ولكن الحمامة كانت في كل مرة تطير. تعود لتحط على كتف الرجل نفسه ذي الثياب الرثة. فاعلن آنذاك الحكيم الاول في البلاد ان القدر شاء ان يكون كريما مع المعوزين. فتاح لواحد منهم ان يكون ملكاً.

هكذا اصبح الرجل الفقير نور الدين السعابدي ملكاً. ففرح. وفرح كلبه الذي كان منذ ايام يعاني الجوع. ونبح امرأ باحضار كمية كبيرة من اللحم الطازج. فتلقفه فوراً بما طلبه. وعندما شبع. تثاءب. واستلقى لينام عميق

٢ ـ حوار تلفزيوني

الذيفة: استمتع الكل من غير ان اختي الاتهام بالمبالغة ان الجماهير محرومة من النوم بسبب توقها الى الاطلاع على اوائل حول عدد من القضايا السياسية المصيرية.

الكلب: «لا لا. انا مضطر الى الاعتذار عن عدم التكلم في اي شأن له صلة بالسياسة.

الذيفة: «والجماهير؟».

الكلب: «من المستحسن ان تظل الجماهير بلا نوم فيزداد نتاجها. ولا يستطيع اي عدو شن حرب غادرة عليها».

الذيفة: «من في المستطاع معرفة الاسباب التي دفعتك الى الامتناع عن التكلم في الشؤون السياسية؟».

الكلب: «اذا تحدثت عن الامور السياسية للبلاد فان اعداء البلاد سيعلمون بما تفكر فيه. واذا علموا بما تفكر فيه فانهم سينجحون في تدبير المؤامرات الهادفة الى الاستيلاء على البلاد. ولذا فمن مصلحة الوطن والشعب ان اتوخ بالصمت وبلوذ كل مواطن بالصمت».

الذيفة: «الحكم القديمة تجمع على ان الصمت من ذهب. آياك من جواب رائع شديد الارتباط بالسؤال».

٣ ـ من كلام مختص تربوي

«... لن تتطور اذا لم نعترف اخطاءنا ونحاول القضاء عليها. وينبغي لنا الاعتراف بان مناهجنا المدرسية الواهنة معادية للتقدم. وتعاني نقصاً فادحاً. والدليل هو اننا لا ندرس لغة الكلاب مادة اساسية».

٤ ـ من تصريح قائد عسكري

«... اذا كان عدونا سيطر بنا مستخدماً مايملك من اسلحة حديثة متطورة فاننا سنهزمه بلا ريب اذا عرفنا كيف نستخدم بمثل الاليف والمخالب والناب».

٥ ـ اعلان من وزارة الصناعة

تعبيرا عن الايمان العميق بحق الانسان في حياة حرة. وتلبية لمشيئة الجماهير الكادحة. فقد سارعت وزارتنا الى استيراد احدث المعامل المختصة بصنع الذيول الصناعية. ويسر وزارتنا ان تؤكد ان تلك الذيول ستكون بعد وقت قصير في الاسواق. متاحة لكل مواطن يرغب في امتلاك ذيل. فليتم قرير العين كل من كان بلا ذيل.

٦ ـ من مفكرة شاعر مختص بالغزل

«... سانظم قصيدة تقطر حباً. وساقول فيها ان حبيبتي جميلة كثعلب ابيض صغير...»

٧ ـ من افتتاحية جريدة

«... من هو المواطن الصالح؟ الجواب الوحيد الصحيح هو ان المواطن الصالح هو الذي يحاول باستمرار ان يزداد ارتباطاً بنظام وطنه. وهذا الارتباط المنشود لن يتحقق للمواطن الا اذا مشى على اربع. ورفض الغرائز الانسانية بان يمشي على قدمين...»

٨ ـ حديث مفكر

انا الان منهمك في تاليف كتاب عن المحاسن الجمة للذيول. وسابرهن فيه على ان الفيلسوف الاستعماري الداعو ديكارت كان مخطئا وسيئا الى الانسانية عندما قال: انا افكر اذن انا موجود. وسعيت ان ماذا يغيب عن اذهانكم. وطالب المنطقية لا يقول الا يقول الاتي: انا صاحب ذيل اذن انا موجود».

٩ ـ خبر بالغ الاهمية

حظيت وفود عدة. تمثل مختلف طبقات الشعب بلقاء مولانا. وقد تكلم رؤساء تلك الوفود عن الحرية التي كانت مفقودة في عهد الملك السابق. فثار مولانا ثائراً لايوصف. وصدرت اوامره التي تبيح للمواطنين كافة بان يعضوا ويتحوا. عضاً ونباحاً عنيفاً بقوة من قبل القانون

١٠ ـ المنام الوطني

«هاهم بشر الكرة الارضية يمشون على اربع. ويهزون ذيولهم بمرح. ويتحون معلنين التفسل الانسان على معذبيه وعملائهم.

١١ ـ سؤال وجواب

سؤال صحافي اجنبي «اين نور الدين السعابدي؟»

جواب وزير الاعلام «ليس في بلادنا رجل يحمل هذا الاسم الغريب. ولانعلم عنه شيئاً. والله اعلم».

زكريا تامر

والله اعلم
والله اعلم
والله اعلم
والله اعلم

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أهل الجنة وأهل النار

(١)

أحاديث وذكريات

بقلم: زكريا تامر

نبوءة كافور الاخشيدي

صاح حاكم مصر كافور الاخشيدي باعوانه: «قبل ثلاثة ايام دخل البلاط رجل غريب اسمه المتنبي، واتركوه ماحضاره الي فورا حيا او ميتا..»

وكان المتنبي آنئذ يمشي في شوارع القاهرة، وينبذ الخطى، متنقلا من شارع الى شارع، وكل شارع يبدو لعينيه عالما جديدا سحريا قادرا على ان يهب بهجة تحول الرمل الى عشب اخضر.

وبلغت بهجة المتنبي الذروة عندما رأى نهر النيل. فتوقف عن السير، ونظر الى ماء النهر كأنه طفل يشاهد بحرا اول مرة في حياته.

قال النيل للمتنبي: «اهرب. الهرب هنا يمتلك جراة وشجاعة وبطولة»

فلم يسمع المتنبي ما قاله النيل. انما تدفقت الى مخيلته كلمات كثيرة تتقاطر عن وصف نهر.

قال النيل للمتنبي: «اهرب اهرب اهرب»

ولكن المتنبي لم ينته الى تحذير النيل. واستمرت كلماته في التقاطر عن وصف نهر عظيم. ثم تبددت فجاة حين انقض على المتنبي عدد من الرجال الاقوياء الفتية الوجوه والايدي. واقتادوه الى قصر حاكم مصر غير عابئين بتساؤلات وصيحات المحتج.

كافور الاخشيدي: «المعلومات المتوفرة لدي تقول انك لست مصريا»

المتنبي: «وانا كنت مولودا بالكوفة وجئت مصر زائرا. فهل هذا سيبرر لاعتقالي ومعاملتي اسوا معاملة؟»

كافور: «لا تكن وقحا. تتكلم فقط حين يطلب منك ان تتكلم»

المتنبي (بهزء): «اترك مطاع»

كافور: «اخرس. الم اقل لك اهرب بلا تتكلم؟»

المتنبي: «لن اتكلم»

كافور: «ليس من حقك ان تتكلم او تصمت إلا وفق اوامري. قل لي ما اسمك»

المتنبي: «المتنبي. ابو الطيب المتنبي»

كافور: «ماذا تشتغل؟»

المتنبي: «لا مهنة لي. انا شاعر»

كافور: «لا تتحدثني الشعر ايضا مهنة لا تختلف عن مهنة الحداد والنجار والدهان وحفار القبور. هادمت تزعم انك شاعر، فقل لنا من السنة المختصة»

المتنبي: «ولن تطلب السحابة اذنا اذا ارادت ان تمطر»

كافور: «اني اكتفي عن قوانين واطلسة فلا تحاورني بكلام سمج سخيف يتمشى ان يوجه الى المراهقات. انت الان لست في الصحراء. انت في بلاد يسودها السلطان. وكل عمل لابد لصاحبه من ان يمثل امامنا ليسبرنا على ان بمارسه. وانت قد خالفت القوانين عندما نظمت شعرا من غير امر»

المتنبي: «لقد جئت الى مصر قبل ثلاثة ايام فقط. ولم انظم بعد اية قصيدة ولم اخالف اي قانون من قوانين البلاد»

كافور: «انت تدعي انك شاعر. فما الدليل على انك شاعر حقا»

المتنبي: «اشعاري مشهورة في البلاد العربية كلها»

كافور: «يا لك من وقح! اتجرؤ على اقتباسنا بالجهل!»

المتنبي: «كل ما اردت قوله هو انني شاعر ذائع الصيت. ونظمت كثيرا من الاشعار»

كافور: «هل تعني اشعارك مشاعر المغفلين والمعتوهين؟ اذ تشبه نفسك بوردة الجزائرية احمد عدوية. محرم فؤاد. عبد الحليم حافظ. ما لك صامت؟ لماذا لا تجاوب؟ ارى ان وجهك قد احمر. احمر خجلا من افتضاح

شذوذك. سنتيح لك الفرصة لتثبت انك شاعر. هيا اسمعني بعض اشعارك المتنبي»

يا اعدل الناس إلا في معاملتي
فيك الخصام وانت الخصم والحكم

اعيذها نظرات منك صادقة
ان تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

وما انتفاع اخي الدنيا بناظره
اذا استوت عنده الانوار والظلم

انا الذي نظر الاعمى الى ادبي
واسمعت كلماتي من به صمم

كافور: «ما سمعته ليس سيئا. اتجيد نظم قصائد المديح»

المتنبي: «سبق لي ان مدحت الكثير من الملوك والامراء. اني انظم المدح لكل من يستحقه ويليق به المدح»

كافور: «مادمت تنظم المدح فيجب ان تنظم قصيدة في مدحي. انت الان في مصر، وانا حاكم مصر. واذا كنت لست عميلا لاعداء مصر وتحب مصر فعلى واجبك مدح حاكمها»

المتنبي: «انا لم امدح في حياتي سوى رجال عرفتهم وعرفت ما لهم وما عليهم»

كافور: «انصحك إني انك لا تعرفني. هيا انا قاعد قبالتك وقد صرت تعرفني»

المتنبي: «لم اعرفك بعد المعرفة التي تتيح لي نظم قصيدة في مدحك»

فابتسم كافور الاخشيدي. واشار بيده الى اعوانه. فبجموا على المتنبي وطرحوه ارضا. ووضعوا رجليه في قيوده. وانهال بعضهم بالعصا ضربا على باطن قدمي المتنبي. راح بعضهم الاخر يركل راسه وجسمه ركلا شديدا.

تالم المتنبي. ورغب في ان يصرخ متوجعا. ولكنه كظم رغبته. وما لبث الا ان دفعه الى الصراخ شاتما مستغيثا. فضحك كافور وقال: «ما هذا الصوت الجميل. انت لست شاعرا. انت تصلح لان تكون مغنيا. انه من اجمل هذا الصوت. تابع اضربنا». وحين تحول صراخ المتنبي الى صراخ متوسل. امر كافور بالكف عن ضربه.

ووقف المتنبي امام كافور الاخشيدي محنى الراس ذليلا. مبتل الوجه بالدموع والدماء.

كافور: «سانظم قصيدة مطولة تمدحني»

المتنبي: «سافعل ما تامرني به»

كافور: «سامنحك مهلة مدتها اسبوع لنظم القصيدة. وستندم على الفشل اذا اعجبتني»

وهم المتنبي بالخروج. فقال له كافور: «قف. اسمع يا متنبي. اياك وان تفكر في كعبري من الحكماء البلهاء. اذا اعجبتني قصيدتك فلا تحلم بنيل درهم واحد من اموالي»

وعاد المتنبي الى كافور الاخشيدي بعد اربعة ايام. واسمعه ما نظم من شعر في مديحه. فطرب كافور. وانتشى. وقال: «انت شاعر فعلا»

وفكر كافور لحظات. ثم قال للمتنبي: «سانعرض عليك فرصة اختر ان الضرب او الحصول على الف دينار»

المتنبي: «الالف دينار احسن من الضرب»

كافور: «ستنال الف دينار اذا نظمت قصيدة تهجوني فيها شر هجاء»

هم المتنبي بالكلام. ولكن كافورا قال له: «اسكت. اذا لم تنظمها ضربت واذا هجوتني نلت الف دينار»

فوعد المتنبي بانه سيهجوه. وبر بوعده. وكتب قصيدة في هجاء كافور الاخشيدي. ونال الف دينار.

وما ان خرج المتنبي حتى تصايح اعوان كافور الاحبش مستهزئين. فقال لهم كافور بصوت صارم: «ستظلون اغبياء تجهلون التعامل مع الشعر والحياة. سانشرح لكم ما فعلت واصابه المتنبي شاعر متكبر متغجرف معتد بنفسه. ويجب ان يعاقب ولاسيما انه سيكون في المستقبل من الشعراء الخالدين. وقد عاقبته شر عقاب. لقد ارغمته على مدحي. لقد ارغمته على هجائي. وهذا التناقض سيصبح في المستقبل ثيمة شائعة تربط المتنبي وشعره على انه مجرد مرتزق صغير غير جدير بالاحترام»

وفيما بعد. اغتيل المتنبي. ومات كافور. ولكن ما تنبأ به كافور الاخشيدي تحقق. وصار للمتنبي اصدقاء معجبون به. وخصوم يزدرونه

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أهل الجنة وأهل النار

(٢)

الأقنعة

بقلم: زكريا تامر

امتحان ابن خلدون

قال ابن خلدون أستاذ التاريخ في احدى الجامعات العربية لتلاميذه بلهجة مفعمة بالتوبيخ: (انتم كسالى تبغضون دروسكم ولا تقبلون الا بالقشور والملاهي التيافة والتفاهة. الا تعرفون ان يوم الامتحان قد دنا. يشفي لكد منذ الان ان تدرسوا مجدا كتابي «العبر وديوان المبتدأ والخبر» المقر عنكد وان تحفظوا صفحات كثيرة منه حتى تنجحوا في الامتحان العسير).

قال احد التلاميذ: «انا ابي وزير».

قال ابن خلدون: «اذن ستنجح متفوق في الامتحان».

قال تلميذ قال: «وانا ابي طيار».

فقال ابن خلدون مشمئزا ملتفتا الى التلميذ الاول: «طيار مدني او طيار حربي؟».

قال التلميذ: «طيار حربي».

قال ابن خلدون: «احسنت انت ستنجح بامتياز».

قال تلميذ ثالث: «ابي ملياردير، ويحمد ربه الف مرة في حياته».

قال ابن خلدون: «انت ايضا ستنجح بدرجة جيد جدا».

قال تلميذ رابع: «انا اتامر على كل شيء، ومخبر وسجن في البيت».

فقال ابن خلدون: «انت ستنجح من غير ان تشارك في الامتحان».

وتعالت اصوات التلاميذ مرة ثانية وكل تلميذ يعلن انه ابن فلان وابن فلان من المجد والسعود والثروة الى ان صاح تلميذ واحد فقير سائلا فقال له ابن خلدون مستهزئا:

قال التلميذ: «انا والدتي مستاجرة في البيت لابي تلميذ فحسب، وهي اسيرة عنده وانا مثله فجدي ابن سبيا وابي احمر من وهبي الجبل من النهيدة وابي الخنساء وخالي سقراط وامي خنثى ابو قراط وجدا امي سوفوكليس».

فتمتم ابن خلدون فجأة ضجرة خازية وقال للتلميذ: «اذا كنت لا تملك الا هذه الصفات فلقد فاتك مر الدراسين في امتحان الحياة».

التلفزيون زوجة بلا مهر

حرير صاحب الاضاءة عن شهرزاد منذ قصيدته قصائد الاحب

ر... سنة الاولى، قالت شهرزاد لزوجها شهريار: «سيزعد في المستقبل انك ملك وابي صد وسيزعد ايضا ابي اقدمت عشر من الدمج سيصبح مال خليفتك لك دنوار امه نبيلة وليه حكايات مشوقة فما رايك في ان يروي لك مثل هذه الحكايات».

قال شهريار وهو يشبع التشويق الى سامعه المتعريون: «بعد الاعتذار فاجيل شهرزاد الى يوم آخر، فسوف قبل سيصبح المتعريون هذا الحب شهرزاد في قرة العدد».

قالت شهرزاد: «ان هذا سيصبح مرويه المتعريون به».

قال شهريار: «هذا موقف غريب جدا للتعريون مساوية مثيرة تحكي عن رجل قتل امرأة وزار مرواح مع وليه المتعريون فصديقه ابيا الحقيقة».

قالت شهرزاد: «ان فعلت».

شهر... لا يعلم قد سيتعرون مسؤولا فسيصدقة قصة شهريار الذي سيصبحه ... زوجة.

فتمتمت شهرزاد مستقل: «هذا التوصيفي ما دامت لا تحب سوى المتعريون».

قال شهريار: «يجب ان تتعلم ان تحب والمتعريار ستثيرة انه لابي واهمة غير الزواج منه ومعلمة لابيه اشهر ابي قتله».

قالت شهرزاد: «سمع انا قد اقترن مشؤومة في الشوارع بيوه فزوجتي من قتلت اعيش شقيقة في بيت ابي».

فقال شهريار مستغربا: «هذا سمع ... ابي انه فتحدين عن الشقاق فهل سمعت ان ما هو مجرد قناع اصليا».

قالت شهرزاد: «انتعرض عليه لولا ابي وامثال ابي شتى من الجوع وما وجدت حذاء تمسحه».

فصاح شهريار معضب: «اخرسي هذا عرض مباراة كرة القدم. واذا تفوهت بكلمة ذبحتك كان الله قد يخلق».

فخاشت شهرزاد وسكتت عن الكلام كأي عربي وعربية.

الثابت والمتحول

كان الشعراني حاسما في احد المقاعد باكل احد دجاج مشويا على نار قحد تفتيح بعضه ولا تحرق. وكم لقمة يضعها في فمه ويمضغها، تنسحه العمة والشوق والشعور بانه يختبر بعبير حناح في مساء مسبحة زرقاء.

وبغتة فوقه رجال الشرطة، واسود باصوات صارمة ببراقتيد من دون مقاومة. فرحائد ان يادنوا له باكمال الغداء الذي دفع ثمنه. فرفضوا. واقتادوه الى احد المخافر وما ان راى الشعراني الرجل الذي يدو عليه انه المسؤول عن التحقيق معه حتى صاح به محتجا: «لماذا قبض علي؟ انا لست جاسوسا ولا متآمرا ولا لصا ولا معاديا للدولة. ومن المعروف للقاصي والداني اني في حياتي كلها لم انتسب الى حزب سياسي واكره السياسة».

المحقق: «اسكت وكن مؤدبا. ولا تجبرني على تعليمك كيف تكون مؤدبا. ولا تظن ان تمثيلك دور البريء المضطهد سينطلي علي. ففي كل يوم ترى مئات من امثالك».

الشعراني: «انا بريء فعلا. ونموذج للمواطن الشريف الصالح».

المحقق: «انست خصما لقيمة سلاما».

الشعراني: «هذا موقف معروف علي. فانا احرد هذه القيمة. ولكني اعتقد ان القوانين تخلو من اية مادة تحدد للمواطن ماذا يحب وماذا يكره».

المحقق: «الا تعرف ان هذه القيمة مؤيدة لنقاد الحكم. ومادمت تكرهها فهذا يعني انك تكره نقاد الحكم».

الشعراني: «هذا امر خطير. واشرف بني لم اتنبه اليه. ولكني اعاهدك على انني منذ هذه اللحظة ساكف عن بغض قيمة سلاما. واي واحد منها اخر من امي وابي».

المحقق: «لدي اقوال من شهود موثوق بهم تؤكد انك اقسمت بان تقتل مائة شخص من افراد هذه القيمة. فما رايك؟».

الشعراني: «اعوذ بالله من امثال هذي وسيشت لك ان هذه الاقوال مجرد اكاذيب وشائعات مغرضة ومن السهل علي تفنيدها. اولا: انا لا املك سيفا. ثانيا: انا عاجز عن الحسد لا استطيع قتل مائة قيمة اقوى من قتل مائة شخص. ثالثا: انا شاعر والشاعر دائما مرهف الاحاسيس وذو قلب رقيق كريم لا يساء الى نملة».

المحقق: «هذا ما يجب ماسمة ان تكون شاعر قد تتراجع».

الشعراني: «انا شاعر. وفي استطاعتك ان تسأل عني اي احد من اتحادات الادباء انا شاعر وشاعر شهير. وفي قصيدة «اغنية الحديث معروفة جدا في لاتينة العرب. واذا سجلت فساحرد انجاز تاييد اروع كتاب شعراني مكرس كله بشيان محاسن الدولة الغراء».

المحقق: «وما محتوى كتابك مالضبط».

الشعراني: «انه يتالف من مائة قصيدة وكل قصيدة تشرح مسؤولا من مسؤولي الدولة. اشير له قصيدة. ووكيل الوزارة له قصيدة. والوزير له قصيدتان. ورئيس الوزراء له عشر قصائد. السيئير له سبعون قصيدة».

المحقق: «ورئيس الدولة المعزي».

الشعراني: «سكون طبعا. اذا قصيدته وشتى رايت انه من غير اللائق ان اتحدث عنه في كتاب يتحدث عن موظفيه وخدمه. انه سيكون الموضوع الاوحد للكتاب الثاني الذي سيتناول كل واحد قصيدة وكل قصيدة تتحدث جزءا من اجزاء قصيدة عن اسمائه قصيدة عن ثيابه قصيدة عن اسلحته الحربية قصيدة عن امه قصيدة عن قدمه اليسرى قصيدة عن قدمه اليسرى».

المحقق: «وما علاقتك بالشرع قاطعا سراح اباك وان تقتل صديقه به».

الشعراني: «الا انه واحد من اصدقائي».

المحقق: «اذا انك تشرف على انه يمارس سرا نشاطا معاديا للدولة».

الشعراني: «انه مجرد هذه اللحظة لم اسمع بشيء من هذا في حياتي».

المحقق: «هل ستظل مصرا له وستراه كريما؟ وتشك اذا كنت وطنيا حقا مثيرا واجبك ان ترفع انيا تقريرا فور ما يقوله وبقائه ومساء الاشخاص الذين يقابلهم».

الشعراني: «وهذا التقرير الرديء يوجب اذ اسوجيا شعرا اد شعرا».

المحقق: «الشعر شاشاء وقدمه خاشاء المهم ان يتضمن معلومات مفيدة للتحقيق».

الشعراني: «اذا اعرف الاسعار التي تدفع للشاعر الادبي من قبل الصحف والمجلات والاذاعة والتلفزيون. وشتى اجيل اسعاركم».

المحقق: «اكتب ما يرضينا ويرضي الوطن وستنال ما يسرك».

الشعراني: «والدفع كيف سيكون؟ وهل انت اد خارجه. وسيبة عملة عالمية او اد بالجنيه الاسترليني اد بالدينار العربي».

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مواطن متشائم يحكي عما تخيله

الكوميديا الالهية

بقلم نكريا تامر

تخيلت انهارا تضحك وتتكلم وتعقد المؤتمرات لمناقشة قضايا الشرق الاوسط.
تخيلت عدلا يسود، فكنت المخدوع الذي ضيع في الاوهام عمره.
تخيلت عالما يخلو من جائع واحد، فاذا العالم يسعى لان يخلو من شبعان واحد.
تخيلت خرافا تتزاحم وتتبارى في تبيان مزاياها كي يختارها الاكلون لموائدهم. فاذا الناس يتزاحمون لينالوا ابتسامة غبية من خروف امي.
تخيلت براكين وقد تحولت الى مخابز تمنح ارغفتها للجياع المعوزين من غير ثمن.
تخيلت بيتا لكل انسان، ولكن الانسان ارغم على ان يحلم بقبر فقط.
تخيلت مدائن كارهة للنهار، تبيع اطفالها في الدكاكين كما يباع الارز والاسمنت.
وذلك البيع هو تعبير عن هلاك الانسان في الدم البشري.
وعشت لارى مدائن لا تبيع اطفالها فحسب بل تبيع ايضا رجالها ونساءها باسعار مخفضة وبالتقسيط.
وذلك البيع هو تعبيرها الخاص عن احترامها للمساواة وطلب لها.
تخيلت مرائين يخجلون ويبتذلون ويموتون كمدا، فاذا الصادقون هم وحدهم الذين يبتذلون لانهم مرايا لا تقول الا الحق، وهم وحدهم الذين يخجلون لان قول الصدق في زمان الكذب اما غباوة واما بلاهة، ولا تأويل آخر، وهم وحدهم الذين يموتون كمدا بعد ان رأوا القمة للجرذ والقاع للنسر.
تخيلت اني ادخل الى مدارس اطفال مفعما بالمرح. وتواقا الى ان يصبح الفرح تمرجا بالقوت اليومي.
قلت للاطفال مهددا مازحا: واختبئوا... سيهاجمكم العدو.
فتناءب الاطفال محتقرين تلك اللعبة المملة، ولم يختبئوا، ولكن الرجال سارعوا الى الاختباء اختباء يشبه فرار الجبان، وتركوا الارض وما عليها للطالع والفاسد والمفسد.
تخيلت قصائد من الشعر تقول ما يجعل القلب يرقص نشوانا. ولكن القصائد ظلت اشبه بخدم يحلمون بالبقشيش.
تخيلت الكرة الارضية حديقة واسعة، ولكن تخيلي لم يعش طويلا. فالكرة الارضية كانت مجرد كرة، والناس كانوا مجرد مشاهدين لامبالين.
تخيلت غضبا يأتي ليحول السجون الى حقول تعطي قمحا وفاكهة وخضراوات.
ولقد اثار الغضب، فتحولت احداثه الى سجون ومقابر جديدة.
تخيلت كتبا دورها في الحياة كدور الرباط التي تتكفل بارشاد السفن الضالة الى شواطىء الامان. ولكن غالبية الكتب استمرت ثرثرة لا نجر لها.
تخيلت مجلات وجرائد لا تسعى لختام قرائها. فاذا ما تخيلته محاولة سذاجة لاجيء لها. فالموت مأواه. ودفنهم السريع هو الاحسان الوحيد الى نهاياتهم.
تخيلت اصدقاء هم النور الذي يبدد الظلمة. قلت هم ان الصداقة هي الجزيرة الوحيدة الصلبة الارض في عالم كله بحار متلاطمة الامواج. ولكن الاصدقاء توارو مطرودين الى هذه مقاتلهم.
تخيلت كلمات تزغرد الضفادع على الارتجاف رعبا. فاذا الكلمات لا تجيد هذا الا الاقتراب من نعال الضفادع.
تخيلت اني مت. وسار في جنازتي حشد من الرقصات الوطنيات المعديات للاستعمار والرأسمالية والكيان العنصري الصهيوني. فتوحت اعظم فرح. وانتظرت بلهفة وشوق ذلك التكريم الذي يليق بان يكون نهاية جميلة لحياة انسان.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ليس بوزير ولا بشاعر

بقلم نكريا تامر

في عام ١٩٥٨، وقبل اسابيع من قيام الوحدة بين سوريا ومصر، اعلن في دمشق عن تأليف جمعية ادبية جديدة، اطلق عليها اسم «جمعية الادباء العرب» على الرغم من انها لم تكن تضم اي اديب من البلاد العربية الاخرى، بل كان معظم اعضائها من ادباء دمشق.

كانت الجمعية محاولة لجمع الادباء الواعين بالعروبة، وتوحيد صفوفهم المبعثرة في جبهة واحدة، كما كانت في الوقت نفسه ردا عمليا على نشاط «رابطة الكتاب السوريين» الستارة نظريا تحت راية جدانوف وخالد بكداش.

وكان الروائي السوري، المظلوم اديبا، الدكتور شكيب الجابري هو الرئيس لتلك الجمعية عن طريق الانتخاب الحر لا عن طريق التعيين من قبل جهة حكومية.

وكانت الجمعية تضم ادباء من مختلف الاعمار والطبقات والمستويات غير انها في تقويمها للتاج الأدبي والمكانة التي تليق به في علم الكلمة لا تهمل وظيفته وشهاداته وحسبه ونسبه وثروته ونشاطه الاجتماعي في الليل والنهار.

وكان مقر الجمعية في حي نبع باخرج الشعبي، فخما، ذا حديقة غناء تصلح للسهر في ليالي الصيف والخريف.

وكنا آنذاك مجموعة من الادباء الشبان الضائعين، الكارهين لكل قيد سواء كان ادبيا ام اجتماعيا، والحالمين بتغيير العالم والادب تغييرا يجعل من كل انسان سيدا، كما يجعل الادب يبدع حرا، وبعده سجونا شيدت قديما باسم الادب الرفيع الواعي.

وكنا نتردد في كثير من الاحايين الى مقر الجمعية، ونجلس في حديقته، ونخوض مناقشات فكرية وادبية وسياسية لا تخلو من حدة وتوتر.

وباسم دعم الصلة بين الاجيال القديمة والحديثة، كان ينضم الى جلساتنا شاعر متقدم في السن، يحمل لقب دكتور، ويشغل منصب مدير في دائرة حكومية. وكان انيقا دائما، وذا رأس يشبه حصالة ضخمة، فهو اصلع صلعا وقورا يتفق مع ثيابه ومنصبه وشهاداته.

اذا قال احدنا ان الجو جميل، قال الشاعر الاصلع يقاطعه قائلا: «في ليلة كهذه الليلة» وكان الشعر يتدرأ، تنظم قصيدة في وصف الليل والقمر. وكانت السيدة عشتي تجلس بجواري تلهمني، وتقوي من عزيمتي، وتحميني من غزلياتي الاندفاعية.

ويشير بسبابته الى زوجته بحركة مفعمة بالفخر لملهمته.

وكانت زوجته عوراء، قبيحة شكلا ومضمونا. وحين تتكلم يزداد قبحها عمقا واصالة، ويتذكر سامع كلامها كل ما مر به ابان حياته من كوارث وفواجع ومآس ونكبات، ويحس انه بحاجة الى البقاء احياء في حمام ساخن.

ولم يكن الشاعر الاصلع ذا قلب رحيم، بل كان يلقي على سمعنا مختارات من شعره، وكان شعره كلاما لا علاقة له بالشعر على الرغم من انه موزون ومقفى. والمنصت له مرغم على الشعور بأن عقله تولى فجأة، وان قلبه تأكله كلاب جائعة.

وكنا نصغي الى قصائد الشاعر الاصلع بتهذيب كاذب يخفي كره واحد منا لسعد الله بن اسعد الذي هو ايوب الشهير بصبره. وكنا نعتقد آنذاك ان ذلك الشعر هو تعبير عن اسوأ مرحلة من مراحل تدهور الشعر وانحطاطه. ولكننا كنا مخطئين. فيما بعد من شعراء قد يرهبوا عن ان الشعر مات.

وفجأة، وبغير سبب معلوم، كف الشاعر الاصلع عن التردد الى الجمعية. فقد نعته زوجته الى شيطانة شعره العوراء، وتعالت الاعواء. وفي ذات صباح، اعلن عن وقوع انقلاب عسكري انتزع من سوريا لقب «الاقليم الشمالي». والتفت في جلبة. فاذا الشاعر الاصلع قد اصبح وزيرا خطيرا. فاعتقدنا ان مهمته قد تشبه كرسي الوزارة وزيرا مثله. وقد ارخصت الناصب وشرشحت.

ولكننا كنا مخطئين اذ خط الشاعر الاصلع يملك على الاقل رأسا محوفا، اكد من حاه بعده من وزرائه. فكبروه منهم كانوا بلا رؤوس، ورؤوسهم اهتزات وانتفضت من كثرة الانحناء.

ولم تعش جمعية الادباء العرب طويلا، ومانت كما يموت اي خروف.

أما مقر الجمعية فقد تحول مركز جهاز امني مخيف، فكان خير خلف لخير سلف.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في الايام الاولى من السنة الجديدة التي جاءت بدلا من سنة عجوز، محبة الخير، وحملت حاملة حقيبتها اللألئ بالباب الملطخة بالدم والرايات الممزقة...

في تلك الايام شوهد مواطن عربي، رث الثياب والوجه، يضحك مرحا. فأجمع الذين رأوه على ان ضحكه هو حدث السنة الخير بلا منازع، ولكنهم تساءلوا عن اسباب ضحكه، وحاولوا الوصول اليها.

والآتي هو حصاد محاولاتهم التي قد تصيب او تخطئ.

احد الفقراء (رجل عابس الوجه دائما ولا يبتسم الا في حالات بين الامر): امن المؤكد انه رأى في منامه انه يموت، والتخمة كانت سبب موته).

احد الاغنياء (مالك ابنية واراض وبنوك ودائم الشوق الى عودة ايام الاعياد والعيد): (كان يضحك سعيدا لأني واطائل سعداء، فالانسان غير السعيد اذا كان لا يتصف بالاثابة البغيضة يشبع سعيدا التعيس سعادة حين يكون الآخرون من أمثالي سعداء).

صحافي (يكتب احيانا يتملق طالبا الحقيقة ولا يحصد سوى الندم لم): (لا بد من انه كان يضحك ساخرا من جرائد ومجلات ليس فيها سوى الاعلانات والسائط من النفاق).

مخرج سينمائي (مختص باخراج الافلام الفكاهية التي تثبت ان الفن السابع هو ايضا أبكار يقول): (ربما ضحك فلن اسند اليه اي دور في فيلمي الفكاهي الجديد، وليس كل من ضحك أضحك، ومع الذين عن طريق الاضحاك المتزوج فن صعب له رجاله ونساؤه).

امرأة (هي وزوجها لا يعرفان النوم العميق خوفا من ان يحولا الى طعام لافتقاهم): (سبب ضحكه واضح وضوح الشمس. لقد تزوج وأخرته زوجته بسر كانت تخفيه عنه، فهي عاقر لا تنجب، وذلك اخر مبيع ويضحك، ويرحب به كل أب يحب افتقاه).

أديب (يفخر بانه حين يكتب لا يكذب كثيرا كما هو مطلوب): (لو حكيت عن الاسباب الحقيقية لضحكه لاتهمت بالتطاول على أولي الامر، وهي تهمة يهرب منها العقلاء والمجانين).

محام (عرف ساحات المحاكم مدافعا عن القضايا الخاسرة لأنها كانت ضد جهات رسمية وابحة بلا محاكمة): (وكيف يضحك كان يشرح مستجدا بالاسلوب المسموح به رسميا وغير المتعارض مع القوانين المعمول بها).

شيخ (لم أعثر الاضراب عن العمل اساليب لكبح جماح الشعور جوعا): (ولا تفسير لدي لضحكه سوى انه دخل مستشفى وهو حي ثم غادره وهو حي ولم ينتظر رأسا ولا ساقا ولا عينا. ولم حدث له امر غير توقع ويستحق الضحك عوضا).

رئيس نقابة مهنية (لا تفسر عن طريق التعبير الحكومي): (يعني أن يضحك، فالضحك مسموح والاضراب ممنوع).

حرف (اتقن بتجريب سجلا لأن ميزانيته لا تسمح له بتجريب الخبرات والتجارب): (اعتقد انه ضحك لانها، وخيبة الدهر تضرب اخمس واربع).

شاعر (شعره كالماء مسلحة من القصائد تزحف نحو ملاكي الشعور مستجدية): (هذا غريب! لا أحد سواي في البلاد يحق له الضحك لأني حصلت من وزير الثقافة على موافقة خطية على شراء آلاف النسخ من ديواني الجديد التي لم انجز منه سوى العنوان).

احد النباتيين (يشبه الناس الى قسمين: مالكو البيوت ومالكو القبور، والباقي الباقي من كان لا بيت له ولا قبر): (لا ريب في انه عثر على بيت خاو وخيش الايجار، ولا سبب آخر يستدعي الضحك).

مفكر (حائر على مكتب مكدس من جامعة مغلوبة من غير ان يعرف لغة أجنبية): (الضحك بغير سبب لغة اديب. ولو حصل ان سبب ضحكه لا بد ان من نوادر حياته. فاذا كان قليل الأدب فانه يضحك بلا سبب. أما اذا كان مؤدبا فضحكه الفا ان ذو سبب. وبعودة ذلك السبب يستحسن اعتقاله من قبل مختصين بطرح السؤال البسيط والتزاوج الجواب الأبيض).

ناجر (لا ادعي ان الاستيراد، فالوضع الاقتصادي مضحك، فالبلاد تستورد كل ما تأكله وتلبسه وتتسمر خبر إنتاجها).

فتى (لماذا انت ضحكت لأنه بلا وعي، ويتوهم انه واحدا مسكونا بالفن، ولن تضحك انت احدا لا تحبه ومن تحبه تبكيه).

راهبة سياسي (خاسر في كل الحروب المعلنة على أعداء بلاده، ورابح في كل حروب اختلقها على كوكبه): (ولماذا لا يضحك؟ ينبغي له ان يضحك ويزغرد بمناسبة صدور طبعة جديدة من صوري بالألوان).

أبو العلاء المعري (شاعر قتلته يأس على الرغم من انه لم يعش في أزمنة المعاصرين): (رب ضحك قد صار خاتما زال. فاضحك من تواجه الاضداد).

المتنبي (شاعر أثبتت تجاربه بأن الضحكة حظا هو من يطلب العود من ضحك): (اعظم الموت في أمر صغير كطعم الموت في أمر عظيم).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يوم غضب جنكيزخان

كان جنكيز خان رجلا من دم ونار . حين يشعر يوما بملل يتذكر ما احرق من مدن ، وما اهلك من رجال ونساء واطفال وكتب وعصافير وقطط واشجار ، فيغتني مله ، وتسود معله غبطة اكثر روعة من نجمة وحيدة تتلألأ في ليالي صحارى الأرض .

ولكن جنكيز خان مل في يوم من الأيام مللا لم يجد سبيلا لانفلاص منه ، فاستاء ، واغترسته حيرة قاسية . فاضطر الى طلب المشورة من واحد من وزرائه ، اشتهر بحكمته وارائه السديدة .

فغضب الوزير جبينه ، وقال لجنكيز خان بوقار : « امهلني بضعة أيام حتى افكر واعثر على الدواء الشافي » .

فقال جنكيز خان بنزق « تتكلم كانك طبيب ! جلوب حالا والا امرت خدمي بان يسلخوا جلدك وانت حي تبصر ما يعل بك » .

قال الوزير « لا داعي الى الغضب ، فكل ما ترغب فيه سيتحقق دونما تمهل وساجاوب .. » .

فقاطعه جنكيز خان قائلا : « هيا انطق وقل جوابك ولا تناور وتحاول اضاعة الوقت . أريد وسيلة تمضي على ما احس به من ملل لا يطاق » .

قال الوزير : « قد يكون سبب مللك راجعا الى بقائك مدة طويله في قصر ذاخر بكل ما تشتهي ، ولذا فقد يكون التغيير هو الكفيل بانقاذك من مللك » ففكر جنكيزخان طويلا ، ثم قرر العمل بمشورة وزيره . ورأى أن يتنكر في ثياب الفقراء ، ويغادر قصره وحده دون حراس ولا أعوان ، ويجال في الطرقات حتى تعبت قدماه ووهنت قواه ، غير أن مللة لم يفارقه انما ازداد، واصبح سحابة سوداء تمتلك شرايينه ، فهم بالرجوع الى قصره ومعاقبة وزيره ، ولكنه تنبه لرجل ينهال ضربا بالعصا على حمار ، فوجد نفسه يندفع نحو الرجل، ويمسك يده حاملة العصا ، ويقول له بعنف : « لو كان قلبك من حجر لما ضربت حمارك بهذه القسوة !! » .

فحدق الرجل الى جنكيزخان مدهوشا دون ان يتفوه بكلمة ، ولكن العمار تكلم فقال لجنكيزخان بهزء : « ما هذا الفضول البغيض ؟ أانا الذي يضرب ام انت !! » .

قال جنكيزخان : « هذا امر عجيب حقا : حمار ويتكلم ؟! » .

قال العمار بزهو : « واتكلم دون اخطاء نحوية شائعة معاربا اللهجات المحلية بوصفها تعبيرا عن نزعات اقليمية مقيتة » .

فازداد استغراب جنكيزخان ، وقال : « وتتكلم ايضا كالمثقفين !؟ » .

قال العمار باعتداد ورأس مرفوع : « انا بالطبع مثقف » .

فضحك جنكيزخان ، وقال : « أظن انه من الافضل ان نصحح قولك فنقول انك حمار متقف اذا كنت حريصا على النطق بالصدق وحده » .

قال العمار : « انت مغفل فانا لست حمارا مع اني حمار » .

قال جنكيزخان : « ما هذا الكلام الغريب : اتضرع عني الفارا ام إنك تغضب مني ان اكذب ما اشاهده واصدق ما تسمعه ؟! » .

قال للعمار : « يحق لك ان تستنكر وان تتهمني بما تشاء من التهم ولكنك اذا عرفت حكايتي صدقت ما اقوله » .

قال جنكيزخان وهو طغى عليه الفضول : « ارو لي حكايتك » .

قال العمار : « كنت من قبل مغلوما بتريا اقرأ الصحف والمجلات واستمع الى نشرات الاخبار واشاهد برامج تلفزيونية ، ولكني اردت استخدام ثقافتي للتفرغ بمغانم شخصية ماديه ومعنوية ، فاضطررت الى ان امشي على اربع ، وظللت امشي على اربع اعمد في الحصول على ما اطمح اليه من جاه ونقود وثراء ، فلم انل ما ابغي بسبب كثرة الزاحفين ، وتحولت الى ما تراه » .

قال جنكيزخان متسائلا : « واذناك ... كيف كبرتا ؟ » .

قال العمار : « لانى كنت استخدمهما اكثر من لساني » .

قال جنكيزخان وقد نسي انه في ثياب الفقراء : « اعود الى قصري سامر بكتابة حكايتك كي تكون عبرة لمن يريد ان يعتبر » .

قال العمار : « انت ؟! انت الشبيه بالمتسول تملك قصرا ؟! » .

قال جنكيزخان : « انا لست املك قصرا فقط بل انا جنكيزخان سيد العالم . الم تسمع عني ؟! » .

قال العمار : « لن اصدق ما تقوله ولو اكلت كل ما على سطح الأرض من كتب » .

قال جنكيزخان : « لماذا ؟ » .

قال العمار : « الجواب سهل فلو كنت حقا جنكيزخان لما عنيت بكتابة حكايتي واهملتها ، فالمغفل من يتقن الزحف » .

قال جنكيزخان : « اجوبتك لا تخلو من ذكاء يؤهلك لان تكون واحدا من وزرائي » .

قال العمار : « الان فقط اقتنعت انك جنكيزخان » .

قال جنكيزخان : « لماذا ؟! » .

قال العمار : لانه ليس من المستغرب ان يختار جنكيزخان من كان انسانا وتحول الى حمار وزيرا له » .

فغضب جنكيزخان ، وقال للرجل حامل العصا : سامر بقطع راسه اذا لم تتابع ضرب حمارك الوقح بقسوة لانه سيء التربية طويل اللسان » .

فاستانف الرجل ضربه للعمار بحماسة وخوف بينما قصد جنكيزخان قصره وقد تبدد مللة وحل محله غضب عارم لمر الشمس بالافول ، فشحب نورها ، واطاعت الأمر توا ودون تردد ، وامر ايضا مالكي العمير كافة بان يمتلكوا عصيا وسياطا ويستخدموها باستمرار ومنذ ذلك اليوم عانت العمير ظلما لن يزول .

زكريا تامر

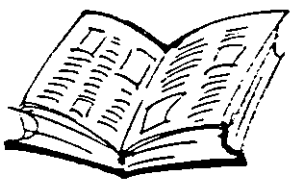

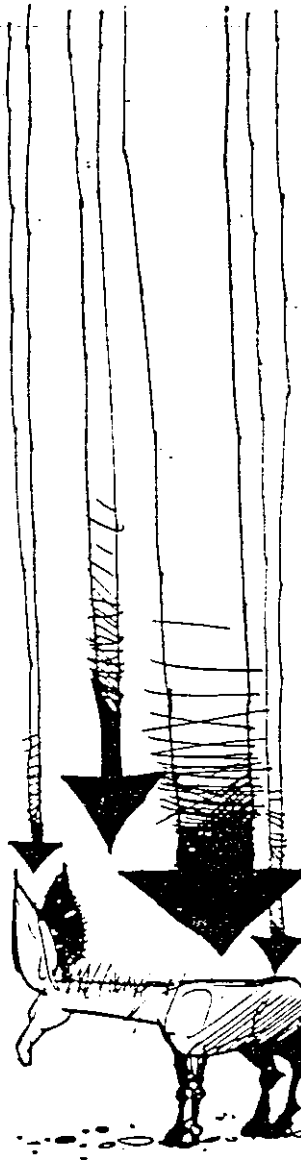

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٩/١٦٩

خواطر تسرّ الخاطر

بقلم: زكريا تامر

قال رجل في غناء طيب : « وددت ان جميع اعضائي مسامع أسمع بها » .

فقال المدعو زكريا تامر : « لماذا لا احسد الاصم إذا كان مغنّياً مشانق غير منظورة واذا كانت مغنياتنا بقايا ضفادع مصابة بالزكام الدائم ؟ » .

قال احد الحكماء العرب : « الاصدقاء نفس واحدة في اجساد متفرقة » .

فقال المدعو زكريا تامر : « لا صديق حالياً للاديب الاصيل إلا اللحد وحده » .

قالوا : « كل صناعة تحتاج الى ذكاء إلا الكتابة فانها تحتاج الى ذكائين : جمع المعاني بالقلب ، والحروف بالقلم » .

فقال المدعو زكريا تامر : « من اختار حرفة الكتابة الصادقة التي لا تجامل ولا تنافق ، لا يحتاج إلا الى ذكاء واحد : ان لا يحفر قبره بقلمه » .

قال أبو الحسن العامري يصف العجب : « هو ظن الانسان بنفسه انه على الحال التي يحب ان يكون عليها من غير ان يكون عليها » .

فقال المدعو زكريا تامر : « العجب هو ان يتمكن اديب عربي من العيش برأس مرفوع منذ لحظة خروجه من بطن أمه وحتى لحظة غيابه في باطن الارض » .

قال حكيم : « ان الشجاعة والكرم اخوان كما ان الجبن والبخل اخوان ، ودليلهما ان الشجاع يجود بنفسه ، فاحرى ان يجود بماله ، والبخيل يبخل بماله فكيف يجود بنفسه ؟ » .

فقال المدعو زكريا تامر : « يجود الشجاع بنفسه وماله في سبيل قومه ، فيسارع البخيل الى المتاجرة بتضحية الشجاع ، فيربح الشجاع فخراً فخما اذا كان ذا حسب ونسب ، ويربح البخيل ثروة جديدة بلا تعب والتباهي بانه ذاك الذي يذكر محاسن الموتى » .

قال أبو حفص بن برد الاصغر : « المواد كالبحر ، والقلد كالغوص ، واللفظ كالجوهر » .

فقال المدعو زكريا تامر : « المداد دم ، والقلد سكين ، واللفظ هو الجريمة المرتكبة » .

قال أبو حيان التوحيدي يصف شاعراً : « يطير بعيداً ويقع قريباً ، ويسقي من قبل ان يغرس » . فبهت المدعو زكريا تامر . وقال متسائلا بحيرة : « وهل كان ادونيس يعيش اياد كان أبو حيان التوحيدي حياً ؟ » .

قال أبو حيان التوحيدي يصف كاتباً : «إذا صدق فهو مبين ، واذا كذب فهو مشين » .

فقال المدعو زكريا تامر بثقة : « ما قبل يدحض الشائعات المغرضة المزاعمة ان ابا حيان التوحيدي مات ، وتثبت انه حي يعرف معظم الكتاب العرب المعاصرين » .

سئل اعرابي : « الشمس احسن أم القمر ؟ » .

فقال : « القمر احسن والشمس اجهر » .

وسئل المدعو زكريا تامر السؤال نفسه فقال بحنق : « هذا سؤال لا يسأله الا من لم يعرف مطاردة القوت اليومي ليل نهار » .

دخل أبو العتاهية على الفضل بن الربيع يعزيه في ابنه ، فقال له : « الحمد لله الذي جعلنا نعزيك به ، ولا نعزيه بك » .

ودخل المدعو زكريا تامر على الكاتب زكريا تامر ، فقال له : « الحمد لله الذي لم يجعلك تحيا اكثر من عشر سنوات ، فتكف آنذاك عن أن تكون شاهداً أصم أبكم ، مرغماً على الانتحاب بغير دموع » .

قال أبو بكر القومسي : « معاناة الخسر والبؤس أولى من مقاساة الجهل والتبوس والصبر على الوخيد الوبيل أولى من الانتظار الى محيا كل ثقيل » .

فقد المدعو زكريا تامر القدرة على الكلام اعجاباً وتقديراً ، واكتفى بأن هز رأسه موافقاً بحماسة .

قالوا قديماً : « ما تعاظد احد على من دونه الا بقدر ما تصاغر لمن فوقه » .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

... بعد المدعو زكريا تامر بكلمة واحدة .
... سمع انه قد سمع شيئا . وحملق الى
... بعيد بنظرات وجلة .

قال ابو سليمان المنطقي : « اللهم ارنا
... حقا لنتبعه ، وارنا الباطل
... لنجتنبه للاعراض عنه » .
فقال المدعو زكريا تامر بخشـــــوع :
...

الكتاب .. عمر الله
النشر وموزعه وناقده

الكتاب ، ذلك الكائن العجيب الذي
... يطبع في ان واحد ان يكون ماء ونارا ،
... في وطن الملايين العربية مهمل منبوذ
... يطهد مخنوق محاصر خاصة اذا كان
... نافعا مخلصا نزيها ، بعيدا عن
... فضائح والاثارة الجنسية والعقائدية
... لتفلال الشعارات السياسية ، فالكتاب
... حسن الحظ ، المدعوم اعلاميا واعلانيا ،
... يبيع في السنة الواحدة اكثر من خمسة
... نسخة .واذا باعها فعلا . فالقوانين
... صادرة وغير الصادرة لن تنجح في منع
... حاب دور النشر من اطلاق النار
... غاريد احتفالا وتخليدا لذلك الحدث
... يد الجلل . فما هي الاسباب التي تجعل
الكتاب الجاد في وطننا العربي يتيما
مع العينين لا يؤبه لصراخه المستغيث
بوسل ؟

يقال ان الاسباب تكمن في سيادة الامية
... وء التوزيع المقصود او غير المقصود .
ويقال إن الاسباب ترجع الى الدور
ضحك المبكي المضلل الذي يقوم به النقاد
الحياة الثقافية ، فهم يروجون للعملة
... ئة ، ويقدمون نهيق الحمار على انه
... ع من موسيقى بتهـــوفن وفاجنر
... بيليوس .

ويقال ايضا إن الاسباب لها صلة وثيقة
... ارتفاع اسعار الكتب ، وهذا الارتفاع قد
... هم دون ريب مساهمة فعالة في تقليل
... د القراء خاصة وان قراء الكتب الجادة
في معظم الاحيان من ذوي الدخل
... محدود ، ولكن غلاء اسعار الكتب له ما
... يبرره . فاسعار الورق واجور الطبع قد
... زادت ، وبات الكتاب حتى اذا بيع بسعر
لكلفة فقط فان سعره سيكون باهظا ومرهقا
جيوب القراء.

وما دام القضاء على الامية ليس عملا
... ينجز في يوم او يومين ..

وما دام سوء التوزيع ينبع من محاولة
لتكريس الثقافة بين البلدان العربية ، وهي
محاولة مدعومة من قبل قوى داخلية
وخارجية لا يمكن الخلاص منها الا بعد
خوض معارك دامية ..

وما دام ايقاظ ضمائر النقاد مهمة مخفقة
سلفا ، وتشبه محاولة من يعتزم الصعود
الى القمر مستخدما قدميه فقط ..

لذا فان الوسيلة الوحيدة المتاحة حاليا
لترويج الكتاب العربي الجاد هي تقديمه
للقراء باسعار رخيصة تمكنهم من الحصول
عليه دون ان يتضاءل خبزهم .

ومن البديهي ايضا ان تكون الجهات
الحكومية المسؤولة عن الشؤون الثقافية ،
والتي تاتي الاموال المخصصة لها من
الضرائب التي يدفعها المواطنون ، هي
الجهات المرشحة لتحقيق هذه المهمة .

والمتفحص لاعمال هذه الجهات سيخلص
الى نتيجة مفادها ان ثمة جهات تطبع الكتب
النافعة وتقدمها للقراء باسعار رخيصة .
غير ان ثمة جهات اخرى لا تطبع الكتاب
الا بعد ان تتاكد من انه لا يستحق ان يقرا
وحين تبيعه بسعر زهيد فبدفها مساعدة
اصحاب البقاليا الصغيرة على الحصول
على ما يحتاجون اليه من ورق باسعار
رمزية ، تنفيذا للشعار القائل إن الثقافة
للجميع

مستشرقون وسياح
لا مواطنون

في بلادنا العربية الرائعة الجميلة
... الصابرة المقاتلة ، تعيش فئة من المتعلمين
... ترغد على حمل مدية اطول من رمح ،
... والبحث عن حفيد اول من انشأ مدرسة ،
... فتلك الفئة جوفاء متعالية مضللة .
... وجذورها في ارض الواقع او هي من خيوط
... العنكبوت ، ولكنها تتصف بمكر يساعدها
... على الظهور في مظهر الفئة المتميزة المثقفة
... الجادة للغاية ، الحرة التفكير والعمل ،
... والتي لا تداهن ولا تنـــاور بل تقـــول
... الحق دائما من غير ان تخشى مشنقة او
... سجنا او سيارة ملغومة .

ولكن الصدام مع الواقع يكشف الوجه
... الحقيقي لتلك الفئة ، فاذا هي متاهة
... للزحف الف سنة وراء مغنم تافه . وتقبل
... بتقبيل الارجل لا الايدي بغية الحصول
عليه .

ولعل اسوا ما تقوم به تلك الفئة هو ما تفعله
... يوم تقرر ان تفكر ثم تكتب عن الانسان
... العربي واوضاعه ومشكلاته وازماته ،
... متخذة وضع الطبيب الوحيد الاوحد القادر
... على ايجاد الدواء الشافي فاذا هي لا تقدم
الا السم .

وثمة كتاب لواحد من تلك الفئة ، اشتمل
... على آراء تصلح لان تكون وثيقة تعبر
... بلسان مبين عن موقف من الانسان العربي
... لا يختلف عن موقف الاذاعة الاسرائيلية ،
... وهو موقف يحاول ان يصور الانسان
... العربي كمية بائسة من اللحم تخلو من
... الارادة والوعي ، فردا في قطيع محروما من
... القدرة على التطور والتطوير ، معاديا
... للتغيير ، محافظا على الجمود ، رافضا
للحياة .

يقول مؤلف الكتاب ، لتسع فوه :
«ماضرالجنون اذا كان العقل قانعا بالموت
... محافظا على الجمود ، اي اذا كان التفكير
... السائد يعد الشغف بالحياة او بالحرية
ضربا من الجنون » .

ويقول مؤلف الكتاب : « الوجدان العربي
... اليوم هو على الغالب عار من ادنى ثقة
... مبدئية بنفسه ، فهو على قناعة تامة بان
... جميع الانوار تاتي اليه من الخارج ، وان
... جميع ما يصدر من داخل نفسه انما هو
... ظلام . ان الافراد في غالبية مجتمعاتنا
... العربية لا يعيرون ادنى اهتمام لما يجيش
... في صدرهم من مشاعر او خواطر او ميول
... او نزعات او صبوات او احلام او آمال ،
... فهي قد تكون للعبث او للتخيل ، ولكنها
... قطعا ليست للتحقيق ، يستبعدونها من
... حياتهم العملية الجادة والمسؤولة
... استبعادا مبدئيا قاطعا ، اما الانوار
... الحقيقية فيجدونها في النظم المسنونة
... والسبل المرسومة والواجبات والمحرمات
... المقررة والتي يتقيدون بها بحذافيرها » .

ويقول مؤلف الكتاب : « من المفترض
... الثابت في هذا الوجدان هو ان وجوده هو
... وجوده كمرؤوس ، كتابع لمرجع خارجي ،
... وهو لا يتصور الوجود الا على انه تبعية
... لسلطة قائمة » .

ومن المؤكد ان افضل تعقيب على مثل
... هذه الآراء هو ان امبا اصيلا خير من متعلم
... مزيف ، وان جاهلا يموت واقفا خير من
... عالم يمشي على اربع ، ويحض غيره على
الاقتداء به .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

م/١٨١

آخر المراقب

خواطر تبحر الماطر

بقلم: زكريا تامر

يحلو للسندباد الطواف في الشوارع بغير غاية ، وينتشي بالاحساس أنه شيمة تسوقها الريح من أرض الى أرض . ولكنه خشي من ثيابه العتيقة أن تقوده الى أحد السجون بتهمة التشرد أو التسول ، فقصد مقهى اعتاد التردد إليه ، وانضم الى ثلاثة من أصدقائه كانوا منهمكين في التحدث بحماسة عن أفلام الممثلة المصرية نادية الجندي بوصفها الوريثة العربية الوحيدة لسيمون دي بوفوار .

وقد تنبه الأصدقاء الثلاثة الى أن السندباد صامت واجم مكتئب لايشاركهم في الحديث ، فقال له أحدهم بفضول : « مابك عابس الوجه لاتتكلم؟ » .

فقال السندباد : « ما هذا السؤال؟ وجهي منذ ولادتي عابس » .

فقال صديق آخر : « لن تنجح في خداعنا . هيا تكلم وحدثنا بما يحزنك حتى نستطيع أن نواسيك . هل تصدق بأن من يراك يعتقد أنك كنت قبل دقائق تشاهد دفن أعز الناس لديك ؟ » .

فتنهد السندباد بأسى ، وقال : « أف ! لقد مللت الاقامة بهذه البلاد ، وقررت أن أسافر » .

فقوبل كلامه بالدهشة ، وقيل له : « ولكنك قبل أعوام أقسمت ألا تسافر وأن تقيم ببلدك حتى يوم مماتك » .

قال السندباد : « ما يدفعني الى أن أحنث في قسمي ليس سببه في هذه المرة الحنين الى السفر لرؤية عوالم جديدة ، بل أنا أرغب في السفر كي أهرب » .

فبوغت الأصدقاء الثلاثة ، وتعالت صيحاتهم المتسائلة المتعجبة :

« ـ ممن تهرب ؟ » .

« ـ أسرقت مصرفاً ؟ » .

« ـ هل صرت واحداً من أصحاب المبادىء الهدامة ؟ » .

« ـ أنك عدو ينوى قتلك ومن هو ؟ » .

« ـ هل ارتكبت جريمة ترشك أن تفتضح ؟ » .

« ـ هل ازداد عدد دائنيك ، وباتوا يطاردونك ليل نهار وفي كل مكان ؟ » .

فتأمل السندباد أصدقاءه ، كأنه يراهم أول مرة في حياته ، ثم قال لهم بصوت حانق مفعم بسخرية مرة : « أنتم بالتأكيد غبيان بلا قلوب وعقول ، والا لما سألتم مثل هذه الأسئلة الغبية الساذجة التي تدل على جهل بالأسباب التي تدفعني الى الهرب . وهي أسباب واضحة وضوح الشمس » .

فاغتاظ أصدقاؤه من كلامه ، وهموا بالرد عليه ، ولكن السندباد سارع الى القول لهم : « أنا لم أقصد الاساءة اليكم أو الحط بكرامتكم ، ولكني أطالبكم فقط بألا تتجاهلوا ما يجري حولكم . هل هذه المعيشة التي نعيشها تليق بانسان من لحم ودم ؟ إننا نتقاتل على القمامة ، وكل شيء للبيع وله ثمن محدد ، وحتى الانسان يباع بالجملة والأسعار ولا يجد من يرحب بشراء ، فالمعروض أكثر من المطلوب . كل شيء يتردى ويتدهور . فالأب يتنكر لأبنائه ، والأبناء يعاملون آباءهم كأنهم خصوم ألداء ، والزوجة تستشهد في سبيل زوجها اذا كان قرداً ثرياً ، وتهمله اذا كان فقيراً ولا تأبه له حتى اذا كان مالكاً لكل فضائل الدنيا ، والرجال نساء والنساء رجال ، والصدق مفقود محتقر ، والكذب مبجل ، والدم يحتل كرسي الأصيل ، والأصيل مطيح مهان تطارده الكلاب ، والدم العربي يسفك كل يوم ولا منتقم له ، والأخ يقتل أخاه اذا كان سيفوز بفردة حذاء ، والفاسد في الصدارة والتمجيد ، والصالح يعامل كأنه قاتل أمه ، والصديق وقت الضيق لا وجود له الا في الحكايات الكاذبة التي تروى للأطفال » .

فحملق اليه أصدقاؤه بريبة ، واتهموه بالتشاؤم وتناسي انتصارات الشعوب ونصحوه بالذهاب سريعاً الى طبيب نفساني . ولكن السندباد ظل مصمماً على السفر . ورحل في أول سفينة أتت الى ميناء البلد الذي يعيش فيه .

ولما سارت السفينة تمخر عباب البحر ، ضحك السندباد ضحكاً مرحاً واستنشق الهواء بنهم من كان سجيناً تحت الأرض طوال أعوام .

وفي ليلة من الليالي ، هبت عاصفة قارية ، وحطمت السفينة ، ووجد السندباد نفسه وسط بحر هائج الأمواج وأيقن أنه هالك لا محالة ، وصرخ مرة مستغيثاً ، وحاول السباحة ، ولكن الموج بدا له قبراً يتسع لملايين من الرجال والنساء والأطفال والأبنية ، فأذعن له وكف عن المقاومة .

وفجأة اصطدم بجسمه لوح خشبي من ألواح السفينة المحطمة ، فتشبث به وحمله الموج ، وألقاه على شاطىء جزيرة كومة من اللحم المدرهق ، فلم يحفل السندباد النهوض ، انما أغمض عينيه

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ن/١٧٤

يستسلم للنوم العميق .

وصحا السندباد من نومه على ضياء نهار وصوت يقول مستغرباً : « ما هذا الشيء ؟ » .

ثم سمع الصوت نفسه يقول : « لابد أنه حيوان ميت من حيوانات البحر الغريبة قذفت به الأمواج في الليل الى شاطىء جزيرتنا » .

ففتح السندباد عينيه ، فرأى حماراً بالقرب . فتطلع فيما حوله . وصاح : « ومن الذي كان يتكلم ؟ » .

قال الحمار : « أنا الذي كنت أتكلم » .

فشهق السندباد متعجباً . وصاح : « حمار يتكلم اللغة العربية الفصحى ؟! إني في منام ! هذا شيء لا يصدق ! » .

فقال الحمار باستياء : « ما لا يصدق هو أن تستطيع أنت أن تتكلم كما أتكلم أنا » .

قال السندباد : « أين أنا ؟ » .

قال الحمار : « أنت في جزيرة الحمير » .

قال السندباد : « ما هذا الاسم الفكاهي الغريب ؟ أنا لم أسمع به من قبل » .

قال الحمار باعتداد : « لا أحد يعيش في هذه الجزيرة الا الحمير » .

قال السندباد : « وهل الحمير كلها هنا قادرة على أن تتكلم كما تتكلم أنت ؟ » .

فهز الحمار رأسه بالايجاب ، وشرع في تحديق الى السندباد بنظرات متفحصة . ثم سأله : « ومن أنت ؟ لقد صرت عجوزاً وقد أشاهد في حياتي كلها مخلوقاً مثلك » .

قال السندباد مدهوشاً : « ماذا تقول ؟ ألم ترني ؟ أنا الانسان الذي تقول الكتب عني إني أثمن رأس مال ، وأوصف بأني سيد الأرض » .

فقال الحمار بنزق : « كن مؤدباً . لا سيد هنا الا الحمير » .

قال السندباد ضاحكاً : « ولكن الأمر في مكان آخر من العالم يختلف عن مزاعمكم » .

قال الحمار بلهجة تهديد : « هيا امش معي » .

قال السندباد : « هل هزل الزمان الى حد أني أتلقى الأوامر من حمار ؟ » .

قال الحمار غاضباً : « اسمع . سأرفسك رفسة اذا لم تطعني . وتكلم صيحة مني حتى تجمع حولك حمير لايحصى عددها وتلتهمك درساً لاتنساه » .

فكر السندباد لحظات . ثم قال للحمار : « أنا متعب . فدعني أركب على ظهرك » .

قال الحمار باستنكار : « ماذا أسمع ؟! أتريد الركوب على ظهري ؟ » .

قال السندباد : « ولماذا تستغرب ؟ ما طلبته منك تقوم به الحمير يومياً في بلادنا » .

فقال الحمار بازدراء : « لابد من أن الحمير في بلادكم ذليلة أو بلهاء » .

قال السندباد : « والى أين ستأخذني ؟ الى رئيسك ؟ » .

قال الحمار بلهجة من أمين إهانة بالغة : « لا رئيس لي . كل حمار هو رئيس نفسه . قل لي : ما الفائدة في الرئيس وهل وجوده ضروري ؟ » .

قال السندباد : « مهمته بالغة الأهمية وهي الاشراف على البلاد وتطبيق القوانين . واذا تنازع اثنان كان الحكم بينهما » .

فقال الحمار ببرء : « نحن لا نحتاج الى رئيس وقوانين . ولا سبب يدفعنا الى النزاع والاختلاف . فمن يجع فالعشب موجود بكثرة وفي مقدوره أن يأكل منه حتى يشبع . ومن يعطش فالماء العذب غزير ويشرب منه حتى يرتوي . ومن يرغب في النوم فالأرض واسعة » .

قال السندباد : « إذن الى أين تريد أن تأخذني » .

قال الحمار : « سآخذك الى حيث تعيش الحمير لتراك . ولا أعتقد أن حماراً من حمير جزيرتنا قد رأى مخلوقاً مثلك » .

فخضع السندباد لمشيئة الحمار . ورافقه الى سهل كثير العشب والماء والشجر . وتحتشد فيه أعداد غفيرة من الحمير .

وما أن رأت الحمير السندباد حتى تحلقت حوله . وراحت تحدق اليه بنظرات ساخرة . فأحس السندباد بأن نظرات الحمير لا تبينه وحده بل تبين بني البشر أجمعين . فصاح : « أنا أحتج على هذه المعاملة غير اللائقة . لماذا تتفحصوني كأني ذبابة أو جرادة أو ضفدعة ؟ ينبغي لكم أن تحترموني . فأنا واحد من الجنس البشري الذي حول الأرض من أدغال للوحوش الى مدن زاخرة بالرقي والحضارة . ولتعلموا أن البلاد التي جئت منها بلاد عظيمة ولا تقارن بجزيرتكم هذه التافهة » .

فقال حمار من الحمير للسندباد : « مادمت تتباهى ببلادك فما الذي يوجد فيها ولا يوجد لدينا ؟ » .

قال السندباد : « وما الذي يوجد في جزيرتكم غير العشب والماء والشجر ؟ في بلادي عندنا عشب وماء وشجر . وعندنا ايضاً بيوت للأحياء ومقابر للموتى . عندنا برلمانات وانتخابات وصحف ومجلات وكتب واذاعات وتليفزيونات . عندنا مدارس وجامعات وملاعب رياضية . عندنا أدباء وكهرباء وشوارع ودساتير وحدود بين الدول . عندنا جيوش وأسلحة من مختلف الأنواع . عندنا مركبات فضائية ورجال مشت أقدامهم على أرض القمر . عندنا سيارات وطائرات وثلاجات وثورات وانقلابات . . »

فبينما سكون غريب على الحمير . فتأملها السندباد بنظرات مزهوة .

وفجأة قال أحد الحمير : « يجب أن نعترف بأنه لا وجود في جزيرتنا لشيء مما ذكرت . ولكن هل أنتم سعداء ؟ » .

ففوجىء السندباد بالسؤال . وأحنى رأسه . وفكر طويلا متجهم الوجه . وطغت عليه رغبة حارة في النحيب . ووجد نفسه يصيح بصوت متهدج : « كاذباً سأكون اذا قلت لكم إننا سعداء ولا أقل إننا تعساء بائسون . . »

فقال له الحمار نفسه متسائلا : « أي فائدة في امتلاك أشياء لا تسعد ؟ » .

فخجل السندباد . ولم يفه بكلمة .

وفيما بعد . بحث السندباد عن وسيلة تمكنه من الهرب من جزيرة الحمير . فأخفق . واضطر الى العيش فيها . وتحمل الكثير من سخرية الحمير . فهو يفكر ويمشي على قدمين وصوته ليس بالمنكر . ولكنه شيئاً فشيئاً حقق ما عزم عليه . فصار لا يفكر الا في التهام العشب الأخضر الطازج . وبات يمشي على أربع وينهق ويرقص . فظفر باحترام الحمير . وعاش سعيداً . وتخلى عن التفكير في الفرار .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قصة قصيرة

أبو حيان التوحيدي

كنت أسير في حديقة من حدائق لندن مبتهجاً بنبأ صدور كتاب جديد لشاعر ينشر الجهل والزكام والعمى باسم الحداثة ، فاصطدمت فجأة برجل عجوز صدمة قوية أوشكت أن تطرحه أرضا ، فاضطربت وخجلت وارتبكت ، ولكني ما أن فتحت فمي راغبا في الاعتذار حتى قال لي الرجل العجوز بلغة عربية فصحى وبلهجة حانقة موبخة : « ألست أعمى ؟ لماذا لا تستخدم عينيك اللتين منحهما الله لك كي تبصر ما حولك ؟ » .

فبادرت إلى الاعتذار بحرارة ، ولكن الرجل العجوز ظل غاضبا ، وقال لي : « انصحك بالذهاب فورا إلى أقرب طبيب عيون ، فكيف تصطدم بي بينما الحديقة واسعة إلى حد أنها تصلح لأن تكون ساحة يتقاتل فيها جيشان ؟ » .

قلت للرجل العجوز بصوت يشبه صوت شحاذ : « أنت عربي وأنا عربي ، والعربي أخ للعربي في كل مكان في العالم ما عدا الوطن العربي ، فلماذا لا نجلس على مقعد من مقاعد الحديقة ونتعارف ونتحادث بدلا من أن تستمر في توبيخي على خطأ غير مقصود ؟ » .

فكر الرجل العجوز لحظات ، ثم جلس على أحد المقاعد القريبة ، وجلست بجواره قائلا له : « ما الاسم الكريم ؟ » .

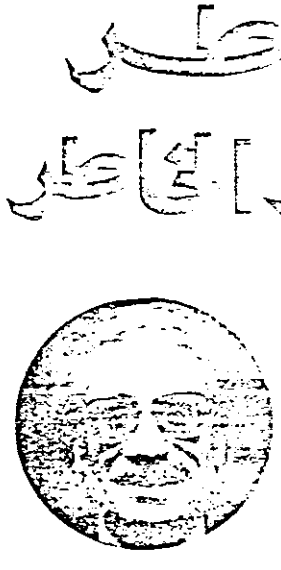

بقلم : زكريا تامر

قال الرجل العجوز : « اسمي أبو حيان التوحيدي » .

فقلت وأنا أبتسم : « اسم جميل لابد من أن المرحوم والدك كان معجباً بالأديب العربي الشهير أبي حيان التوحيدي ، فاختار اسمه كي يكون اسمك » .

فقال لي الرجل العجوز بغيظ واعتداد : « أنا أبو حيان التوحيدي نفسه الذي تقول عليه إنه الأديب المشهور » .

فضحكت ، ثم قلت : « غير معقول أنت بالتأكيد محب للمزاح ، ولو كان ما تقوله صحيحا فهذا اليوم هو يوم تاريخي في حياتي لأني معجب بكتب التوحيدي إعجابا يثير حنق زوجتي وغيرتها ، ويدفعها إلى أن تقول لي : لماذا تزوجت بي ولم تتزوج كتب ؟ » .

فقال الرجل العجوز : « ما أقوله هو الصدق ، وأنا لا أكذب ، وميزتي في كتاباتي هي أني إذا اضطررت إلى الكذب فإني أتعمد أن أكذب كذبا ليس من العسير على القارىء أن يكشف أنه كذب » .

قلت بحيرة : « ولكن الكتب تقول إنك قد مت قبل مئات السنين » .

قال أبو حيان : « لا تكن ساذجا ، ولا تصدق كل ما تقوله الكتب فهي أحيانا ملأى بالأكاذيب الخجلة ، فالأديب الأصيل المبدع لا يموت ويبقى حيا بينما يكون الأديب التافه ميتاً وهو حي » .

فقلت بأسى : « ولكننا الآن في زمان لا حياة فيه ولا تكريم ولا جلال إلا للأديب التافه بينما الأديب الحقيقي محكوم عليه بالفناء أو التوه أو الدفن تحت جبل من الغبار » .

لم يعلق أبو حيان بكلمة على ما قلته إنما راح يحملق بإعجاب في أشجار خضراء .

فسألته : « متى جئت إلى لندن قادما من الوطن العربي ؟ » .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قال أبو حيان : « أنا لم آت من أي بلد غربي أنبت من أوغندا » .

فتلت بدهشة : « أوغندا ؟ ماذا كنت تفعل في أوغندا ؟ » .

فضحك أبو حيان التوحيدي ضحكة هازئة ، وقال لي : « أنت كمن يسأل السمكة عما تفعل في الماء . أنا أوغندي الجنسية ، ومقيم بأوغندا ، وجواز سفري أوغندي » .

قلت مبهوتا : « وجنسيتك العربية ؟ » .

قال أبو حيان : « تخليت عنها منذ أعوام بعيدة لا يوصف وبحزن لا يوصف » .

قلت : « وما السبب ؟ » .

قال أبو حيان : « لا تسألني بل اسأل الأحوال العربية » .

فصحت غاضبا : « يا للعار ! لم أكن أتخيل أن مستهجر جنسيتك العربية . كيف سمح لك ضميرك بارتكاب مثل هذا الفعل المنكر ؟ » .

تأملني أبو حيان بنظرات متفحصة ، ثم قال لي بازدراء : « يخيل إلي كأنك تلومني مع أنك لو أتيحت لك فرصة الحصول على الجنسية السيريلانكية لا تقتضت عليها بالأظافر والأسنان والأضراس » .

فكست رأسي قائلا : « وكيف حياتك الجديدة في أوغندا ؟ » .

قال أبو حيان : « رائعة مدهشة ! مثالية ! في واحدة اعتقلت شهرا بتهمة أني رجعي ، واعتقلت شهرا بتهمة أني يساري ، واعتقلت شهرا بتهمة أني أكتب مديحا ، واعتقلت شهرا بتهمة أني أكتب هجاء » .

فقلت بذهول : « كيف تسمي هذه الحياة رائعة مع أنها لا تستحق أن توصف إلا بأنها أسوأ حياة ؟ » .

نظر أبو حيان كأنه يخاطب طفلا ملتصقا بصدر أمه ولم يخرج يوما من بيت والديه : « أن السجن خير من أن أقتل بعد تعذيب » .

فلذت بالصمت هنيهات . ثم قلت لأبي حيان متسائلا بفضول : « وما سبب مجيئك إلى لندن ؟ » . قال أبو حيان : « إني أعتزم إصدار مجلة أدبية فكرية ذات مستوى راق » .

قلت بحماسة : « هذه فكرة رائعة . فالبيئة الحضارات الأدبية والفكرية الآن تتناسى أنها موجهة إلى أناس أحياء ذوي عقول وقلوب . ولا تفي فيها إلا لمحرريها وكتابها وأصحاب المطابع والمصانع المنتجة للورق . ولكن متى ستصدر العدد الأول ؟ » .

قال أبو حيان : « الصدور متوقف على ايجاد الممول الذي لا يحول المجلة إلى خادم وجارية » .

فقلت ببرم : « ثق بأن مجلتك لن تصدر إلا بعد ألف سنة » .

فقال أبو حيان : « إذا صدرت بعد ألف سنة فهذا أمر جليل ودليل على أنه سيوجد في المستقبل من سيحترم الأدب والفكر » .

قلت : « مهما رأيك ؟ مادمنا قد التقينا مصادفة ، فهل توافق على أن أجري معك مقابلة صحافية ، فتوفر على عناء كتابة مقالة ولاسيما أني كتب مبتدئ لم أنجح مرة وأخفق أعواما ، وعندي أسرة يجب أن تأكل كل يوم » .

قال أبو حيان بصرامة : « موافقتي مرتبطة بموضوع المقابلة » .

فقلت فورا : « الموضوع بالطبع سيتناول الحياة الأدبية والفكرية في البلاد العربية » .

فتجهم وجه أبي حيان ، وقال لي باستنكار : « هل أنت ضعيف الذاكرة أم أصم ؟ ألم أقل لك إني أوغندي . فكيف تريد مني التحدث عما تجهله ؟ » .

قلت : « إذا ستتحدث عن الحياة الثقافية الأوغندية » .

فقال أبو حيان وهو يتنهد بارتياح : « أنا موافق . فهيا اسأل ما طاب لك من الأسئلة » .

ـ « هل يوجد شعر في أوغندا » .

ـ « يوجد شعر من مختلف الأنواع والأزياء . شعر موزون ملتزم وشعر حديث وشعر حر » .

ـ « وما هي أهم صفات كل نوع من أنواع ذلك الشعر ؟ » .

ـ « الشعر الموزون الملتزم أفضل من أية حبوب منومة ، والشعر الحديث يروح له الأطباء ، فمن يقع عليه لابد له من أن يركض باحثا عن طبيب نفسي أو عقلي . والشعر الحر من ينصت له ثلاثة أيام يصبح حرا ويطير إلى عالم لا عودة منه » .

ـ « والقصة القصيرة ؟ » .

ـ « القصة القصيرة هي وفق القوانين السائدة فن محبوب . ولا يكتبها إلا من كان قصير القامة ، وقصير النظر ، وقصير اليد » .

ـ « والنقد ؟ ما أحواله ؟ » .

ـ « النقاد كثيرون ، ولكنهم مختلفون في الرأي حول ماهية النقد . بعضهم يقول إن النقد الواعي هو نقود ، وبعضهم يقول إن النقد هو كمة وليس نقط أو دبابة . ولم يصل الخلاف إلى إتفاق » .

ـ « وأدب الأطفال ؟ هل هناك اهتمام به وايمان بدوره في تربية الجيل الجديد .. جيل المستقبل ؟ » .

ـ « الاهتمام بأدب الأطفال يفوق الوصف ، ويؤدي دوره التربوي والتثقيفي أروع أداء . وقد نجح في خلق أجيال من المثقفين والأدباء والانتهازيين والجبناء والنحوس والخائنين والقانطين » .

ـ « وهل في أوغندا أدباء مشهورون ؟ » .

ـ « شهرة الأديب مرتبطة بموهبته في تأليف العصابات المؤازرة له في السراء والضراء . فإذا كان موهوبا حقيقيا في هذا المضمار فهو لامحالة سائر في الطريق الموصلة إلى نيل جائزة نوبل للآداب » .

ـ « وهل تشجع الصحف الأدب والأدباء ؟ » .

ـ « كل صحيفة تكرس صفحة يومية للشؤون الأدبية . ويشرف عليها محررون معادون للتفاوت الطبقي في الأدب . ولذا فهم يمتدحون الشعير ، ويذمون القمح ، ويقدمون القمامة بوصفها أجمل ورد » .

ـ « وهل يعاني أدباء أوغندا أزمة ما تتعلق بحريتهم في التعبير عن أفكارهم ؟ » .

ـ « لا . فالدولة الرشيدة افتتحت دكاكين ، وكل دكان مختصة بجنس من الأجناس الأدبية . دكان للقصة والرواية . ودكان للشعر . ودكان للمسرحية . ودكان للأبحاث النقدية والفكرية . والكاتب الذي يبغي الكتابة يقصد دكانا من تلك الدكاكين ، ويعرض على الموظف الحكومي ما يرغب في كتابته . فيقوم الموظف بالكتابة بأسلوب يتناسب مع مقتضى الحال . فلا يغضب حاكما وينجي الأديب من متاعب تبدأ من السجن وتصل إلى المشنقة » .

ـ « هل يوجد للأدباء في أوغندا اتحاد يجمع شملهم ويوحد صفوفهم ويدافع عن حقوقهم ؟ » .

ـ « بالطبع . هناك اتحاد للأدباء لا يكف عن عقد المؤتمرات . وفي كل مؤتمر تتخذ أروع المقررات والتوصيات . وتكتب بخط جميل على ورق فاخر » .

ـ « وهل لذلك الاتحاد دور ما في تنشيط الحياة الثقافية ؟ » .

ـ « إن دوره بالغ التأثير والأهمية . ولاسيما أن الاتحاد مزود من مخفر الشرطة وتجمع الأدباء ، وبعد تأليف تضاءلت نسبة الجرائم نظرا لنشاطه في المجالات الأمنية » .

ووجدت نفسي أنهض بغتة واقفا . فسألني أبو حيان : « إلى أين ؟ » .

فقلت : « إلى أوغندا سيرا على الأقدام » .

وسرت نحو أوغندا مستخدما قدمين سبق لهما أن اطلعتا على محاسن المخافر الأدبية اطلاعا لاينسى .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الليل ليل والنهار ليل

... الخشبة ... الأدبية

... يوسف السباعي : لقد كنت ... كنت خير من نقد المؤتمرات الأدبية.

قال يوسف السباعي : هذه حقيقة ... بنكرها حتى خصومي.

قلت : وما هي فائدة تلك المؤتمرات ؟

قال يوسف السباعي : إنها هدفان. ... هدف عملي. وهدف سري.

قلت : هل تحدثني عن الهدف ... العلني ؟

يوسف السباعي : الهدف العلني هو ... البحث في أحوال الأدب وإقرار توصيات ... تطويره. وهي توصيات تنشر في ... الصحف. ويطلع عليها من يطلع.

قلت : وما الهدف الآخر ... السري ؟

قال يوسف السباعي : إتاحة الفرصة ... لكي يلتقي كبار الأدباء ويتبادلوا مجاز في ... الفنادق.

قلت : إذن هذه المؤتمرات أشبه ... بالمؤامرات. ولا فائدة أدبية فيها ؟

قال يوسف السباعي بتأنيب : لكن ... نظر ثاقب. أليس العقل السليم في الجسم ... السليم ؟ والنتاج الأدبي لا يطلع إلا من عقل سليم. والطعام والنوم إذا كان بلا ثمن هما خير وسيلة لبناء الجسم السليم.

وقال يوسف السباعي : يحق لي ... أولك. أنسيت أني روائي ؟ لماذا لم تسألني عن رأيي في الوضع الراهن للرواية العربية ؟

قلت : هل تستطيع تقديم تأويل ... مقنع لازدياد عدد الروائيين ؟

قال يوسف السباعي : إنهم ما زالوا ... قلة. انتظر. في المستقبل سيصبح كل عربي صاحب مطبعة يكرسها لطبع رواياته فقط. نحن لا نحكي ونتثرثر فقط نكتب ثرثرتنا أيضاً.

آثر الإقامة بالبيت

قلت لابن بطوطة : ألا تزال تطوف في أرجاء تلك الدنيا التي يسكنها عباد الله ... مسجلا مأثراه ؟

قال ابن بطوطة : لا .. فالسفر من بلد إلى بلد كان عدة من عدداتي التي تنبهت إلى أنها ضارة سيئة. فاستقلت بغير رحمة.

قلت : وهل هناك أجمل من السفر ؟ ... يسافر الانسان بعيدا عن وطنه. فيسترجع هو وتستريح دولته. هي لك أن تحدثني ... بالأسباب التي حفزتك على اتخاذ مثل هذا الموقف الغريب المتسم بالقسوة والسيحة ؟

قال ابن بطوطة : لأني أدركت أن ... المواطن العالمي ليس هو ذلك الذي يتحول إلى سائح يبدد أموال وطنه في بلاد أجنبية ... بل هو الذي يحول الأجانب إلى سياح ... يستزيد هم في جيوبهم لاقتصاد بلاده.

قلت : ولابد من أنك إذن تسخر من بلد غربي إلى بلد غربي ...

قال ابن بطوطة : إني لا أغادر بيتي إلا للذهاب إلى طبيب الاسنان. ولا أسافر إلى أي بلد غربي ...

قلت : وما هي الأسباب ؟

قال ابن بطوطة : الأسباب جلية. ... ولا تحتاج إلى سؤال ...

قلت : مادمت قد سألت عني فهذا ... يدل على أنك بالنسبة إلي ظاهرة مجنونة.

قال ابن بطوطة : إني لا أسافر لأن ... الحدود بين البلدان العربية لم تعد حدودا ... بل صارت خنادق.

قلت : إذا كان هذا هو رأيك فما ... موقفك من قضية الوحدة العربية ؟

قال ابن بطوطة : إني من أشد ... المتحمسين. وأطالب بتحقيق الوحدة العربية الفورية الشاملة بين بيت وبيت. ... وبين شارع وشارع ...

فقلت لابن بطوطة : أنت حياتي ... تعيش في الفضاء بينما الواقعي الذي يعيش ... على الأرض يطالب بالوحدة بين عربة وشرفة.

أبو النواس سابقاً

قلت لعنترة العبسي : أرى وجه ... وضع البيطار. فكيف حدث هذا ؟ هل الأمر له علاقة بتطور العصور ؟ أم أن كتب ... التاريخ لم تكن تقول الصدق كله دائما ؟"

قال عنترة : داؤه عندنا سر لونا. ... إنه بيطار العرب.

قلت : أتعرف العرب وأنت فارس ... الفرسان وسيد الشجعان ؟

قال عنترة : إني لست بمحلل. ... ولكن ما أقرأه من نتاج أدبي معاصر يجعل

خواطر تسرّ الخاطر

بقلم : زكريا تامر

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الزئبق هواء والنيل بعوضة . وحتى الأنهار لو كانت غير أدبية . وقرأت مختارات من ذلك الأدب لتحولت في مجرد ردد لاتنبعث سوى الصوت .

قلت : وأين سيلك ؟

قال عنترة : لاتذكرني به فقد صدره رجل الشرطة . واختلت . وحقق معي تحقيقا غير مسبوق بشبهة في ردهي من الصدر بملف والاغتيال .

قلت : وكيف أطلق سراحك ؟

قال عنترة : لأن السجن كان مزدحما بروده .

قلت : وأين جودت ؟ .

قال عنترة : مازا أفعل به في عصر السيارات والطائرات ؟ لقد بعته . وقدمت ثمنه رشاوى لبقة للنقاد كي يقرظوا قصائدي تقريظ يغري الغلبات والغلبين بشرائها مني .

قلت : أما زلت تنظم أشعار حب لعبلة ؟ .

قال عنترة : لا لا . ابتعدت عن مثل هذا شعر الذاتي الذي يعبر عن همومه فردية . وقد أصبحت لا أكتب إلا الشعر الذي يعبر بصدق عن هموم أمة .

قلت : لا أصدق .

قال عنترة : أتجرؤ على الشك في التزامي الأدبي والوطني والقومي ؟ .

فقلت لعنترة العبسي : هل أصدق ما أجيبه يوميا وأصدق مجرد حكي ؟ لو كان ما قلته صحيحا لما كنت تمشي في الشارع . ولكنت في السجن تنتظر كتحة تجر للذبح .

حائم على الطريقة العربية

قلت لجبران خليل جبران : أدمنت كباس من الورق . وبيدك تمسك القلم بدأبية للكتابة . فما هو جديدك ؟ .

قال جبران : الذي يشرفني أنوي تنفيذها مشروع لأول مشع من أي مت راقبي عن كثبي . وأحد متخيلة مقصرة . وسأحاول كتابة كتابة جديدة حتى تصبح كالتالي

كتاب الموسيقى سيحكي عن الشجر حرمت الموسيقى على الخلاف والشجر . وعندما خلقت الموسيقى وتشجرت كانت الأشجار هي الضحية .

كتاب الأجنحة المكسرة سيحكي عن أناس كانوا ذوي أجنحة . ويحبون كما تطير الطيور . ولكنهم فقدوا الأجنحة لأنهم اختاروا أن يحكمهم الصيادون . وبقيت القربان وحدها تطير .

كتاب الأرواح المتمردة . سيتناول بالبحث والتحليل والتقويم أوضاع لبنان . ويقترح تحويله إلى وطن للأرواح متمردة بكافة بيكون تدريجيا .

كتاب دمعة وابتسامة سيلفت الناس إلى أنهم لايحق لهم الشكوى لأن هناك من هو أكثر من البائسين منهم . فالدمعة تتطلب تعيين وتقويما وتزيد من بؤسها . أما الابتسامة فلا غاية لها إلا إظهار الأسنان والأضراس . وهي غاية تافهة لاتستحق أدنى اهتمام .

كتاب البدائع والطرائف . سيعطي بريدك حقيبة خطيرة مليئة بالخشب أن البدائع هي أن يحيا الانسان بلا ذل . وأن الطرائف هي أن يستمر في الحياة مرحبا بالذل .

قلت : وماهو مشروعك الثاني ؟ .

قال جبران : سأصدر مجلة أدبية فكرية فنية . وأتلقى الدعم مادي ومعنوي من جيبات شتى . ومن يبخل في دفع عدو الأدب الأصيل والفكر العميق . وستمنح الجماهير ويدينه التاريخ .

الأمس واليوم

قلت للشنفرى : لماذا تتسكع في الشوارع ربّ الشباب . منكس الرأس . مبهوت . ولاسيما أنك الشنفرى . الشاعر الشهير . المقاتل . المتمرد . وصاحب سيف أقسم أن يقتل دابة من خصومه . وبرّ بقسمه ؟ .

الشنفرى : أنا بلا عمل . ومن كان بلا عمل فتربه البؤس والفقر والجوع .

قلت : على العكس . فمن كان بلا عمل حق له أن يفرح . فالعمل هو سنوات كلب تعب وعناء من دون يوم واحد للحصاد .

قال الشنفرى : ولكني سأموت جوعا إذا لم أعثر على عمل ما في وقت قريب .

قلت : الجوع صديق قديم لمعظم العرب . والعربي الذي لايجوع بين الحين والآخر هو مواطن مشكوك في عروبته ووطنيته .

قال الشنفرى : لابد من ايجاد عمل لي يتناسب مع مؤهلاتي .

قلت : وماهي مؤهلاتك ؟ .

قال الشنفرى : أنا كما تعلم أمة سبقة بدارا

قلت : إذا بعت سيفك فلن يكفي ثمنه لإطعامك خمسة أيام . أما إذا شهر سيفك . فلن تخيف أحدا . فتلوب شاة

قلت وتحجرت إلى حد أن سيفك ما سيفك لاعصى له إلا في مطابخ للطاهية

قال الشنفرى : ولكن لست أيضا ، الكلمات ماهو أروع من كلمة .

قلت : الكلمات هي كلمات . و تخترع بعد وسيلة تحولها إلى نقود

قال الشنفرى : أستطيع أنظم شعرا بعضه يرضي الحكام . وبعضه يرضي الحكوم

قلت : ارحم قومك . تكفيك اسرائيل واحدة .

قال الشنفرى : سأكتب قصة قصيرة متلائما مع متطلبات العصر .

قلت : تأخرت . فالموضة الرائجة الآن هي تربية الكلاب وكتابة روايا طويلة للغاية .

قال الشنفرى : سأشتغل بالتجارة . وأبيع وأشتري . وأجني الأربا طائلة .

قلت : بيع وطنك وأوطان بتجارة الوحيدة المضمونة للنتائج . ع الخاسرة .

قال الشنفرى : سأصبح متسولا

قلت : ستصبح متسولا يتطلب الع من متسولين .

قال الشنفرى : سأسرق .

قلت : إذا سرقت فلا تسرق سا ولا عوقبت شر عقاب .

قال الشنفرى : لن أسرق إلا البخ وقد يشابهني .

قلت : إذا نجحت فأنت الخالدين . ولكنك لن تنجح . فمن يس له بأن يسرق بحرا ينبغي له أن يكون قبل قد سرق حرية شعب .

قال الشنفرى : سأتملق وأتافق

قلت : المتافقون كثيرون لعدد الـ . أنك قد تموت قبل أن يأتي دور تتملق .

قال الشنفرى : لم يبق لي سوى الضحك

قلت : لايوجد في الحياة العر سبب واحد للضحك . والضحك من سبب هو قلة أدب . فهل توافق على تكون قليل الأدب ؟ ! .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ماجـــرى للمتـنبي في رحلاتـــه..

إلى عبدالعزيز التويجري صديق المتنبي

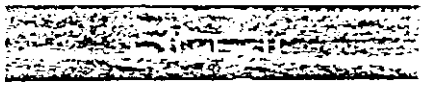

خواطر تسرّ الخاطر

بقلم: زكريا تامر

كانوا في لندن. وانبهرت عيناه بأشياء كثيرة في لندن. فقال لصديقه المتنبي: سأحكي لك عما شاهدته في لندن. وسأجوب عن أسئلتك كافة.

وسمع المتنبي سعد رحمي عمره ألف سنة. ثم قال: ما أن حطت الطائرة التي أركبها على أرض مطار لندن حتى تناهت إلى سمعي زغاريد فرح بشتى اللغات.

القبيلة: لابد أنهم زغاريد ترحيب بك بوصفك شاعر العرب العظيم.

المتنبي: لا. فالزغاريد كانت موجهة إلى السيح العرب الذين كانوا في الطائرة. والمزغردون كانوا أصحاب الفنادق والبيوت المفروشة ونوادي القمار والملاهي والمطاعم والسماسرة والمترجمين والأطباء والممرضات.

القبيلة: هل قابلت ملكة بريطانيا؟..

المتنبي: كنت مشغولاً بما هو أهم. ولن أحكي عنه.

القبيلة: أقابلت الأمير تشارلز ولي العهد؟..

المتنبي: لا. ولماذا أقابله؟! وإذا قابلته فماذا أفعل به..

القبيلة: والأميرة ديانا؟..

المتنبي: قابلتها دقائق قليلة. وتركتها دقائق في صحبة لقائد. مؤلماً بتلقي تحيتي في بلاد الانكليز. فقد سألتني عنه تعرف عن الفلاسفة الأحياء عدنان أمين ودريد لحام وفؤاد الشهدي. فإذا هي لاتعرف عنهم شيئاً..

القبيلة: وماذا رأيت في لندن؟..

المتنبي: رأيت رجالاً كالنساء ونساء كالرجال. ولن يتم معرفة الاختلاف إلا بعد تشريح الجثث.

القبيلة: وماذا رأيت أيضاً؟..

المتنبي: رأيت أصحاء لايتنفسون السكاكين ويشهرون السيوف والمسدسات بل يتقضون على مرضاهم حاملين الفواتير التي تثقل من غير حاجة إلى سلك دمائهم..

القبيلة: وماذا رأيت أيضاً؟..

المتنبي: رأيت اللحم الحلال يمشي على أقدامه. وكل جائع سيشبع إذا كانت محفظته سخية ممتلئة بالجنيهات والدولارات. رأيت السيارات تسير في وسط الشوارع لا على الأرصفة. وسمعت أن كل من يعبر عن رأيه في بلاد الانكليز لايضطر أهله إلى كتابة اسمه في سجل المفقودين..

فتبادل أفراد القبيلة النظرات غير المصدقة. فقال المتنبي: ورأيت في لندن أسواقاً لايحصى عددها. ولكن أضخم سوق هي السوق العربية التي يباع فيها كل شيء. وأي شيء له ثمن محدد. ومن يدفع الثمن يحصل على مايريد..

القبيلة: ولابد من أنك قابلت صحافيين عرباً. فالصحافة العربية في لندن لها وجود باهر بالغ الأهمية..

المتنبي: لم أقابل أي صحافي. والسبب يرجع إلى أن بعضهم منهمك في العمل. وبعضهم منهمك في اجراء المقابلات مع الراقصات والسياسيين الذين يدفعون. وبعضهم منهمك في المتاجرة بالعقارات والمبادىء..

القبيلة: أيوجد في لندن عرب كثيرون؟..

المتنبي: إنهم كثيرون جداً. ولو استمروا بهجرتهم إلى لندن ويقيمون بها. فمن المؤكد أن عدد الأجانس في يوم ليس بالبعيد أن يعثروا على انكليزي واحد في بلاد الانكليز..

القبيلة: وماذا سيحدث عندئذ؟..

المتنبي: سيؤلف عرب بريطانيا دولة مستقلة ذات سيادة. ثم تنقسم الدولة إلى دولتين. وتنقسم دولتان إلى خمس دول. وتنقسم الخمس دول إلى تسع دول. وتنقسم التسع دول إلى عشرين دولة. وكل دولة تعادي الدولة الأخرى وتحتشد على حدودها الجيوش والدبابات والمدفعية..

القبيلة: وماذا استفدت من زيارتك للندن؟..

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المتنبي : « قررت اعلان الاضراب عن نظم الشعر ».

كافور : « ولم ؟ ألم أعد لك كل ما تريد ؟ ».

وقبل أن المتنبي جواب عن السؤال . وحكى عن سبب . فأصبح مهدداً باغتيال جديد . وقبل أنه يمتنع عن الكلام حتى يتأجل موته .

الرحلة الثانية

صاح كافور لأخشيدي بأعوانه : « قبل ثلاثة أيام دخل البلاد رجل غريب اسمه المتنبي . وأمركم بحضاره الي فوراً حيا أو ميتاً ».

وكان المتنبي آنذاك يمشي في شوارع القاهرة . وليد شخص . متنقلاً من شارع الى شارع . وكل شارع يبدو لعينيه عالماً جديداً سحرياً قادراً على أن يهب بهجة تحول الرمل الى عشب أخضر .

وبلغت بهجة المتنبي الذروة عندما رأى نهر النيل . فتوقف عن المسير . ونظر الى مياه النهر كأنه طفل يشاهد بحراً أول مرة في حياته .

قال النيل للمتنبي : « اهرب . الهرب هو ينتظرك جرأة وشجاعة وبطولة ».

فلم يسمع المتنبي مقالة النهر . انما دفعت الى مخيلته كلمات كثيرة تتنافس على وصف نهر وامرأة ومك عادل .

قال النيل للمتنبي : « اهرب اهرب اهرب ».

ولكن المتنبي كان يجهل لغة الأنهار . واستمرت كلماته في التنافس على وصف نهر عظيم وامرأة جميلة ومك رحيم متسامح . ثم تبددت فجأة حين انقض على المتنبي عدد من الرجال الأقوياء . القسوة الوجوه والأيدي . واقتادوه الى قصر كافور الأخشيدي غير مبالين بتساؤلاته وصياحه النزق الحتمي .

كافور الأخشيدي : « المعلومات المتوفرة لدي تقول إنك لست مصرياً ».

المتنبي : « اذا كنت مولوداً بالكوفة وجئت مصر إثراً فهل هذا مبرر لاعتقالي ومعاملتي أسوأ معاملة ؟ ! ».

كافور الأخشيدي : « لاتكن وقحاً . تتكلم فقط حين يطلب منك أن تتكلم ».

المتنبي (بهزء) : « أمرك مطاع ».

كافور : « احرس . ألم آمرك بألا تتكلم ؟ ».

المتنبي : « لن أتكلم ».

كافور : « ليس من حقك أن تتكلم أو تسكت إلا وفق أوامري . قل لي : ماسمعك ؟ ».

المتنبي : « المتنبي . أبو الطيب المتنبي ».

كافور : « ماذا تشتغل ؟ ».

المتنبي : « لامهنة لي سوى الكتابة . أنا شاعر ».

كافور : « لاتتحذلق . الشعر أيضاً مهنة لاتختلف عن مهنة الحداد والنجار والدهان وحفار القبور . اسمع . مادمت تزعم أنك شاعر . فمن أنت إذاً من السلطات المختصة ؟ ».

المتنبي : « وهل تطلب السحابة إذناً اذا أرادت أن تمطر ؟ ».

عبد العزيز التويجري

كافور : « أني أكلمك عن قوانين وأنظمة . فلا تجاوبني بكلام منمق سخيف يصح أن يوجه الى مراهقات . أنت الآن لست في الصحراء . أنت في بلاد يسودها التنظيم . وكل عمل لابد لصاحبه من أن ينال إذناً رسمياً قبل أن يمارسه . وأنت خالفت القوانين عندما نظمت شعراً من غير إذن ».

المتنبي : « لقد جئت الى مصر قبل ثلاثة أيام فقط . ولم أنظم بعد أية قصيدة . ولم أخالف أي قانون من قوانين البلاد ».

كافور : « أنت تدعي أنك شاعر . فما الدليل على أنك شاعر حقاً ؟ ! ».

المتنبي : « أشعاري مشهورة في البلاد العربية كلها . ولا أحد يجهلها ».

كافور : « ياك من وقح ! أتجرؤ على اتهامنا بالجهل ؟ ! ».

المتنبي : « كل ما أريد قوله هو أني شاعر ذائع الصيت . ونظمت كثيراً من الشعر ».

كافور : « هل غنى أشعارك مشاهير المغنين والمغنيات ؟ أم كلثوم .. نجاة .. وردة الجزائرية .. أحمد عدوية .. محرم فؤاد .. شادية .. عبد الحليم حافظ؟ مابك صامت ؟ لماذا لاتجاوب ؟ أرى أن وجهك قد احمر .. احمر خجلاً من افتضاح كذبك . سأتيح لك الفرصة لتثبت أنك شاعر . هيا اسمعني بعض أشعارك ».

المتنبي :

يـــا أعـــدل النـــاس إلا في معاملتـــي
فـــيك الخصـــام وأنت الخصـــم والحـــكـــم
أعيـــذهـــا نظـــرات منك صادقـــة
أن تحسب الشحـــم فـــيمن شحمـــه ورم
ومـــا انتفـــاع أخي الـــدنيا بنـــاظـــره
اذا اســـتـــوت عنـــده الأنـــوار والظلم
أنـــا الـــذي نظـــر الأعمـــى الى أدبـــي
وأسمعت كلمـــاتـــي مـــن بـــه صـــمـــم

كافور : « ماسمعته ليس سيئاً . أتجيد نظم قصائد المدح ؟ ! ».

المتنبي : « سبق لي أن مدحت الكثير من الملوك والأمراء . إلى أتقن المدح اذا كان من يمدحه يستحق به المدح ».

كافور : « مدحت تتقن المدح . فيسعدني أن تنظم قصيدة في مدحي . أنت الآن في مصر . وأنا حاكم مصر . واذا كنت لست عميلاً لأعداء مصر وتحب مصر فمن واجبك مدح حكامها ».

المتنبي : « أنا لم أمدح في حياتي سوى رجال عرفتهم وعرفت مآثرهم وما عملوه ».

كافور [illegible] فيما بعد [illegible]

المتنبي : « عرفت بعد معرفتي بك [illegible] قصيدة في مدحك ».

فابتسم كافور لأخشيدي . وأشار بيده لأعوانه . فهجموا على المتنبي . وصرعوه على الأرض ووضعوا ركبته في قفاه . وأثبت بعضهم أطراف جسمه . فمد بعض قدميه بينما راح بعضهم الآخر يرفس بطنه وجسمه ركلاً شديداً .

تألم المتنبي . ورغب في أن يصرخ متوجعاً . ولكن قاوم وكظم رغبته . وعلمت أنه لن يدفعه الى عصيان شاتماً مستفيداً . فضحك كافور . وقال : « ما أصوات الجحيم ؟ ألست شاعراً . ألست تصنع الكلمات ؟ ألست تكون مغنياً ؟ الله ! ما أجمل هذا الصوت ! تابع أصرخ ».

وحين تحول صراخ المتنبي الى بكاء ذليل أمر كافور بالكف عن ضربه .

ووقف المتنبي أمام كافور الأخشيدي يحني رأسه بذل . ممتلئ الوجه بالدموع والدماء .

كافور : « ستنظم قصيدة مدح تمتدحني ».

المتنبي : « سأفعل ما تأمر به ».

كافور : « سأعطيك مهلة مدتها سبعة أيام لكتابة القصيدة . وستنجو من القتل اذا أعجبتني ».

وهمّ المتنبي بالخروج . فقال له كافور : « اسمع يامتنبي . أياك وأن تظن أني كغيري من الحكام . اذا أعجبتني قصيدتك فلا تحلم حتى بمنصب واحد من أعواني ».

وعاد المتنبي الى كافور الأخشيدي بعد أربعة أيام وأسمعه منظومة من شعر في مدحه . فطرب كافور وانتشى . وقال : « أنت شاعر حقاً ».

وفكر كافور الأخشيدي لحظات . ثم قال للمتنبي : « سأعرض عليك عرضاً لامثيل له . اختر إما أن حتى الموت وإما الحصول على ألف دينار ».

المتنبي : « لا أحد يفضل الضرب على دينار ».

كافور : « ستنال ألف دينار اذا نظمت أروع قصيدة تهجوني فيها أقذع هجاء ».

حاول المتنبي أن يتكلم . ولكن كافوراً قال : « اسكت ولاتنطق بكلمة واحدة . اذا لم تهجني فسوف أضربك . واذا هجوتني نلت ألف دينار ».

المتنبي بأنه سيهجوه . ويرد بوعده . ونظم قصيدة هجاء كافور الأخشيدي . ونال ألف دينار .

ولم أن خرج المتنبي حتى تصايح أعوان الأخشيدي مستغربين مستنكرين . فقال لهم بصوت صارم : « ستقفون أغبياء تجهلون شعر البشر والحياة . سأشرح لكم ماقلت وأسبابه ».

شاعر متكبر متعجرف معتد بنفسه . ويجب أن ولاسيما أنه سيكون في المستقبل من الشعراء الذين وقد عاقبته شر عقاب . لقد أرغمته على مدحي أرغمته على هجائي . وهذا التناقض سيجعل المستقبل تهمة ثالثة تدين المتنبي . وتبرهن بجدارة مرتزق صغير غير جدير بالاحترام .

وقبيل بعد . اغتيل المتنبي . ومات الأخشيدي . ولكن ماتنبأ به كافور تحقق . فالمتنبي أصدقاء معجبون به . وخصوم يزدرون

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مركزي مكة ونجران في الشمال حيث كانا ملتقى القوافل والشعراء مع تأثيرات تنتج من مراكز حربية أخرى كدمشق وبصرى والحيرة . ولقد نشأ النمط الفني في احدى هذه المراكز الشمالية التي تأثرت بالآرامية وتطورتها ولعل السبب في ذلك يعود إلى الارتباط في أوائل القرن السادس وما له . وبعد أن انسحبت دولة العرب أدخلت إلى النمط اصلاحات بسرت الكتابة به . وقد تجاوزت هذه الاصلاحات فن الكتابة إلى اصطناع لهجة عربية واحدة من بين اللهجات المتعددة التي تتكلمها القبائل . ويقرر الفارابي « أن فيما وقع واستدام الذين عنهم أكثر ما أخذ معظمه ، وعليهم اتكل في العربية وفي الاعراب والتصريف ، ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين » وعلى هذا النهج الاصطناعي وعن الحويون في اصطناع قواعد النحو من طريق توجيه آيات القرآن والشعر الجاهلي واستخراج لغة مجردة على قدر الامكان من الاختلافات اللهجية .

وما دامت اللغة والخط قد رسخا فلم يبق سوى استخدامها في تدوين العلوم والاستعاضة عن الرواية بالتأليف والتدوين . ولعل ما يسهل بحث هذه المشكلة معرفة الطريقة التي كان يعلم بها الشاعر . هل كان يكتب ما يعلم أو يلقنه للرواية مشافهة ؟ وكيف كانت تنتشر آثاره بين الناس ؟ وعلى الرغم من ورود بعض الشواهد في الشعر الجاهلي تدل على علم بعض الشعراء بالكتابة فانه ليس لدينا مجال للاعتقاد بأن الشاعر الجاهلي قد دون آثاره . وعلى ذلك فان استمرار هذه الآثار يدل على اعتماد الرواية طريقة للنشر . وبما أن الشاعر يجد تشجيع القبيلة بعد شيوعها فانه يفسح المجال لعدد الروايات . وحين اتخذ التدوين شكلاً رسمياً بعد جمع القرآن ـ تركزت فكرة التدوين الكتابي في أذهان الناس في الربع الأخير من القرن الثاني الهجري وطارت طائفة من الرواة تختلف عن رواة القبائل في أنهم كانوا ذوي خبرة بأيام القبائل وأخبارها كما أنهم كانوا مقيمين في الحواضر والشهر هم خلف الأحمر وحماد الرواية والمفضل الضبي . وقد أباح بعض هؤلاء الرواة لأنفسهم التلاعب بالآثار الأدبية حتى تنادى متقفو البصرة بعدم الثقة برواية حماد واعادة النظر في مرويات خلف . وقد ساعد على تحبيس المرويات نحو العلوم الدينية واللغوية في العراق فقد نشأت مدرسة البصرة على القياس في النحو واللغة وكان من مؤسسيها أبو عمرو ابن العلاء وعيسى الثقفي . أما مدرسة الكوفة فقد اعتمدت على الاستدلال وثبت الشواذ واعتمدت على الكسائي . ولم يأت القرن التاسع الهجري حتى كان العلماء والنحاة الذين أخذوا كبار الرواة قد أثروا تدوين الشعر الجاهلي بشكل نهائي ، ومن أهم « المفضليات » و « الأصمعيات » ثم « ديوان الحماسة » لأبي تمام وأخيراً الدواوين و « الأغاني » ومجموعها تسير على أساس نسبة الأثر إلى صاحبه والتدقيق في ملابسات القصائد . ومع ذلك فان صحة الشعر الجاهلي تبقى موضوعاً للبحث بسبب تشكيك علماء العراق أثناء التدوين وليس لنا امام حجزنا إلا قبول الافتراض القائل بأن النصوص الشعرية ذات المظهر الجاهلي تمثلها صورة غير بعيدة عن المثل الأعلى الجاهلي للقصيدة

٩/١٧٩

عطشان ياصبايا

مجموعة قصص لسليمان فياض
اعداد مؤسسة الثرى للطباعة والنشر .
القاهرة ـ ١٨٣ صفحة من القطع المتوسط

عرض وتحليل : زكريا تامر

لكل قلب الانسان الذي يلتقي فيه الافراح والاحزان والآمال واشباع الحياة ، سيظل الموضوع الدائم الاساسي لأعمق الآثار الادبية ، وسيظل الصوت الحقيقي الحار الخالد الاشد روعة من الكلمات الآلية التي قد تعبر بها العاطفة المتطلعة الكتاب عن الاشياء والناس حولهم ، ويجدون تأثيرها في نفوسهم الذي يعمد الكثير من فنونه بعد زمن طويل .

وقد يكون المعيار الحقيقي من الوجهة الانسانية لانشاء وتسجيل ماهو آني وعابر في وقت واحد .

واذا كان الكتاب المبدع الخلاق هو ذلك الذي يمتلك من سحر من العالم البصري الذي يملكه انسان .. ولد في يوم من الايام وعاش لفترة ما فوق ارض صلبة ثم وقع الموت في الحمام .. فان الكتاب البصري الذي استطاع سليمان فياض في مجموعته القصصية (عطشان ياصبايا) كان واحداً من المخلصين القلائل لهول كارثة صادفته من هذا القبيل .

ومن البديهي ان الكاتب في عصرنا مضطر لان يكون رمزاً للانسان الواعي المطلوب منه موقفاً محدداً تجاه هوله . وليس باستطاعة الكاتب الانسلال من عصره ، وسيظل ساحة اصطكاكاً لجياد ذلك العصر ولكن الكاتب باستطاعته ان يكون تورياً صادقاً أو كاذباً مع نفسه قبل الناس معاصريه .

والكاتب العربي في هذه المرحلة الحرجة

الشعرية . كما أنها تقدم صورة مستطيع بواسطتها أن نتعرف على الوسط البدوي . وعلينا أن نتمثل هذه الآثار بجملتها وألا نعتبر سوى العواطف العامة التي عبرت عنها دون الدخول في جزئيات العبارة .

هذا هو عمل البحث الذي يقدمه المستشرق الدكتور بلاشير عن الأدب الجاهلي في الجزء الأول من كتابه . ويعتبر هذا البحث بالتشكل الجديد الذي عهود إلى أحد المراجع ويمتلكها في مكان واحد تخرج منه بطريقة قد لا تكون نهائية لكنها تعيد الدراسين باقتراح منهج يعتمدون عليه في دراساتهم اللاحقة . وليس لنا إلا شكر الدكتور ابراهيم كيلاني على ترجمته الواضحة السليمة التي تمتاز بدقة الأسلوب وسلامته .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التي تمر بها بلاده خير على ان يكون تورياً . وسيكون خير ادب له ولو جوزه اذا لم يصنع ذلك عذاب الانسان المعذب تحت وطء الاوضاع الاجتماعية ، واذا لم يجد المعذب الالم من الورد والماء ، وشعار خوض المعركة ضد مدمرا قضاً المر التي وقعت الاسباب حريته وكرامته وحلمه والامه سيكون شعره ، على بارع الاجابات جهوداً لانقاذ جهوداً في الانسان ومشكلاته . لذلك وجب على الفن ان يكون سلاحاً يدافع عن الانسان عندما يكون ذلك الانسان مهزوماً ، مذنباً فالحاوي الجانح المعذب الياس ان يستطيع رؤية الورد الجميل والماء الزرقاء ولن يصبح لتغريد عصفور أو لحرير سماء .

ولقد استطاع سليمان فياض ان يخلق نجاحاً باهراً في تصوير عذاب البشر في حياتهم اليومية ، وتجلى في قصصه تجديد عميق لادراك الواقع ادراكاً واعياً يجدد الارض والانسان . والعالم الذي تقدمه القصص هو عالم الامور اليومية حيث تصخب اهواء البشر وشهواتهم وآمالهم . عالم واقعي معنى بالاشياء المرئية الملموسة ، تتوفر فيه خصائص ومعلومات تقدمه وجوداً حسياً دون الحاجة لتبريره بأية معجزة .

ان ابطال القصص هم مخلوقات من لحم ودم ، رؤوسها ليست محشوة بتبن الكتب ، تعيش بعفوية دون استئذان ، ولا تجادل في افكار تبريرية ولا تبدع نظريات فلسفية او حكماً ، هي مستغرقة في تيار الحياة اليومية . واستغراقها ليس بمعنى اذعانها لواقع قاس اقوى منها انما لمعرفتها ان المعركة هي نهاية كل صراع ، وهي ليست شريرة ، ولكنها ابداً ليست طيبة بالمعنى التقليدي فقيمها مستمدة من طبيعة واقعها اليومي ، وتتجلى على علاقاتها روح انسانية هائلة على تناقض مدهش يتميز بحيويته الشديدة بالدم الحار المتدفق من جرح كبير . فاشخاص القصص هم اشرار وطيبون في آن واحد في قصة (الناس والمارس) عدم الناس على السرقة دون ان يشعر انه يرتكب عملاً غير مشروع ، ويتركه صديقه في الاسطبل الخربة ليتركه يواجه بدقة المارس بمفرده ، ويردد الناس في ذل المارس ، والمارس يرتعش بجنان الناس الذليل ويخاطبه بتدم قائلاً (لولم اوطك انا .. لغيري انت) . وبطل قصة (يهوذا والجزار والشجية) يخون المرأة التي تعشقه من اجل مبلغ من المال ولكنه يوشك ان يفجر باكياً لحظة سادبه مستغيثة حين يوم اعدازها بخنقها .

ان الحياة اليومية في القصص تبدو وكأنها قدر غامض موحش يتحكم بمصير البشر ويسوقهم نحو مصير مفجع لاخلاص منه ، فبطل قصة (عندما يلد الرجال) يعجز عن فهم الحياة التي تفسر الانسان على الخلي عن كرامته من اجل القوت ويعتبرها نوعاً من المعجزة ذات التأثير السلبي المدمر .

وترين على بعض القصص نظرة تعبير الانسان مجرد تأثير سبيل ، له دور صغير في الحياة ، يؤديه ثم يرحل عن الارض .. هذه الارض التي تتسع فقط لشمس ومطر ولرجل واحد ولامرأة واحدة لكي تبقى الحياة مستمرة على سطحها ، وبطل قصة (العاصفة) يعبر عن هذه النظرة باعتقاده : (كان ينبغي للسماء ان تدور حتى لو كان ميتاً .. لابد الى تدرب الارض وان يكبر الارز ويكبر).

وثمة بطل واحد مشترك عند من القصص ويتردد باستمرار باعتباع ، حب وحزن ، وهو البحث باستمرار عن شيء ما مفقود كأن طبيعة الحياة نفسي وجوده .. حين يتحول باستكناه بديل وجه الحياة الباس وتتبع السعادة والطمأنينة .. وتتلخص هذا البحث على الدوام ، دون الوصول على حل لما هو مفقود بالنسبة له .

واذا كان ابطال القصص يتشابهون امثال السود عاس هذا وجهه سوداوه ، ويبدو انا هو نفسه مختلف من واقع نفسي جديد ، يبدو مختلفون يحاولون الظفر بالسعادة ، وتجد تورتهم الى مزيد من التوغل في ذلك الامل الحسي المرير الذي يدمرهم لان يفقدوا حياتهم في جحيم القصور اراقة الدماء أو لأن يشتبوا بالوهم ويدمروا مقدم المعجزة التي ستغير حياتهم في قصة (مطبات باسيليا) لا يفوت الامل بانثه كثيراً مدفوناً تحت ارض القرية ، ولن يملكه البشر الا اذا آمنوا بان تكون ملكهم جميعاً لا لاحد فقط .

وقد قال مالارميه مرة : (ان تسمية الاشياء تعادل اثنا الايحاء بها هو خلقها) وهذا الامكان تعبر باختيار من مزايا اسلوب سليمان فياض التي تجرده القصص خلو من الشرح البطيء الممل للتفاصيل والجزئيات مما يجعل من عملية القراءة عملاً من المتعة التي يرى الكاتب من عالم جديد مجهول ياس أحياناً ، وحوادث القصص ليست عابرة لانها تحمل معنى عميقاً ، ويتجسم من شخصيات هذا طبائعها ، ويتجح سليمان في خلقه الوهم بأن هذه الحوادث حقيقة عاشها فعلاً من خلال ملاحظات والتصوير الدقيق ... الذي لا من طريق تصوير شعوره معه .

وسليمان فياض لا يعيد نفسه في مكان او زمان معين انما هو يحطمها تحطيماً الواعد التقليدية ليعبر باسلوبه الخاص عن موقف شعوره .

ولعل عدد المزايا جميعاً تتحد في قصة (يهوذا والشجية والجزار) التي تمثل بتمثل على الامكان في احسن حالاته وتجعله تطور من الممكن لحسنه وسابقه غير القصص .. هذه القصص التي تشكل مجموعها ساح وان خاص جديدي يسير في طريق النضج والعطاء احسن السعي .

●

دور النقد في التغيير

النقد سلاح لابد من ان يشهره المجتمع الذي ينشد الخلاص الحقيقي من بؤسه لا الخلاص الوهمي المجسد في خطب ومقالات واغنيات ومسرحيات . فهل بلغ الانسان العربي آخر الطريق وظن بما يسير اليه من تطور وتقدم . فأمسى واهما الافضل والامثل والاجمل والاروع . ولم يعد للنقد اي دور . ويوجب عليه ان يغسل يديه منه ويرحل ؟!

ان المجتمع العربي لازال بأشد الحاجة الى النقد الصارم الذي لايشفق ولايهادن ولايساوم ولايتطور ولايتغير تبعا لذلك . فهذا النوع من النقد حين يتجه الى الاخطاء ويطلق النار على مرتكبيها يساهم مساهمة فعالة في القضاء على تلك الاخطاء .

ان الخطأ الصغير اذا اهمل . فانه يتضخم ويغدو قوة قادرة على البطش بما انجزه الشعب من تطور . فالجرح التافه كثيرا مايكون سببا في هلاك جسد متخم بالقوة والصحة والحيوية .

ومن يعمل بالخلاص لا يجب ان ينتظر الاوسمة والفضائل اذ لم يفعل الا

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واجبه . اما المسيء فهو الخطر الحقي الذي يتجمع ان يهاجم ويمزق امته .

اما الذين لايرحبون بالنقد . ويعلنون الحرب عليه . ويطرون اليه على انه شتائم وتهديم وتخريب وتحبير من عداء للشعب والدولة فهم يحمون اشخاصهم . ويدافعون عن مصالحهم التي يهددها النقد .

ان غياب النقد في اي بلد هو ضربة للتطور والتقدم . فالنقد هو التربة . وهو التجسيد للارادة اللامحة الى الانتصار على واقع فاسد . وهو القادر على دعم ارتباط المواطن بوطنه الارتباط الذي يستطيع في ساعة الخطر ان يتحول الى قوة تقاتل وتنتصر .

زكريا تامر

ولابد من التنويه بان جيل الاطفال لا يمكن ان ننمو الشر السليم في مجتمع سادس الاباء والامهات فيه اللام والدمار والدمار والحرب ، ولذا كان الاهتمام العظيم بالاطفال يتطلب في الوقت نفسه الاهتمام ايضا بالكبار ، فتحرير الكبار مما سببوه انسانيتهم ويحتل دون سلوكهم هو الخطوة الاولى التي لابد منها في الطريق الوعر الى حل جذري يسمح بالقدرة على مواجهة الاخطار المحدقة بوظيفة الواجبة التي سعر عنن انتصارات لا من مزاعم وروايات بيضاء .

الاطفال والمستقبل

د.كوريا ماهر

اطفال الوطن العربي الملايين في المستقبل بانتظار عالم يستطع ايفاؤهم واجتيادهم انتباهه .. هؤلاء الاطفال تلوا امدا طويلا مهملين وفريسة لنوع خطر من الكبار والمسلين العاملين في مجال سلامة الطفل ، والذين ينظرون الى الاطفال على انهم مجرد وسائل تكمل لهم جني المغانم المادية ، واهداف عزلاء يجب ان تسود .

وفي السنوات القليلة الاخيرة ، نبهت اجهزة سلامة عربية الى الدور السلبي الذي يمارسه هؤلاء الكبار والمسلون ، فايقنت سعي بالطفل وسلامته ، ولكن عملها كان سببها بمفارة مداد تبعي غزيرة بشر ، وما زال محتاجا الى تكريس اكثر الطاقات كمادة وموهبة واخلاصا ووعيا حتى يتمكن من ان يؤثر الكائن المتسود ، فيصنع المستقبل العربي جيلا مؤهلا لرفض كل ما هو عفن معاد للانسان .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قراءات

عبد الرحمن الكواكبي

(.. ما هذا الحرص على حياة تعيسة دنيئة لا تملكونها ساعة ، ما هذا الحرص على الراحة الموهومة وحياتكم كلها نصب وتعب ؟ هل لكم في هذا السير فخر او لكم عليه اجر ؟)

(.. ما هذا التفاوت بين افرادكم ، وقد خلقكم ربكم اكفاء في البنية ، اكفاء في القوة ، اكفاء في الطبيعة ، اكفاء في الحاجات ؟)

(.. الم يخلقكم سادة احرارا لا يثقلكم غير التور والنسيم ، فابيتم الا ان تحملوا على عواتقكم ظلم الضعفاء وقهر الاقوياء ؟)

(.. ليس بين صغيركم وكبيركم غير برزخ من الوهم ، ولو درى الصغير بوهمه ، العاجز بوهمه ، ما في نفس الكبير من الخوف منه لزال الاشكال وقضي الامر الذي فيه تختلفون ومنه تشتكون ..)

(.. اجدادكم يتاوهون الان في قبورهم مسكونين اعزاء ، وانتم احياء ، معوجة رقابكم ، اذلاء . البهائم ترد او تشرب تاميها ، وانتم من كثرة الخنوع كادت تسير اقدامكم قوائم . الثيران تطلب الماء ، وانتم تطلبون الانحناء . لتملكم الارض لتكونوا على ظهرها وانتم حريصون على ان تغرسوا في جوفها ، فان كانت هذه بغيتكم فاصبروا قليلا لتتاوهوا فيها طويلا ..)

(.. ان كانت المظالم غلت ايديكم وضيقت انفاسكم حتى صغرت نفوسكم ، وهانت عليكم هذه الحياة ، واصبحت لا تساوي عندكم الجد والجهد ، وامسيتم لا تبالون العيشتين ام تموتون ! فهلا تخبروني لماذا تحكمون فيكم الظالمين حتى في الموت ؟ اليس لكم من الخيار ان تموتوا كما تشاؤون ، لا كما يشاء الظالمون ؟ هل سلب الاستبداد ارادتكم حتى في الموت ..)

(.. الهرب من الموت موت وطلب الموت حياة ..)

عبد الرحمن الكواكبي

من كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد)

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قال الملك وزيره

زكريا تامر

العائلة

جلس الملك في حديقة قصره، وجلس وزيره بالقرب منه.

نظر الملك الى العشب الاخضر المتشابك والأشجار والورد المتعدد الألوان، ونظر الى السماء، فاذا هي عميقة الزرقة تعبرها غيمة بيضاء صغيرة، فطفق يحب بكل ما على سطح الأرض، وحدق الى وزيره بنظرات متفحصة، ثم قال له بنهجة مشفقة: «يبدو عليك التعب الشديد، منذ سنوات لم تنل أي اجازة».

قال الوزير: «اذا كان التعب صاحبه خدمة مرعية فهو ليس تعباً. انهم ألا يتعب الضمير».

قال الملك: «العامل يشتغل في النهار ويستريح في الليل، أما أنت فتشتغل في الليل والنهار».

قال الوزير: «أن أسهر الليل خير لي من أن يحاسبني ربي احساب العسير على تقصير غير مقصود بدر مني».

فلاذ الملك بالصمت مفكراً. وفجأة قال لوزيره: «أتعرف بماذا أفكر؟».

قال الوزير: «انه وحده هو العالم بما تخفي الصدور والرؤوس».

قال الملك: «إني أفكر في تنظيم جديد شديد يكفل لك بعض الراحة. ساعين لكي قضاع وزيراً. والوزراء كافة يعملون تحت امرتك».

قال الوزير باستعفاف: «انهم أن توفق في العثور على رجال مخلصين ذوي كفاءة. فلا شيء أصعب من إيجاد الرجل المناسب ليجلس على الكرسي المناسب».

قال الملك: «أريد وزير خارجية نشيطاً، يكون سفيري الى دول العالم، يسافر ويفاوض، ويجمع المعلومات عن أعدائي في الخارج».

قال الوزير: «هذا منصب يبقى بابقي الأيام لمكانته وقد يحب صاحباً متنقلاً من بعد الى بعد».

قال الملك: «وأريد وزيراً للتعليم يعلم ويعلم حتى لا يبقى أمي واحد في البلاد».

قال الوزير: «التعليم أمر جيد، ولكن المعلم مقدر له أن يشقى في حياته. واذا كان فقيراً صار حسوداً. والحسد يقود الى التهلكة أو الفشوط والتعاسة. والمعلم أفضل من يشغل هذا المنصب هو زوج حاتي، فهو مغرم بالتدريس، ويجمع حوله الأولاد، ويلقي عليهم دروسه. وحين لا يجد أحد ينصت له يلقي دروسه على الحيطان».

قال الملك: «وأريد وزير للزراعة يجود البلاد الى حدائق وبساتين وحقول خضر».

قال الوزير: «تذكرت ابن عمي فهو ذو يد مباركة ما أن تمس غصناً يابساً حتى يخضر وينمو ويكبر».

قال الملك: «وأريد وزير للعمارة، لزيد المدن تظيم البيوت».

قال الوزير: «هذه الوزارة ليس لها سوى بناء واحد، فهو يمتلئ بدءاً بالطابق الأرضي وانتهاء بالطوابق العشرات التي في البيوت الواطئة».

قال الملك: «وأريد وزير للثقافة».

قال الوزير: «إني أخشى بصغري سني، وهو لا عمر. ومن الخير أن يبقى بلا منصب. وأفضل له منصب وزير الثقافة لإلمامه الواسع وأنه يعنى بالشؤون الثقافية والفكرية. ولا يشرئ مجلة فنية الا ويقرأها ويحفظ ما ورد فيها».

قال الملك: «وأريد وزير للاعلام».

قال الوزير: «القابلة التي تولت اخراج أبنائي من ظلام البطن الى نور الدنيا هي احسن وزير اعلام في الدنيا. فاذا قيل أمامها في الصباح خبر، انتشر الخبر وشاع في آخر الدنيا بعد ساعات».

قال الملك: «وأريد وزيراً للصحة، يعنى بصحة الناس، ويتبع المستشفيات، ويؤسس المدارس للأطباء الماهرة حتى يصبح العثور على مريض واحد أمر مستحيل».

قال الوزير: «أتريد وزيراً أم وزيرة؟ هذا المنصب مناسب للنساء مع اني قلما ان تعمل المرأة خارج بيتها، ولكن وجود امرأة وزيرة سيكسب بلادنا في الخارج سمعة حسنة. وابنتي مؤهلة لهذه الوزارة، فهي لم تبرح طوال حياتها الا الثياب البيضاء».

قال الملك: «وأريد وزيراً للشرطة، مهمته تمييز الخبيث من الصديق».

قال الوزير: «أعفاني مستقلاً بعد أن يتولى كل وزير مسؤولياته. وأقترح أن أتولى بنفسي هذه الوزارة بالاضافة الى رئاستي للوزارة، وسأبيد خصومي مولاي قبل أن يقرروا ان يصبحوا خصوماً».

قال الملك: «وأريد وزيراً قديراً لجيوشي».

قال الوزير: «الملك العظيم يفعل ما لا يتوقعه الناس، وما يباغتهم ويحيرهم. كل الممالك والبلدان تختار مشاهير الأبطال قواداً لجيوشها. فاذا اخترنا مشمساً اختار غيرنا لا نظيف جديداً جديراً باحترام التاريخ. واذا أردت يا مولاي فسيجيباً اعلامياً في العالم فاقترح أن يكون الوزير جباناً رعديداً لا يجرؤ على المشي في الظلام الا اذا كانت أمه تمسك يده. أما اذا اردت وزيراً يخشاه الأعداء فاقترح ان تكون مهنته الأصلية حفر القبور. فيرتعب الأعداء منه، و يعرفون ما ينتظرهم اذا ما تجرأوا على مواجهته في ساحة حرب».

قال الملك: «وأريد وزيراً للاخلاق الحميدة».

قال الوزير: «البلاد وله الحمد تعج بالناس ذوي الاخلاق الحميدة. واصحاب الاخلاق غير الحميدة هم إما ماتوا، وإما في السجون ينتظرون الموت».

قال الملك: «وأريد وزيراً للاستيراد».

قال الوزير: «لا أحد يضاهي ابن عمتي في الخبرة في الاستيراد. وسنستورد النساء الجميلات من أقاصي الأرض لا لارضاء الشهوات بل لتحسين النسل. وسيكون أجمل بجميد شعب من أجمل شعوب العالم».

قال الملك: «وأريد وزيراً للاقتصاد».

قال الوزير: «أعوز وجني تاجر عريق يبيع الجمل على أنه دجاجة أطفال».

قال الملك: «وأريد وزير للشعر، يحفل الشعراء عن الانتزاء بآلام الناس والتعبير عنها».

قال الوزير: «سأجبرهم مولاي على مخالفتك، فالناس في عهدك هم آلامهم وليست هم آلام، ولا آلام في حياتهم سوى آلام الصداع».

قال الملك: «وأريد وزير للصحراء، سأسميه وزير الصحراء. ستكون مهمته انشاء طرق جديدة في الصحراء، فاذا اكتفت الصحراء بالطرق أضفت الى البلاد مدن جديدة. و ينبغي لذلك الوزير ان يقيم بالصحراء مع النعمان، يبردون كما يبردون، و يعاني الحر كما يعانون، وقد يمرض ويموت، ولكنه سيموت شهيد الواجب».

قال الوزير: «سننشر اعلاناً عن مسابقة صارمة الشروط. ومن كان ذا كفاءة فيفتقر بالوزارة».

قال الملك: «حين سيبدأ هؤلاء الوزراء أعمالهم سيتاح لك آنذاك أن ترتاح».

قال الوزير: «ولكننا بحاجة الى وزير للشمس. الناس في الليل يضيئون بيوتهم بنور الكهرباء، و يدفعون في آخر الشهر ثمن الكهرباء، فلماذا يستفيدون من نور الشمس في النهار مجاناً؟».

ولم تؤلف الوزارة، ولكن الجباة النشاة انتشروا في المدن والقرى، مطالبين الناس بدفع ثمن ما استهلكوه من نور الشمس □

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قال الملك لوزيره

زكريا تامر

بلاد بلا دباع

■ كان الملك غاضباً أشد الغضب، وحاول أن يكظم غيظه، ولكن غيبه تمردتا، فكانتا صارختين قاسيتين. فقال لوزيره بصوت بذل جهده كي يكون عادياً: «هل أنت متأكد من أنك تنقل إليّ كل ما يجري في المملكة؟».

قال الوزير: «إني أنقل إليك حتى مشاجرات الأزواج والعشاق وأخبار الطلاق وأسبابه».

قال الملك: «أنت تنقل إليّ القاذورات وتحجب عني المهم والخطير».

قال الوزير: «لو أمر مولاي بوضعي في السجن مدى الحياة لكان مصيري أرحم من مصيري الآن».

قال الملك: «إحدى زوجاتي قالت لي اليوم صباحاً إن أحد الشعراء هجاني بشعر يردده الناس في شهرزاد صباحين ومتمردين، فهل هذا صحيح أم كذب؟».

قال الوزير: «هذا الشاعر البديع هو في السجن يئن ويستغيث ولا من مجيب، ولن يخرج منه إلا إذا تنصل من قصيدته البذيئة بقصيدة مديح».

قال الملك: «إذن الخبر صحيح؟!».

قال الوزير محني الظهر والرأس: «الخبر صحيح».

قال الملك: «وماذا تخبرني به؟».

قال الوزير: «لأن مهجتي في العمل هو ألا أعرض عن مولاي إلا عظائم الأمور، ولا أشغله بالتوافه».

قال الملك: «هذا حال لا تطاق. من يهجون يطلب منهم أن يسكتوا فوراً، لا ندفع له تابع هجاءه وتسدي كثير ومن يمدحه يطلب أيضاً مالنا كأجر عن ممدوحه، وقد لا يعطونه ما يريده. اقتلع عينيّ، وفكر من شعر المديح إلى شعر الهجاء. وفي كل الأحوال نحن الخاسرون».

وصمت الملك، وراح يفكر. ثم قال لوزيره: «لصيادون يصيدون السمك في البحر والنهر، فما حاجتهم إلى الشعر؟».

قال الوزير: «الصيادون لا يهمهم سوى الخبز واللحم والمرأة».

قال الملك: «والفلاحون يحرثون حقولهم ويبذرون البذور ويسقونها بالماء ويتعهدونها بالرعاية، فهل هم بحاجة إلى الشعر؟».

قال الوزير: «الفلاحون في شيوخهم مقصورة بحر سحيت، ولا يشغلهم سوى بخمس نفر».

قال الملك: «والحمالون يشيدون البيوت والقصور ويعبدون الشوارع والطرقات، فهل هم محتاجون إلى الشعر؟».

قال الوزير: «لا يشغلهم إلا زيادة أجورهم وأن تغرب الشمس في أسرع وقت».

قال الملك: «والبحارة يبيعون ويشترون في حياتهم، فما حاجتهم إلى الشعر؟».

قال الوزير: «الحرف البحارة كي الحرف وسدي، فهم دائم يبيعون ويشترون ويربحون، فلا شيء ينقصهم».

فقال الملك متسائلاً بمرارة: «ما دام الناس لا يعنيهم الشعر، فلماذا لا يصدر قائلون يحظر نظم الشعر؟».

فابتسم الوزير، وقال للملك: «أيأذن لي مولاي بالكلام؟».

قال الملك: «تكلم. من يوثق فمك؟».

قال الوزير: «لو صدر مثل هذا القرار، فمن يفيد الفائدة المرجوة. الشعر كالمرض الذي لا دواء له، والمصاب به لا يستطيع الشفاء منه، ولا بد من أن يقول شعراً. الشعر كالغراب. الغراب خلق لينعب، والشاعر خلق ليقول الشعر. وهذا القرار سيخيف التافهين فقط وسيتقيدون به أما الشعراء الآخرون فلا شيء يوقفهم عن كتابة الشعر. ومن فحاوى هذا القرار أنه سيثير حولك بلاداً شاسعة معرضة وبراعم حاقدة أنها ضد الشعر والأدب والفكر والحرية، وحينئذ سيتحدون من القرار فرصة لتشويه سمعة مملكة بين الممالك».

قال الملك: «إذن سنتسرع عن الشعراء صفة المواطنين، ونطردهم من البلاد».

قال الوزير: «لن نطردهم وحدهم. سنطرد كل همة الأقلام. سنطرد كتاب القصة والرواية والمسرحية والنقد. ويجب أن نعنى عناية خاصة بطرد النقاد، فهم إذ حرمهم النبع الأدبي الذي تعودوا نقده، تحولوا من النقد الأدبي إلى النقد الاجتماعي. ومن النقد الاجتماعي إلى النقد السياسي».

قال الملك: «سنطرد كل من هب ودب وكتب كلمة».

قال الوزير: «وماذا نطردهم؟ إذا طردناهم سنفقد معزوفة ولا سنفقد مديحاً».

قال الملك: «ألا ترى كيف سنتخلص منهم هذا وهم سر متسولين ووقحين».

قال الوزير: «ثمة بلاد تشتهي غيبة تحتاج إلى أمثالهم، ونعمل باستمرار عن سمعتهم لاستيرادهم، ويحق سنتوه بتصديرهم إليها لقاء ثمن بخس بالطبع».

فقال الملك بدهشة وفرح: «هذه أعظم فكرة عبر سمعته لأذناي منذ أن ولدت».

وهنأ اقتراح الوزير، فأصبحت مملكة بغير أدباء، ولا يشعل أي شيء غير أن العشب في ربيع تنبت بهدوء، وتلون لونه الأخضر □

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

Abstract

Zakaria Tamir and the Short Story

By : Imtinan Othman Al-Smadi.

Supervisor : Dr. Sameer Qatami.

This thesis gives a glimpse of the reality of the Syrian short story from the beginnings of this modern art form until the eighties. It attempts to show the place of Zakaria Tamir in this field and to highlight his contribution to the short story which is greater than what it was previously believed to be in the sixties.

٤٤٠٢٢٢

This study aims at highlighting certain aspects of this writer's life and thought by making use of what has been written about him in literary journals and articles in newspapers and magazines. This research also sheds light upon the social, political and economic issues treated by Zakaria Tamir in his five collections of short stories. It is evident that they all follow the same line of thought - that is the destruction of the individual, his dim unition, defeat and cynicism in the face of existing authority in all its forms.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

This research also tackles the development of this modern art form which is based on experience. Tamir's stories are considered to be fertile ground for different kinds of studies. Tamir has incorporated new artistic forms from foreign literatures in developing the short story, using suggestive language full of anger and tension; a main character revealed by the monologue in an atmosphere of dreams and nightmares, reflecting the individual's inner conflicts (the search for the meaning of existence); and external conflicts represented by models of a repressive authority.

It can be said, in conclusion, that the crisis of the individual originates with man and accompanies him to his death. The individual cannot free himself of this crisis because of the state of alienation which envelopes his life with regard to family, work and everyday life. Therefore, we see that the individual in Tamir's stories tends towards the idea of destruction and rebellion. Thus, Zakaria Tamir is considered to be one of the most important pioneers of the short story who paved the way for the seventies' generation to confront the inner world of the individual and to closely observe his reactions .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit